مهرجان القراءة للجميع 

مكتبة الأسرة

محمد فريد أبو حديد

أنا الشعب

الأعمال الإبداعية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

أنا الشعب

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : **أنا الشعب**

التقنية : **ألوان جواش على ورق**

المقاس: ١٨ × ٣٠ سم

ناجى كامل (١٩٣٤-)

فنان تشكيلى مصرى، تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة (قسم النحت) ١٩٥٧ ، ثم درس بمرسم الأقصر لمدة عامين، وهو يستوحى أسلوبه فى النحت والتصوير من صيغ الفن المصرى القديم والفن القبطى والفن الإسلامى والعربى، وقد استخرج لنفسه أسلوبا مناسبا لروح العصر الذى يعيشه، فعبر بشكل جيد عن ظروف الحياة المعاصرة اجتماعياً وسياسياً، وقد عمل فى مؤسسة روز اليوسف، ومجلة صباح الخير، ثم انتقل إلى جريدة الأهرام، والأهرام العربى، والأهرام الرياضى.

محمود الهندى

أنـــا الشـــعب

محمد فريد أبو حديد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

أنـا الشعـب

محمد فريد أبو حديد

الغـلاف

والإشراف الفنى:

الفنـان : **محمود الهندى**

المشرف العام :

د . سـمير سرحــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

-١-

حيـاتنا سلسلة من حـوادث صغيرة ليس لواحـدة منها فى ذاتها ما يسترعى انتباهنا فى اللحظة التى تمر بها، ولكنا اذا بعدنا فى الطريق، وأصـبح من المحال أن نعود أدراجنـا تبين لنا أن بعضها هو الذى يقرر مصائرنا . ولو كنا نفطن الى هذه الحوادث الصغيرة الخطيرة فى اللحظة الحاسمة لحرصنا على توخى الحـكمة وتجنب الأخطاء ، ولكنـا بشر نكتب بأخطائنا سلسلة القصة البشرية . والحوادث التى تمر بنا تخلف فينا آثارا لا تمحى بعضها حائل يسنح لنا فى ذكريات عابرة ، وبعضها عميق يشبه ندوب الجراح بعد التئامها ، وهذه الخطوط العميقة هى التى توجه تفكيرنا وتقود مشاعرنا وتحرك ارادتنا . هذا هو ما بدا لى على الأقل وأنا فى غرفتى الصغيرة من سجن الاستئناف أجول بخيالى فى عالم الذكرى لأسجل ما أظنه جديرا بالذكر من حوادث حياتى .

لم تكن طفولتى متميزة بشىء يستحق أن أقف عنده طويلا حتى وقع الحادث الأول الذى زلزل وجودى وغير اتجاه حياتى وهو وفاة والدى .

كنت عند ذلك فى نحـو السـابعة عشرة من عمرى وكنت أستعد لامتحان شهادة الثقافة العامة ، ووقعت الصدمة على فجأة فشعرت كأنى أهوى فى فراغ لا قرار له . كان أبى والدا وصديقـا يملأ كل حيـاتى وما كان يخطر لى أنه انسان زائل قد ينتزع من الوجود فى لحظة . فلما عدت من المدرسة ذات يوم ووجدته مسجى فى سريره والجميع يبكون من حوله وقفت أنظر اليـه بغير أن أرى وجهه المغطى ، وأخذت أتـأمل الوجوه الحزينة التى حوله وأنا ذاهل ، فما راعنى الا أن الجميع ازدادوا صراخا وعويلا عندما رأونى فاندفعت نحوه لأرفـع عنه الغطـاء وأناديه لأوقظه ، فبادر من هناك الى ودفعونى وأخرجونى من الغرفة قسرا . لم تكن فى عينى دموع بل كان قلبى يفيض غيظا لأنهم حالوا بينى وبين أبى، ولم يحاول أحد منهم أن يتمسك به بل سلموا بأنه قد مات وانتهى بغير مجادلة . ثم رأيتـه بعـد حين يحمل فى نعشـه ويتجهون به الى المقبرة كالأموات جميعا ، وسرت مع السـائرين حتى وقفنـا الى جانب حفرة ، ورأيت جثمانه يدلى فيها وكل من هنـاك جامد فى مكانه يبـكى بغير أن

يحاول أن يتمسك به ، فاندفعت كالمجنون وأردت أن أتعلق به . ولكن الناس اجتمعوا حولى وأمسكوا بى قسرا وجعلوا يواسوننى بكلام لم أفهم معناه فانفجرت باكيا كما لم أبك يوما فى حياتى . ولما عدنا آخر الأمر الى البيت وحدنا شعرت بحزن لا يشبه الحزن ، وبلوعة لا تشبه لوعة الصبى فى فقد أبيه ، بل هى أقرب الى حسرة المقهور العاجز أمام قوة جبارة تتقاذف به فى قسوة . وكانت صورة أبى تتمثل لى لا تفارقنى فى ساعات اليقظة ولا فى مناظر الأحلام ، واعترانى شعور يشبه الحقد والعداوة لكل ما يذكرنى بفقده ، ولهذا لم أذهب مرة لزيارة قبره ، بل لقد كنت أتحاشى الاقتراب منه أو السير فى الطريق المؤدية اليه .

وامتلأ قلبى بوحشة شديدة فخيل الى أن الحياة خالية خاوية ليس فيها ظل من فوقى ولا قرار من تحتى ، وحببت الى العزلة ونفرت من كل مجلس حتى لقد لزمت غرفتى فى البيت كلما عدت من المدرسة ، وكانت أمى تأتى أحيانا لتؤنسنى فتجلس الى جنبى وترقبنى فى عطف حزين فلا يزيدنى ذلك الا وحشة وأحس أن الحياة رهيبة .

وشيئا بعد شىء بدأت أضيق بالجو الرهيب الذى خيم على فصرت أخرج وحدى الى الحقول القريبة من البيت أجول فيها بغير قصد سوى السير فى الهواء الطلق ، ويدور ذهنى حول نفسه فى أثناء سيرى فى أفكار غامضة يشوبها حزن غامض ، حتى ان الحقول نفسها كانت تبدو فى عينى فى اطار كئيب مع أنها كانت تتبرج فى حلة الربيع . وكنت أحيانا أجلس فى مكان منعزل فأكتب شيئا يشبه الشعر أنفس به عن أفكارى الحزينة الغامضة ، فاذا قرأت ما كتبت بادرت بتمزيقه اذ كان يزيدنى كآبة لأنه يدور حول معنى واحد ــ معنى زوال الحياة التى تحملنا برغمنا وتقذف بنا حيث تشاء . وكانت أسئلة واحدة تتخلل كل ما أكتب ــ لم جئت الى هذه الحياة ؟ ولم أبقى فيها ؟ وأين نذهب اذا خرجنا منها ؟ وما هو قصدها ؟ وماذا يستحق فيها أن أجعله غايتى ؟ ومما زادنى شعورا بالرهبة انى بدأت أرى أمى تعانى فى حياتنا ضيقا تحاول أن تخفيه ولكنه كان يظهر واضحا فى كل ما حولنا. صارت لا تعطينى النقود التى تعودت أن أنفقها فى (الشبرقة) مع رفاقى بالمدرسة حتى صرت لا أقدر على مجاراتهم ، ولاتشترى لى ولا لأختى الصغيرة ما تعودنا انتظاره من الهدايا الصغيرة ، ولما جاء العيد لم تشتر لنا الملابس الجديدة ، وشعرت بالذلة عندما رأيت كل زملائى ينظرون الى بدلتى التى يعرفونها . واذكر أنى ذهبت الى أمى يوما فسألتها :

ــ ماذا تقولين يا أمى فى أن أشتغل بعمل أتكسب منه ؟

فقالت فى دهشة : أى عمل يا سيد ؟

فقلت : أى عمل أقدر عليه ، كما يعمل أولاد حارتنا ·

فقالت : تحب أن تكون مثل حمادة الأصفر مثلا ؟

وكان حمادة الأصفر ولدا من صبيان الحارة يعمل مع أبيه البقال فى دكانه ·

فقلت : ولم لا ؟ أما يكسب حمادة شيئا ؟

ففزعت أمى لذلك السؤال ولامتنى لوما شـديدا فى سخرية مرة وقالت :

ـ أهذا هو أملى فيك ؟ لم لا تنظر الى أبناء أعمامك وأخوالك ؟ فهل فيهم من يشبه حمادة ؟

ولم أفهم قولها فقلت لها :

ـ وماذا أعمل اذن ؟

فقالت : تأخذ الشهادة العليا وتكون رجلا محترما ·

وكنت عند ذلك فى السنة الرابعة الثـانوية ففكرت فى نفسى كم سنة يجب على أن أبقى فى المدارس حتى آخذ تلك الشهادة العليا ، وبدت لى مرحلة طويلة شاقة لا طاقة لى بها · وانصرفت عنها ضائقا حائرا وبدأت تستولى على حالة من الفتور جعلتنى انصرف عن التفكير فى المستقبل وعن كل رغبـة فى الاتجـاه الى غاية · وزادنى ضيقا على ضيق أننى باعدت أصدقائى وبدأت أحس أنهم جميعا ينظرون الى من بعيد بنظرات فاحصة ويتهامسون على بهمسات خافيـة ، وصرت أرقبهم كذلك من بعيـد وأنا معتزل عنهم وأترجم أقوالهم وإشاراتهم على أنها سخرية وأننى أنا المقصود بها · وبدأت أتعمد مخالفة آرائهم اذا دارت مناقشة فى أثناء الدرس ، لا أقصد سوى أن أظهر مخالفتى لهم واسـتعلائى عليهم · وبعد بضـعة أشهر من هذه العزلة الصارمة لم أطق وحدتى فاتجهت الى خلق صداقات جديدة مع زملاء آخرين كنت من قبل لا أرضى أن أصاحبهم ، فكنت أتعمد اختيار من هم مثلى أو أقل منى فى مظهرهم ، وبدأت أتزعم حركة التمرد فى الفصل حتى أصبحت موضع الشكوى والعقوبة · وما زلت أتمادى فى اتجاهى حتى أصبحت قبل آخر العام زعيم حركات الاضطراب فى المدرسة وكان يلذ لى أن أتحين كل فرصة لأظهر مقدرتى على احداث الفوضى · ولست أدرى مع هذا كله كيف نجحت فى امتحان الثقافة العـامة آخر العام ، وزادت دهشتى عندما عرفت أنى لم أكن من المتخلفين فى النجاح بل كدت أكون بين السابقين فى المدرسة ·

ولكن ذلك النجاح لم يعد الى صـدرى الانشراح بل سألت نفسى وما فائدة هذا ؟ والى متى أستمر فى هذه الدراسة الطويلة ؟

وجاءت أيام العطلة فزادت حالى سوءا لأنى اتخذت بعض رفاق من أبناء الحارة وهم من صبيان العمال أو أبناء صغار التجار ، وكانوا خليطا عجيبا من طباع مختلفة لا يجمع بينهم شيء سوى اللعب والمزاح الخشن والمشاجرات العنيفة ٠

وقد وجدت فى صحبة هؤلاء الزملاء فرصا كثيرة للمصادمات كى أظهر امتيازى ، وكانت جولاتى معهم تنتهى فى كثير من الأحيان بمعركة أصيب فيها غيرى أحيانا بجراح أو كدمات ، كما كنت أعود منها الى منزلى أحيانا بثياب ممزقة ، وخدوش كثيرة ٠ وكنت فى أول الأمر أتسلل الى غرفتى عند عودتى الى البيت حتى لا أتعرض للوم أمى ، ولكنى بعد أن تعرضت للومها مرة بعد مرة صرت لا أرهب شيئا ولا أبالى لوما ٠ وما أزال الى الآن أشعر بالخجل كلما تذكرت كيف كنت أقف أمام أمى عند ذلك وأجادلها وأراجعها وأتحداها بغير تجمل ٠

وكان من بين صبيان الحارة اثنان استمرت صلتى بهما مدة طويلة فيما بعد ولهذا أرى أنهما جديران بأن أذكرهما ، وأولهما (حمادة الأصفر) الذى ذكرته لى أمى على سبيل اللوم عندما أفضيت اليها برغبتى فى العمل ٠

كان حمادة فتى ضئيل الجسم أصفر اللون يعرفه صبيان الحارة جميعا بالمكر والخبث ولكنهم مع هذا يعجبون بمهارته فى اختراع الألاعيب وتدبير المكائد ٠ وكان يمتاز بجرأة عظيمة فى الكلام ، وله أسلوب فكه ساخر لاذع ، ولكنه لضعف جسمه لا يحب المصادمة ٠ وكانت له مقدرة على التفنن فى الصفير العالى بأن يضع اصبعيه فى فمه وينفخ فيخرج أصواتا يتحكم فيها كما يشاء ، فيقلد صوت القاطرة البخارية أو العصافير، أو يقطع الصفير فى مقاطع تجعله يشبه النطق اذا أراد أن يدعونا من منازلنا بأسمائنا ٠ وكان هو زعيم الصبيان فى الحارة قبل أن أدخل فى زمرتهم فلما اتصلت بهم شعرت أنه غير مرتاح الى وجودى معهم منذ أول يوم لأنه وجدنى غير مستعد لقبول زعامته ٠

ولم تمض سوى بضعة أسابيع على وجودى مع الزمرة حتى وجدت الجميع يقاطعوننى ويباعدوننى ، فاعتزلتهم ولمت نفسى لوما شديدا على انحدارى الى مصاحبتهم ، اقتصرت على الخروج وحدى الى الحقول القريبة لأتنزه وأكتب بعض خواطرى ٠ ولكن الزمرة لم تدعنى وحدى فى سلام بل أخذ أفرادها يتعرضون لى فى ذهابى وايابى ويقذفون بعض ألفاظ التعريض نحوى من بعيد ، فكنت أتجاهل أمرهم لأظهر مقدار هوانهم عندى ٠

وكان من بينهم ولد من أبناء التجار اسمه (حمادة البارودى) وهو قزم قصير ذو رأسين ، ولكن لسانه كان طويلا فصيحا ، وله مقدرة كبيرة على السخرية اللاذعة · فكان كلما رآني قذفني بألفاظه الساخرة ، المضحكة وما يزال كذلك حتى أغيب عن بصره وأنا أسمع ضحكاته وضحكات أصحابه فأتقد غيظا · ولما رأت الزمرة أنى لا أعيرهم التفاتا زادوا جرأة على ، وأخذوا يسيرون ورائى ليطيلوا مدة اضطهادهم اياى وكانوا يرسلون أمامهم حمادة البارودى ليكون طليعة ، ويسيرون من خلفه صفا يصفقون ويضحكون ، وحمادة الأصفر يصفر لهم صفيرا مختلف النغمات والنبرات · ولما زاد غيظى من ذلك عزمت على أن أواجههم فى موقعة حاسمة · فما كادت الزمرة تسير من خلفى كعادتها ذات يوم وما كاد حمادة البارودى يسير فى طليعتها ويصيح بأول كلمة ساخرة ، حتى عدت أدراجى حانقا وخاطبت القزم قائلا :

ـ أتقصدنى بما تقول ؟

فأرتد حمادة البارودى الى الوراء صامتا ونظر الى ورائه ، ولكنى لم أدع له فرصة لكلمة أخرى وامسكت ذراعه فهززتها فى عنف قائلا :

ـ أتريد أن تكون عدوى ؟

فلما رأى أن أصحابه لا يسرعون لنجدته أجاب قائلا :

ـ أنا مصالحك !

ثم انحاز الى جنب ووقف ينظر ماذا أفعل · واندفعت مسرعا نحو الجماعة المنتظرة ·

وقصدت عامدا الى زعيمهم حمادة الأصفر فلم أخاطبه بكلمة ، بل لكمته فى صدغه لكمة شديدة جعلته يترنح ويضع يده على وجهه صارخا فعاجلته بلكمة أخرى سقط منها على الأرض يصرخ ويبكى ويشتمنى · فجذبته من يده حتى أوقفته أمامى كأنه طفل مذنب ، وأخذت أشتمه وأهدده · وفى لحظة قصيرة انقلب أفراد الزمرة من عداوة متحمسة الى صداقة متحمسة وأخذوا يصفقون لى ، وجاء حمادة البارودى يشارك فى الملهاة الجديدة ، فأخذ يصيح بطريقته الساخرة المضحكة :

ـ مالك يا حمادة يا أصفر! حرام عليك يا سيد · تاب والله العظيم ! جدع يا سيد · هيه يا حمادة !

وكان الجميع يضحكون ويصفقون ، وكان خذلان حمادة الأصفر حاسما ، فعزل نفسه عن زعامته من ذلك اليوم وتركنى زعيماً للزمرة وحدى ، ولم يظهر بعد ذلك بيننا عدة أسابيع ثم عاد الينا خاضعا مسالما ·

وأما الصبى الثانى فهو مصطفى عجوة ، وكان هو المهرج المضحك بعد اعتزال حمادة الأصفر · كان ولدا ضخم الجسم له وجه غليظ أحمر قاتم وفيه آثار من الجدرى تبدو من بعيد كأنها زرقاء ، وتعلو وجهه دائما لمعة كأنه مدهون بزيت · وكان له صوت مجوف غليظ وينطق بألفاظه فى بطء فيثير الضحكات عند كل كلمة · وكان يجمع بين السذاجة التى تقرب من البلاهة وبين الميل الى الدس والنميمة ، وله مقدرة عظيمة على اختراع الأكاذيب التى يسعى بها بين رفاقه · فاذا عرف زملاؤه حقيقة أكاذيبه لم يخجل ولم ينكر بل ينطق ببعض ألفاظه البلهاء ثم يضحك ضحكة طويلة ويتحمل ما يوجه اليه من الشتائم · وكان يغيظنى كثيرا ببلادته وخبثه ولكنى لم أجد عليه سبيلا لأنه لم يحاول مرة من المرات أن يتحدث أو يقاوم عندما كنت أقتص منه على أكاذيبه ·

وهو يتيم الأبوين ، يقيم مع جدته العجوز ويعولها بما يكتسب من عمله فى محلج السيد أحمد جلال تاجر الأقطان ، الذى كان من قبل من سكان الحارة ، وهو دائما يباهى بأن السيد أحمد يعرف جدته عندما كان يقيم فى حارتنا ، كما يباهى بأنه يأخذ ستة جنيهات مرتبا شهريا ·

وقد حدث فى يوم من الأيام أن ذهبنا الى مولد سيدى (عطية أبو الريش) وأخذنا نلعب الكرة فى ساحة قريبة من مكان المولد واجتمع من حولنا عدد كبير من النظارة · وقد أحسنت فى اللعب فى ذلك اليوم وكنت اللاعب الأوسط فى الهجوم ، فأخذ النظارة يهتفون باسمى حتى داخلنى زهو كبير · وجاءت فترة الراحة بين دورى اللعب فذهبت لأشرب كوبا من الخروب ، ومررت فى طريقى بحلقة كانت تحيط بمصطفى عجوة وتضحك منه · وسمعت صوته الأجوف ينطق باسمى فى عبارة تهكم انفجرت على أثرها ضحكة عالية ، فشعرت بخنق شديد عقب الزهو الذى امتلأت به فى أثناء اللعب،واندفعت نحو مصطفى عجوة بغير تفكير فأهويت على وجهه السمين بكل قوتى بصفعة رنت عاليا ثم أتبعت ذلك ببضع شتائم شديدة ·

ولم يحاول مصطفى أن يرد على الاعتداء بمثله ، مع أنه كان فى مثل طولى ، واضخم منى جسما ، بل رفع ذراعه الى رأسه ليحمى وجهه وأخذ يصيح قائلا « شاهدين يا جماعة ؟ » ·

وتعالت الأصوات مختلطة ، وتقدم أفراد كثيرون ليحجزونى عنه وشهدوا على بالاعتداء وألزمونى أن أسقيهم جميعا كؤوسا من شراب الخروب ففعلت ·

هكذا انحدرت مع هذه الزمرة الى حياة مضطربة مدة الصيف كله · ووعرفت نفسى عن مواصلة الدراسة عندما بدأ العام الدراسى الجديد

وعزمت على الانقطاع لأبحث عن عمل أتكسب منه · وأعلنت لأمى فى صراحة أننى لن أطيق الاستمرار فى الدراسة ، ولم أعبأ بالحزن الشديد الذى أصابها ·

ولما رأت أمى أننى ركبت رأسى صرفت وجهها عنى ولزمت الصمت حتى صارت لا تخاطبنى فى شىء ·

ولكن ذلك لم يزدنى الا عنادا · وعزمت فيما بينى وبين نفسى على أن أظهر لها أننى لست طفلا وأننى أستطيع أن أثبت وجودى واشق طريقى فى الحياة ، ولكننى عندما بدأت أفكر فى البحث عن عمل لم أجد أمامى بابا أستطيع أن أطرقه ، لأنى كنت قليل الخبرة لا أكاد أعرف من الوظائف شيئا · وكان أول ما خطر لى أن أشتغل بالتحرير فى الصحف وذلك لأنى كنت فى المدرسة عضوا فى لجنة المجلة ، وكان التلاميذ والمدرسون يسموننى « الكاتب الصغير » ويطلبون منى أن أقرأ عليهم القطع التى أكتبها ويظهرون الاعجاب بها · وخيل الى أننى اذا أرسلت مقالا من انشائى الى احدى الصحف لم ألبث أن أتلقى الرد محتويا على بضعة جنيهات أذهب بها الى أمى لأقول لها « انظرى كيف أكسب ! » وقضيت بضع ليال فى الكتابة حتى أتممت بضع مقالات وكتبتها بخط حسن فى ورق جيد وبعثت بها الى الصحف المعروفة ، ولم أنس أن أبعث باحداها الى جريدة « النبراس » فى دمنهور ·

ولا حاجة بى الى أن أقول ان انتظارى قد طال عبثا ولم أجن من وراء مقالاتى الا خسارة أثمان الصحف التى كنت أشتريها كل يوم أو كل أسبوع لأرى هل نشرت شيئا من كتابتى · هذا فوق ما خسرته فى ثمن الورق والظروف وأثمان طوابع البريد وزجاجة من الحبر الممتاز ·

وكدت يوما أطير فرحا عندما ما قرأت مقالة باسمى فى جريدة « النبراس » ولكننى لم أتلق الخطاب المنتظر الذى يحتوى على الجنيهات ·

ولما يئست من التكسب بالتحرير فى الصحف فكرت فى الاشتغال بالأعمال الكتابية فى الوظائف الحكومية ، فبعثت الى مصالح كثيرة أعرض عليها استعدادى للعمل ، وكلفنى هذا أيضا ما يزيد على خمسين قرشا فى أثمان الورق وطوابع التمغة وطوابع البريد ، وانتظرت أسبوعا بعد أسبوع متلهفا على الردود ولكن لم يصل الى رد منها ·

وبدأت أحس بالضيق من البطالة فوق احساسى بالخجل والخيبة لأنى لم أثبت وجودى · ومر الخريف والشتاء وبدأ الهم يثقل على صدرى، فكنت أخرج الى الريف المجاور للمدينة لأفرج عن نفسى بالنزهة بين الحقول فى مطالع الربيع · وكان جمال منظر حقول القمح وهى تختلف

من الخضرة الى الصفرة يأخذ بمجامع قلبى، فأجلس بينها وأكتب ما يخطر لى من الأفكار ، أو أؤلف ما يجيش فى صدرى من الأشعار ، وكان أكثر ذلك تعبيرا عما كان يجثم على قلبى من الضيق والحيرة ·

ورأيت فى يوم من الأيام اعلانا عن وظيفة بمجلس المديرية فكدت أطير فرحا وخيل الى أن الأقدار قد ساقت الى تلك الوظيفة عمدا واختارتها فى دمنهور من أجلى · وكتبت طلبا تأنقت فى انشائه وجودت خطه ، وذهبت لاقدمه الى رئيس المكتب بنفسى حتى لا أضيع يوما فى ارساله بالبريد · ولما ذهبت الى ديوان المجلس أخذت أسأل عن رئيس المكتب ، فدلنى أحد الحجاب على حجرته وهو يبتسم ، فاستبشرت بالخير ودخلت الى الغرفة وكان فيها ثلاثة يجلس أحدهم فى الصدر خالعا طربوشه ويأكل من طبق أمامه فيه بقية من الفول المدمس · فعرفت أنه الرئيس وتقدمت نحوه مترفقا وقلت :

ـ حضرتكم الرئيس ؟

فنظر الى نظرة فاترة وهو يمضغ ثم قال :

ـ ماذا تريد ؟

فمددت يدى اليه بالورقة ولكن يده كانت ملوثة بالزيت فتردد لحظة ثم مد اصبعى يده اليسرى وأخذها منى فنظر فيها لحظة ثم قال :

هذا خطك ؟

فقلت مسرورا : نعم ·

فوضع الورقة الى جانب وأخذ لقمة كبيرة اشتملت على بقية ما فى الطبق ثم فرك يديه وسألنى من بين أضراسه :

ـ شهادة الثقافة ؟

فأجبت فى شىء من الزهو : نعم ·

فقال : وأين هى ؟ وما أدرانى أن هذا صحيح ؟

فقلت : أحضر لك اقرارا من المدرسة بأنى ناجح فى الثقافة وأتعهد بأحضار الشهادة عند استلامها ·

فتبسم قائلا : حسن جدا ، أين القهوة يا قرنى ؟

ووجه الكلمة الأخيرة الى الحاجب الذى كان واقفا ورائى وهو الذى دلنى على الغرفة · ثم اتجه الى قائلا :

ـ طيب ! تفضل الآن .

وكنت أود أن أساله عن رأيه ، وهل هناك أمل فى قبول طلبى ، ومتى أعود اليه مرة أخرى ، وما هى الوظيفة ، وما أجرها ، ولكنه نظر الى نظرة فاحصة كأنه يقول لى « انصرف من هنا » .

فانصرفت صامتا حتى لا أغضبه وخرجت من الباب فوقفت لحظة مترددا . وجاء الحاجب قرنى فوضع يده على ذراعى قائلا فى همسة :

ـ اسمع يا أفندى !

واستمر بعد أن نظرت اليه :

ـ تعال هنا غدا وأنا أساعدك . أنا ضامن لك الوظيفة اذا سمعت نصيحتى .

وكان رجلا سمينا تلوح عليه الطيبة فقلت له :

ـ أشـــكرك جدا .

فقال : لا شكر على واجب . أنت شاب طيب ويظهر أنك نبيه . المنافع متبادلة يا ابنى أنفعك وتنفعنى . أأنت من دمنهور ؟

فقلت : نعـــم .

فقال : وأنا مســـتعد لأى خدمة . فى الحقيقة لا أريـــد أن أطلب شيئا لنفسى ، ولا غرض لى الا تمهيد السبيل لك .. أتفهمنى ؟ أنا أقدر أن أجعله يقبل . أنا وحـــدى .

ورفع يده ففرق أصابعه الخمسة تحت عينى فى السر وهمس قائلا :

ـ خمسة فقط . والباقى بعد القبض .

فهززت رأسى مستفهما .

فقال : خمسة جنيهات !

فسقط قلبى فى صدرى . خمسة جنيهات والباقى بعد القبض ؟ وأين لى خمسة جنيهات ؟ أأذهب الى أمى لأطلب اليها ذلك المبلغ ؟

فقلت له : ماذا تقصد ؟

فنظر الى كأنه يشتمنى وارتسمت على وجهه ابتسامة خاوية ، ثم رفع رأسه فجاة متطلعا الى أقصى الممر المجاور للغرفة وصاح ينادى عامل القهوة !

ـ أين فنجان القهوة المضبوطة يا زفت !

وصاح العامل : حالا يا عم قرنى !

ووقفت ثابتا كالأبله لا أدرى ماذا أصنع ٠

فالتفت الحاجب نحوى قائلا : أنت حر !

وتركنى ليأخذ القهوة من الصبى الذى جاء مسرعا بها ٠ فسرت أجر قدمى فى الطريق كالمذهول ، حتى وصلت الى جانب الترعة وكان مس الهواء يلطف حرارة وجهى المتقد ، وما زلت أسير حتى عدت الى بيتى متعبا بعد دورة طويلة حول المدينة ٠

وبعد نهار قلق وليلة مضطربة قمت فى الصباح الباكر ذاهبا الى ديوان مجلس المديرية عازما على مقابلة السيد رئيس الكتبة لعله يكون أرفق من الأمس ، ولكنى ما كدت أقترب من الباب حتى استوقفنى عم قرنى قائلا :

ـ ممنوع يا أفنـــدى !

ونظر الى نظرة جامدة كأنه لم يرنى من قبل ٠

فوقفت لحظـة أنظر اليه وكدت أقول له كلمة أسترضـــيه بها ، وحدثت نفسى أن أعده بما يرضيه اذا قبضت المرتب ، ولكنه لم يعطنى فرصة للكلام بل أعاد كلمته قائلا :

ـ قلت لك ممنوع يا أفندى !

واقترب منى كأنه يريد أن يدفعنى عن الباب ٠

فشعرت بصدرى يزدحم بالغيظ ، وتمنيت لو دفعنى لاجد سببا يجعلنى أفرغ فيه حنقى بلكمة فى صـــدغه ولكنه أدار لى ظهره وأمسك بأكرة البـــاب ٠

فلم أجد لى ســبيلا الا أن أبلــع غيظى وأنصرف وفى قلبى بركان يفور ٠

وزاد ضـــيقى بالحياة وبدأت أســأل نفسى عن قيمتها وتفاهتها ، وزادنى ضيقا أننى بدأت أندم على انقطاعى عن الدراسة واغضاب أمى ، وبلغ بى الحنق على نفسى وغيرى أن انقطعت عن الناس كافة وصرت أقضى أكثر أوقاتى هائما فى الحقول مثل طفل ضال ، لا أجد شيئا أفرج به عن نفسى الا أن أكتب قطعا حانقة باكية من النثر أو الشعر ثم أمزقها بعد أن أقرأها ٠

وكنت أحيانا أرى فى الطريق بعض زملائى القدامى فى المدرسة فتصيبنى غصة ، وألفت بصرى عنهم حتى لا أحييهم أو أكلمهم ، شاعرا نحوهم بشيء يشبه البغض أو الحقد ، فاذا عـــدت الى بيتى تسللت الى غرفتى لأقضى أكثر الليل ساهدا مع خواطرى السوداء •

هكذا مرت بى الأيام بطيئة كئيبة حتى جاء الصيف وامتحن رفاقى فى البكالوريا ، فانهارت مكابرتى وصرت أبكى فى غرفتى كلما خلوت فيها •

وجاءنى حمادة الأصفر ذات ليلة من الليالى الحارة ، وكنت لم أره منذ أشهر طويلة• فتعجبت من زيارته ولكنى شعرت بشيء يشبه الابتهاج بها لأنها أدخلت على شيئا من التغيير • وكان وجهه أصفر كعادته وظهرت النقط السود التى فوقه كأنها نمل صغير يتحرك • وابتسم لى عن أسنانه الصفر (المشرشرة) كأنه لم يكن بيننا ما يعكر الصفاء من قبل •

وقال لى مبادرا : ما رأيك يا سى سيد ؟

وكان واقفا على أرض الحارة وكنت فوق عتبة البـــاب ، فظهر لى كأنه طفل ضـــئيل الجســـم وأحسست نحوه لونـــا من العطف ممزوجا بالاحتقار وقلت له :

ــ ماذا تريد يا حمادة ؟

فقال : ما رأيك فى فرقة تمثيل ؟

فصحت : ماذا ؟

فقال مبتسما : فرقة تمثيل • فرقة أصدقاء الفن • ألا تذكر ؟

وكانت فرقة من الممثلين قد زارت دمنهور فى مولد (أبو الريش) وذهبت اليها مع زمرة أصحابى ، ولا أنسى تلك الليلة التى بكيت فيها بكاء مرا عندما شاهدت رواية « عواطف البنين » ، وكان مصطفى عجوة جالســـا بجانبى ، فأخذ يضحك منى ويدفعنى بيده قـــائلا « انه تمثيل يا عبيط ! » ووقف حمادة ينتظر جوابى وأنا أنظر اليه فى عجب ولا أدرى ماذا يقصد •

فعـــاد قائلا :

ــ أنت تعـــرف أنى اشتركت مع هذه الفرقـــة ، وكان الجمهور يصفق لى كلما ظهرت • لماذا لا نكسب كما كانت تلك الفرقة تكسب ؟ ولماذا لا نكون نحن « أصـــدقاء الفن » ؟ ثلاثين جنيها نربحها فى الليـــلة الواحدة • لا تفكر فى شيء لأنى ضامن لك أنت عشرين جنيها • ستكون

أنت رئيس الفرقة يا سيد أفندى وسأكون أنا أمين الصندوق فقط . سأذهب الى هؤلاء الأغنياء لأبيع لهم التذاكر بنفسى ، واذا رفض أحدهم أن يشترى عرفت كيف أخلص منه ، لا تفكر أنت فى شىء . الفرقة كاملة . لا تنتظر الا أن تقبل أنت الرياسة . فما رأيك ؟

وكدت أضحك من الفكرة ولكنى قلت له :

ـ يعنى أنك تريد أن أمثل معكم ؟

فأجاب فى جد : أنت رجل أديب يا سيد أفندى ، كل الناس يقولون هذا . رأيت اسمك بعينى فى النبراس والأعيان كلهم يحسبون حسابك اذا عرفوا أنك معنا . كلمة واحدة فى جريدة النبراس تقلب البلد على رأس أكبر عظيم هنا . عشرين جنيها يا سيد أفندى تقبضها مقدما . ما رأيك ؟

ومع كل ما كان فى نفسى من السخرية ومن سوء الظن بهذا الصاحب القديم ، وجدت نفسى أفكر فى الجنيهات العشرين ، وتصورت نفسى وأنا أحمل هذا المبلغ الضخم الى أمى قائلا لها « انظرى كيف أستطيع أن أكتسب بعملى ! » .

وسألته : أأنت جاد فيما تقول ؟

فقال مؤكدا : جاد ؟ وهل جئت لأمزح ؟ لا تفكر فى شىء واترك لى تدبير الأمر كله . الرواية حاضرة والملابس كاملة والمناظر مجهزة . رواية عظيمة . وملابس بالقصب ، والضحك لا ينقطع .

وشادر البطيخ يتسع لألف شخص . ألف فى عشرين قرشا على الأقل ، كم يا سيد أفندى ؟

فقلت ساخرا : مائتان .

فقال جادا : بالضبط . والمقاعد الأمامية بثلاثين قرشا . وكل المقاعد بالثمن . لا هدايا ولا مجانا ولا مجاملة . الجد جد . الاجتماع غدا فى الساعة العاشرة صباحا فى وابور الطحين بجوار ضريح سيدى (أبو طاقية) ما رأيك ؟ ـ أنصار الفن أو المسرح الوطنى ؟

ففكرت قليلا ثم قلت : المسرح الوطنى .

فصفق قائلا : أديب عظيم والله ! المسرح الوطنى يا أستاذ سيد . انتهينا !

ولم أجبه بكلمة لأن ذهنى كان مشغولا بأسئلة كثيرة عن حقيقة الجنيهات العشرين فهل يدفعها لى مقدما كما يقول ؟ ولكننى خجلت من سؤاله حتى لا أظهر لهفتى ، وجعلت أفكر فى امكان بيع التذاكر كلها ٠

ولما رأى حمادة أنى صامت قال لى :

ـ قلت لك لا تفكر ٠ رواية مدهشة ٠ كلام نهائى ؟ فى الساعة العاشرة صباحا ؟

وتركنى بعد أن هز يدى فى صفاء ومودة ، وعدت الى غرفتى مستبشرا أعيد ما سمعت من حمادة حتى غلبنى النوم وأنا أناجى أملى ٠

واجتمعنا فى اليوم التالى فى (وابور الطحين) ، وكانت الفرقة هى الزمرة القديمة مع زيادة بعض أشخاص آخرين للقيام بالأدوار الثانوية ٠ وقرأنا القصة فوجدناها مدهشة حقا ٠ رجل من كبار الأغنياء يتزاحم الشبان على خطبة ابنته ويرفض أن يزوجها لأحد منهم ، ثم يأتى اليه سمسار يوهمه بأنه رسول من قبل أحد الأعيان فى مدينة مجاورة لخطبة ابنته ، وكان متآمرا مع وكيل الدائرة على تزويج الفتاة من رجل مفلس من أسرة معروفة طمعا فى الحصول على ثروة والدها ٠

ثم تنكشف المؤامرة بعد كتابة العقد ، فيغضب والد الفتاة ويريد التخلص من العقد ، وبعد مراجعات كثيرة ومصادمات ومضاربات مضحكة يرضى الزوج المفلس بأن يفسخ العقد بعد أن يأخذ تعويضا ماليا كبيرا ٠

وتم الاتفاق بيننا على توزيع الأدوار فكنت أنا سعادة البك وحمادة الأصفر الشيخ منصور السمسار ، ومصطفى عجوة وكيل الدائرة ، وحمادة البارودى ابنة البك وهكذا ٠ ولم نختلف الا على شىء واحد وهو الطريقة التى يضرب بها وكيل الدائرة وجه سعادة البك ردا على الصفعة التى يوجهها اليه البك فى أثناء المشادة التى تحتدم بينهما ٠ ولما لم أرض أن يضربنى مصطفى عجوة بحال من الأحوال ، تم الاتفاق بيننا بعد أخذ ورد طويلين على أن يقنع مصطفى وكيل الدائرة بالتهجم على البك من بعيد ٠

وبعد بضعة أيام جاء حمادة الأصفر ليسألنى هل حفظت دورى ، وكنت أتقنت حفظه ، وتمرنت عليه حتى رضيت عن نفسى ، ودفع لى حمادة جنيهين مقدما عندما رفضت أن أشتغل الا اذا نفذ الشرط المتفق عليه ٠ ووعدنى بأن يدفع الباقى فى ليلة الحفلة ٠

وجاءت الساعة الموعودة وبدأ الاحتفال فى شادر البطيخ ، ورأيت النظارة يملؤون المقاعد عندما نظرت اليهم من ثقب الستارة ٠ ولم أرد أن

أعكر صفاء الحفلة بالاصرار على أخذ باقى العشرين جنيها لأنى شعرت بالاطمئنان الى أن الربح سيكون كافيا الجميع ·

وسـارت الرواية سـيرا حسنا وكان اعجاب النظارة ظاهرا من تصفيقهم وصفيرهم وخبطهم بالأرجل على الأرض ، وكان حمادة يذهب ويجىء من وراء المسرح وهو بادى السرور ، وكلما جاء دوره ذهب ليؤديه أداء طبيعيا كسمسار خبيث حقا ·

ثم جاء منظر مصطفى عجوة وكيل الدائرة بعد أن كشفت خيانته فجعلت أشتمه وأهدده وصفعته على وجهـه صفعة شديدة كما يحتمه الموقف فى الرواية بحسب الاتفاق ، فما كان منه الا أن أدى دوره الأصلى كما هو مكتوب فى الرواية ورفع يده الضخمة على غير انتظار منى وضربنى على وجهى ضربة شديدة ترنحت من ثقلها · فما كان منى الا أن هجمت عليه ولكمته على وجهه لكمات متعاقبة وأنا أشتمه وألعنه حتى وقع على الأرض وبركت فوقه أكيل له اللكمات فى غيظ والناس يضجون بالضحك والتصفيق والصفير· وأرخى الستار واضطرب الشادر وجاء حمادة يجرى نحوى ويلطم وجهه قائلا « ضعنا ! » ·

ولم أهتم بقوله ولا بأقوال الزملاء الآخرين وانصرفت ذاهبا الى بيتى فأغلقت على بابى وأخذت أبكى بكاء مرا · وكان شعورى بالخزى يخيل الى أن أذهب الى أمى لأوقظها من النوم وأقبل رأسها وأعتذر اليها وأسألها الصفح عنى · ألم يكن كل ما أصابنى نتيجة لغضبها ؟

ولما طلع على الصباح سارعت اليها وقبلت رأسها وأخذت أعترف لها بسوء مسلكى وبكل ما حدث لى وسألتها مخلصا أن تصفح عنى وتدعو لى بالهداية · وشعرت عندما مسحت على رأسى بيدها وأخذت ترقينى أنى ألوذ بالملجأ الوحيد الذى أسـتطيع أن ألجـأ اليه دائما وأجد الأمن فى ظلاله ·

- ٢ -

كانت أمي تحاول أن تخفى تأثرها وأنا أحدثها عن محاولاتي فى البحث عن العمل وما لقيته فيها من الخيبة ، ولكن عينيها الرطبتين كانتا تدلان على مقدار رثائها ٠

وقلت لها فى تردد :

ـ ولا بد لى من أن أعيد الكرة مرة أخرى ، فالمدرسة أصبحت مستحيلة ٠

فقالت : لا أحب أن أعارضك يا سيد ففكر فى مستقبلك كما تحب ٠

فقلت : يمكننى أن أتقدم للامتحان من منزلى ، المهم أن الوظائف تحتاج الى الواسطة ٠ كل شىء فى هذه الأيام يحتاج الى الواسطة ٠

فقالت : أتذهب لعمك ؟

ولم أكن أنتظر منها ان تفكر فى هذا لأنى أعرف أن عمى كان على خلاف شديد مع أبى قبل وفاته حتى أنه لم يحضر الينا عند موته ٠

وقلت لأمى : لا أذهب اليه أبدا ، وماذا لو تخلى عنى ؟ أظنك تعرفين السيد أحمد جلال ٠

قلت ذلك لأنى تذكرت أن السيد أحمد جلال جارنا القديم كان كلما رآنى يبدأنى بالسلام وكان من أول من زارنا للتعزية وكرر على أن أزوره اذا احتجت الى مساعدة ٠

فقالت أمى مرتاحة : جارنا القديم والله يا سيد ، لا مانع أبدا ٠ هو صاحب كلمة مسموعة والست نور ـ الله يحميها ـ والله كان من الواجب أن أزورها من زمن ٠

واتفقنا على أن نقوم من ساعتنا الى بيت السيد أحمد جلال وكان قد انتقل من حارتنا منذ عشر سنوات الى بيته الجديد فى حى (أبو الريش) ٠

وكان السيد أحمد جلال فى مبدأ أمره تاجرا صغيرا ، ثم اتسعت تجارته وأنشأ محلجا عظيما ، وأصبح فى مدة الحرب الأخيرة اكبر تاجر قطن فى المدينة ٠ وكان صديقا لأبى ، وكثيرا ما كان أبى يبعثنى اليه بخطاب لآخذ منه سلفة على القطن فى مدة الصيف كما هى عادة الزراع ٠

وعندما كان يقيم فى حارتنا كانت أمى تزاور امرأته السيدة نور وكنت كثيرا ما أذهب معها ٠ وكانت ابنته منى طفلة صغيرة ظريفة تشبه الدمية ذات الشعر الأصفر . فاذا ذهبت الى هناك أسرعت تجرى نحوى وطلبت منى أن أركبها فوق كتفى كأنى حصان ، ثم تدلى رجليها من أمام صدرى وتهزها فأجرى بها مقلدا وثبات الخيل وأصهل كما يصهل الحصان فتضحك مكركرة وتطلب أن أعيد الجرى والصهيل مرة أخرى ٠ وأذكر أنى ذهبت مع أمى للزيارة مرة يوم من أيام الشتاء وكانت أختى منيرة معنا وكانت طفلة فى مثل سن منى فى حوالى الثالثة أو الرابعة ، وركبت منى فوق كتفى كعادتها وطلبت منى أن أجرى ، وكانت الحارة زلقة على أثر مطرة ثقيلة فانزلقت بها ووقعنا معا فى بركة من الطين ، فبكت منى وأخذت منيرة تبكى هى الأخرى وهى واقفة على الرصيف ، وتحملت وحدى فى ذلك اليوم لوما شديدا من أمى لأنى تسببت فى وقوع منى ٠

ومع أنى أنا الذى اقترحت على أمى أن تذهب الى السيد أحمد جلال فأنى شعرت بضيق شديد عندما نزلنا متجهين الى منزله ؛ لأنى استصعبت أن أطلع ذلك الجار القديم على أنى تلميذ خائب قطعت دراستى ، ولم أجد عملا حتى لجأت الى مساعدته ليجد لى وظيفة أتكسب منها ٠

ولكنى تغلبت على نفسى وجاهدت شعور المرارة الذى غمرنى ، ولم أنطق بكلمة حتى وصلنا الى البيت ، وكان بناء فخما تحيط به حديقة يانعة واسعة ٠ ودخلت أمى الى الدار وذهبت أنا الى جناح الضيوف ٠ وكان من حسن حظى أن السيد كان هناك ، فاستقبلنى مرحبا ، وأذهبت سماحته ما كان فى نفسى من الانكسار ، وطلب لى شرابا من المنجة ، وأخذ يحدثنى حديث جار قديم لا تكلف فيه ٠ ولأول مرة بدأت أعرف الرجل لأنى كنت لا أراه قبل ذلك الا من بعيد كما يرى الطفل رجلا ، وشعرت بشىء كثير من الرضى عندما بدأ يحدثنى كرجل ٠

وكان حديثه سهلا شائقا يجرى هنا وهناك فى مواضيع شتى ، فحدثنى عن أبى وعن عمى الذى كان من قبل حكمدارا فى دمنهور ، كما حدثنى عن نفسه عندما كان صغيرا فقيرا ٠ وتعجبت من أنه لم يشعر بشىء من الأنفة عندما قال انه بدأ حياته عاملا عند الحاج على مطاوع تاجر الغلال ، وانه اقتصد من أجره بضعة جنيهات بدأ بها تجارة صغيرة ،

فاشترى بعض قناطير من القطن كان يجمعها من الفلاحين رطلين أو بضعة أرطال فى كل صفقة . ثم حمل ما اشتراه على عربة نقل فكان يسير الى جانبها حينا ويركب عليها حينا آخر حتى وصل الى الاسكندرية وباع ما اشتراه بربح كبير شجعه على الاستمرار فى التجارة . ونظر الى بعد ذلك قائلا :

ـ اذا شئت يا سيد أفندى أن تنجح فى الحياة فلا تتعلق بالمظاهر .

وارتحت عندما سمعته ينادينى ؟ يا سيد أفندى » .

وشجعنى ذلك على أن أفاتحه بأنى أريد أن أجد وظيفة فى الحكومة فأجابنى قائلا :

ـ لمـــاذا تريد أن تتوظف فى الحكومة ؟ انها لا تعلم الا الكسل والغرور .

فقلت له : أريد عملا أتكسب منه ، لأنى فقير ..

ولم أشعر بالخجل أن أقول له انى فقير بعد أن سمعته يقول انه كان فى صغره فقيرا هو الآخر .

فتبسم قائلا : هذا حسن ، وأنا فى حاجة الى شاب مثلك للعمل هنا . ولكن على شرط ، ليس هنا مكاتب ولا سعاة ولا أجراس ولا أوامر . هنا عمل اذا كنت حقا تريد العمل . العمل من الصباح الى المساء ، والأعمـــال كلها ســـواء . ليس هنا عمل مهم وآخر تافه . كل شىء مهم كالآخر ، كتابة النيشان على البالات مثل أمانة الخزانة ، كلها تحتاج الى الأمانة والدقة والجد .

وكانت طريقته فى الكلام بسيطة ولكنها حاسمة فقلت له : يسرنى أن أعمل معك .

فتبسم ابتسامة لم أفهم معناها ولكنها تشبه قوله : سنرى .

وقال : سأنتظرك اذا شئت فى الصباح . الساعة الثامنة تماما يبدأ العمل . وأنا هنا منذ الساعة السابعة والنصف .

فشكرته مخلصا وكان قلبى يخفق سرورا . هكذا وجدت العمل فى لحظة ولم تعد بى حاجة الى الوساطة للبحث عن وظيفة فى الحكومة .

ولما استأذنت لأدعو أمى لننصرف دعانى السيد أحمد لأجول معه جولة فى أنحاء الحديقة وكانت منى تلعب هناك ، فلما رأتنى عرفتنى من أول نظرة ولكنها لم تجر نحوى ولم تطلب أن تركب فوق كتفى . كانت عند ذلك فتاة فى نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة . واتجهت

نحوى فسرت اليها لأحييها وكان وجهها ما يزال وجه الطفلة التى تشبه الدمية ـ شعرها الأصفر وعيناها الزرقاوان وابتساماتها الوديعة والغمازتان اللتان فى وجنتيها · وأخذها والدها تحت ابطه وجعل يداعبها ويسألها هل تعرفنى · فهزت رأسها باسمة ولم تنطق بكلمة ·

فطلب منها أن تصعد الى الدار لتدعو والدتى فأسرعت تجرى وشعرها الذهبى يهتز على كتفيها ·

وجاءت بعد قليل تسير هادئة الى جنب أمى ممسكة بيدها فقبلتها أمى من جبينها وسلمت على السيد ·

فقلت لها :

ـ سأحضر الى هنا فى الصباح يا أمى ، تفضل السيد فوجد لى عملا ·

فقال السيد أحمد : لم أتفضل بشىء لأنى محتاج الى عملك ·

فشكرته أمى وأكثرت له الدعاء وهى خارجة ، وكان قلبى ما يزال يخفق عندما سرنا فى الطريق وأخذت أحدث أمى عما قاله السيد لى · وكان ذلك أول يوم سعيد مر بنا منذ وفاة أبى ·

وفى اليوم التالى بكرت الى المحلج فى الساعة السابعة والنصف فوجدت السيد أحمد قائما فى فناء المحلج كأنه ينتظرنى ، فلما سلمت عليه أخذنى من يدى حتى دخلنا الى المكتب ولم يضع وقتا فى تحية أو مجاملة بل أشار الى علبة صغيرة فيها لون أحمر ومعها (فرشة) صغيرة لأكتب بها الأرقام على بالات القطن ·

ونحن اذا تأملنا الأمور بعقولنا وقبلناها لا نعرف دائما حقيقة مشاعرنا : فمنذ أخذت العلبة وسرت الى مخزن القطن لأبدأ عملى بدأت أسأل نفسى أسئلة حانقة · ولا أظن أحدا يستطيع أن يعرف ما يبعثه مثل هذا العمل من الشعور بالصغر الا اذا جربه بنفسه · أخذت أكتب الأرقام وأتحرك بين البالات الضخمة شاعرا بأنى شخص تافه · ومضى اليوم الأول طويلا وعدت الى بيتى حانقا على نفسى ساخطا على قضائى · وأخذت ألوم نفسى أشد اللوم على أنى قطعت دراستى وأضعت مستقبلى ، ولكنى عدت بعد حين أراجع حنقى وسخطى عندما تذكرت ما حدث لى فى مدة السنة الماضية التى قضيتها عاطلا عن العمل · وبعد أن أمضيت بضعة أيام فى المحلج بدأت أستقر أو بقول آخر بدأت أرضى عن عملى · وعندما جاء أول الشهر أعطانى السيد مرتبى عن الأيام العشرة التى عملت فيها عنده فى الشهر الماضى وكانت أربعة جنيهات ، فعرفت أن المرتب الشهرى الذى قدره لى يصل الى أثني عشر جنيها ، وهو مبلغ لم أكن أحلم به ،

وكان أول ما فعلت أن اقتطعت من الجنيهات الأربعة جنيها لأشترى به كتبا أقرؤها لأنى شعرت بحنين شديد الى القراءة ٠

وكان لقراءتى أثر عظيم فى تخفيف شدة الشعور بالتفاهة وهو الشعور الذى كان ما يزال يعاودنى ، وذلك لأنى كنت عندما أقرأ أحس كأنى انتقلت الى عالم آخر غير البالات والأرقام ٠ ولهذا كنت أضع الكتاب الذى أقرؤه قريبا منى لاعود اليه كلما وجدت فراغا من العمل حتى أخرج به حينا عن عالم البالات٠ وقد استمر دأبى على هذه العادة الجديدة فصرت أقتطع فى كل شهر جنيها أو جنيهين لأشترى كتبا جديدة كأنها جزء من عدة عملى ٠

وبدأت أتعرف على من هناك من العمال والموظفين وأنست الى أكثرهم ما عدا مصطفى عجوة فقد كنت أحس فى قرارة نفسى شعورا عميقا بالكراهة له وسوء الظن به ، مع أنه كان يقذف نفسه على ويتودد الى بطريقته السمجة التى تدعو الى زيادة النفور ٠

وكان السيد أحمد يتلطف بى ويترفق فى معاملتى ولا يخاطبنى الا باسم سيد أفندى ، وكثيرا ما دعانى الى الجلوس معه فى مكتبه ، وهذا شرف لا يناله فى المحلج أحد غيرى ٠ كان مصطفى عجوة يدخل اليه فى المكتب فيقف الى جانب حتى يتلقى أمره ثم يخرج . وأما الموظفون الآخرون فكانوا لا يجرؤون على الدخول الى مكتبه ٠

ولكنه كان أيضا يكلفنى فى بعض الأحيان اعمالا تشبه الخدمة الخاصة فيبعثنى الى البيت لأحمل اليه فاكهة أو لأوصل اليه رسالة أو نقودا ، فكانت نفسى فى أول الأمر تثور على ذلك وكدت مرة أرفض طلبه لولا أن ملكت شعورى حتى لا أغضبه ٠ ولكنى كنت أجد ترضية كافية تنسينى غضبى اذا صادفت منى فى الحديقة ، حتى صرت فيما بعد أشعر بالارتياح كلما كلفنى القيام بخدمة أذهب فيها الى البيت ٠ وكنت أجدها فى كثير من الأحيان تلعب مع بعض صاحباتها اذ يقفزن فوق الحبل أو يلعبن (الأولى) أو لعبة الانتباه ، فاذا رأتنى أسرعت الى وأصرت على أن ألعب معها دورا ٠ وكان هذا يؤخرنى احيانا ويعرضنى للوم السيد احمد فلا أجرؤ على أن أقول له السبب فى تأخرى ٠ وقد تعرضت مرة لموقف محرج من جراء اصرار (منى) على مشاركتها اللعب ، اذ ذهبت يوما كالعادة الى البيت أحمل فاكهة وتمسكت بى (منى) لألعب معها لعبة (الانتباه) وذلك بأن أحجل على رجل واحدة وهى تجرى أمامى فى حدود مربع مرسوم على الأرض ٠ وأخذت أحجل بحماسة وهى تجرى وتزوغ منى حتى أكاد أقع واستمر الدور أكثر من عشر دقائق حتى استطعت أن ألمس كتفها ٠ ولما التفت الى ورائى وأنا الهث من التعب وجدت

السيد أحمد جلال واقفا من بعيد ينظر الينا ، فارتبكت ارتباكا شديدا وشعرت بأن وجهي يتقد وذهبت نحوه أجرر قدمي ولا ادرى ماذا أقول له . ولكن منى صاحت بى غاضبة تدعونى الى اتمام الدور الثانى لتنتقم منى . فلما رأت والدها أسرعت اليه تطلب منه فى حماسة أن يتركنى حتى ألعب الدور الثانى فتبسم السيد وأخذها من يدها متجها نحو ميدان اللعب وقال لى « آكمل دورك يا سيد أفندى . وهذا جنيه يا منى للفائز منكما » . فصفقت منى مسرورة وبدأنا اللعب ولكنى لم أتحمس . فصاحت منى غاضبة وساعدها أبوها قائلا « يجب أن تبذل جهدك حتى يكون الانتصار حقيقيا » . فاندفعت فى اللعب بكل قوتى حتى تعبت منى ووضعت قدمها الثانية على الأرض بغير أن تمسنى . وسلمنى السيد الرهان وكان سرور منى بفوزى أضعاف سرورها بانتصارها على فى المرات السابقة . وقد عرفت فيما بعد أن مصطفى عجوة هو الذى سعى عند السيد أحمد جلال وجعله يتبعنى الى المنزل ليرى أن سبب غيابى هو انشغالى باللعب مع منى ، فانى عندما عدت مع السيد الى المحلج سمعته يستدعى مصطفى عجوة ويشتمه بصوت مرتفع ويلعنه ويأمره بألا يرى وجهه مرة أخرى .

وجاء مصطفى عجوة بعد تلك المقابلة العاصفة وجعل يتودد الى ويحلف لى أنه يحمل لى اخلاصا لا حد له .

على هذا استقر عملى بالمحلج ، وزال عنى كثير من الشعور بنفسى وبضآلة وظيفتى ، وكان العمال والموظفون الآخرون يأنسون الى كما صرت آنس اليهم ، لا يشذ منهم سوى مصطفى عجوة ، اذ كان يذكرنى دائما بأنه ما زال الصبى الخبيث الذى كان يملؤنى غيظا عندما كنا معا فى زمرة حارة (أبى طاقية) .

وكان من عادة السيد أحمد جلال أن يحتفل فى كل عام فى شهر رمضان باطعام العمال والفقراء وتوزيع الملابس عليهم فى ليلة العيد ، فلما مرت السنة الأولى من عملى بالمحلج عهد الى السيد أحمد أن أقوم على تدبير ما يجب تدبيره لذلك الشهر من طعام وكسى ، بعد أن كان يكل ذلك الى مصطفى عجوة .

فوضعت لذلك خطة توفرت على احكامها ، واظن أن السيد ارتاح الى عملى فصار يعهد الى بذلك فى كل عام كلما أقبل رمضان ، وكنت أجد فى قيامى به ارتياحا شديدا لما فيه من البر ، كما كنت اغتبط بما فيه من دلالة على ثقة السيد بى واعتماده على ، ولم أفطن الى أن عملى هذا يثير على غيظ مصطفى عجوة الا بعد عدة سنوات عندما وقعت حادثة صغيرة فى

شهر من شهور رمضان المتعاقبة ، كان لها على صغرها أثر كبير فى تغيير اتجاه حياتى ·

أقبل شهر رمضان فى أحد الاعوام المتتالية وأعددت العدة لما يجب له من كل شيء ، مهتـديا بتجاربى السابقة ، وتحريت أن اطرف العمال والفقـراء بين حين وآخـر بأنواع من طرف الطعـام لأدخل على قلوبهم السرور · وكنت أقضى بعد الظهر من كل يوم فى تدبير شئون المطبخ ثم أمكث حتى الغروب فى خدمة الطاعمين حتى يفرغوا من الافطار واذهب بعد ذلك الى بيتى لأفطر · وقد أتاحت لى ساعات وجودى معهم فرصا كثيرة للاستماع الى ما يقولون ولا سيما بعد أن صاحبتهم سنة بعد سنة وأنسوا الى مودتى ·

وبدأت أحاديثهم الصريحة عند ذلك تطلعنى على جانب عجيب من الطبيعة الانسانية لم افطن لها من قبل وبدأت أتعلم حقا أن الناس كما يقولون «صناديق مقفلة» تخفى فى كثير من الأحيان ما فيها من الحقائق·

كنت يوما أجلس فى حلقة من العمال حول احدى الموائد بقصد مؤانستهم فسمعت أحدهم يتحدث ساخرا بالسيد أحمد جلال ·

فقلت له فى رفق : انه لا يستحق منك هذا يا صديقى ·

فأجابنى فى دفعة : أتقصد أنه يطعمنا ؟

فقلت : لا أقصد ذلك بل أقول لك انه صديق يعمل دائما على اظهار مودته لنا · وما هذه الموائد الا لفتة كريمة لا تستحق الا الشكر ·

فقال مستمرا فى سخريته : أى شكر يا عم ؟ هو يقطع من لحمنا ليطعمنا ، فدعنا نأكل لحمه ونقطع فروه ·

وانطلقت عند ذلك ضحكة عالية من الحلقة كلها ، وكان لها وقع بشـع فى نفسى · فقمت من بينهم وقلبى ثـائر وصـدرى منقبض حتى وصلت الى بيتى فأفطرت بشيء يسير وأنا كاسف البـال · وفى الليالى التاليـة عزمت على أن أسبر غور الحلقـات الأخرى فكنت أسـتمع الى فكاهاتهم ومناقشاتهم وتبينت أن السيد أحمد جلال لا يطعم الا بطونـا جائعـة · كانت قلوب الجميع لا تحمل له مودة ولا تجزيـه فى قرارتها الا بالسخرية أو الحقد ·

وذهبت ذات ليلة كعادتى الى بيت السيد أحمد جلال لأقضى السهرة بعد أن فرغت من تعهد افطار الفقراء ، وكان السيد جالسا فى حلقـة ضيوفه المعتادة · وسمعت أول ما سمعت من حديث الجالسين قول الشيخ

القرش : ما رأيكم في أن نسمى السيد أحمد جلال حاتم دمنهور ؟ فتعالت الأصوات بالموافقة وأخذ السيد أحمديقول فى تواضع :

ـ أستغفر الله !

وكنت أعرف الشيخ القرش منذ نشأتى وهو تاجر عجيب الطباع بدأ حياته فلاحا فقيرا ، ثم صار طالب علم بالأزهر ، ولكنه قضى عشر سنوات في دراسة لم تفده شيئا سوى عمامة كبيرة ، فاشتغل بالتجارة ، واتخذ لنفسه دكانا صغيرا فى السوق يجمع فيه أنواعا من البضائع لا صلة بينها ، من الطعام والبقول والملابس والأوانى ، كما جعل عند مدخله صندوقا لبيع السجائر وآخر للمرطبات المثلجة · وكان يضع أمام دكانه بعض الكراسى ويجمع عليها بعض أصحابه فاذا جاء وقت الصلاة قام ليصلى بهم جماعة فوق الرصيف · وكان من أقواله المأثورة « القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » كما كان يقول دائما اذا سئل عن أصله « أصلك قرشك » · لهذا سماه الناس بالشيخ القرش وكان معروفا بينهم بالحماقة والشراهة والرياء ·

ولا شك أن وجهى كان ينم عن الغيظ عندما سمعته يستمر قائلا لسيد أحمد ·

ـ لسنا وحدنا نقول هذا ، لهؤلاء المئات من الفقراء يقولونه وهم يأكلون طعامك ·

وكنت منذ أيام أفكر فى أن أتحدث الى السيد أحمد فى ابطال هذه المآدب التى يقيمها ولا يجزى عليها بالشكر وأقترح عليه أن يزيد فى أجور عماله بمقدار ما ينفقه عليها من الأموال ، فلما سمعت قول الشيخ القرش نظرت اليه حانقا ·

وأحس الرجل بمعنى نظرتى فاتجه الى قائلا :

ـ ما رأيك يا سيد أفندى ؟

فشعرت بأن لسانى يلتصق فى سقف حلقى ، وأن الدم يصعد فى وجهى · أأكذب وأوافقه ؟

ولما رأى الشيخ ترددى صاح فى حماقته :
ـ هل يجرؤ أحد أن يكابر الا أن يكون أعمى ؟

وانتهز مصطفى عجوة الفرصة فقال : العمى كثيرون يا مولانا ·

فصاح الشيخ يخاطبنى فى غضب : أتنكر فضل السيد أحمد جلال ؟

فاندفعت قائلا فى غيظ : من الذى ينكر ؟ وما معنى هذا الغضب يا مولانا ؟

فاستمر قائلا : أهذا هو اخلاصك ؟

فشعرت بما يشبه الوخزة فى صدرى وقلت غاضبا : ما لك أنت واخلاصى ؟ أظن السيد يعرف المخلصين وغير المخلصين · ولكنك تريد أن تخدعه بهذا الملق يا سيدى الشيخ · كنت أتمنى لو لم أكن هنا ولو لم أسمع كلامك هذا ، أو على الأقل كنت أتمنى ألا توجه الى هذا القول الذى لا معنى له ·

واتجهت الى السيد أحمد قائلا :

ــ ومع هذا فانها مناسبة حسنة يا سيدى لأن أقول لك كلمة · أنت تعرف أنى أجلك كوالدى ، ولكنك لا تعرف حقيقة ما فى نفوس هؤلاء الذين تطعمهم بالمئات فى فناء محلجك · والفرق بين الذين يجلسون هنا والذين يجلسون هناك هو أن هؤلاء يتكلمون أمامك والآخرون يتكلمون من خلف ظهرك · وأما أنا فانى أسمع ما يقول الجميع ·

وكان مصطفى عجوة جالسا فى ركن بعيد فسمعت صوته الأجوف يقول : ماذا تريد أن تقول يا سيد أفندى ؟

فغاظنى صوته أكثر مما غاظنى سؤاله ، واندفعت قائلا :

ــ لست أوجه اليك كلامى ·

وقال الشيخ القرش : يريد أن يقول ان كل الناس كذابون ·

فقلت مستمرا : لم أقل هذا يا سيدى الشيخ ، ولكنى قلت ان هناك من يقولون غير ما تقوله أنت وأصحابك لأنهم ينطقون بما فى نفوسهم بغير رياء ·

فصاح مصطفى عجوة : فلسفة !

وقام الشيخ هائجا وقال : بل وقاحة !

فلم أعبأ بما سمعت منهما وقلت مستمرا :

ــ هذا الاحسان الذى تقدمه يا سيدى طعاما للناس يجعلهم يأكلون وهم يشعرون بسطوتك · هم يعرفون أنك تتفضل عليهم لكى يشكروك ، ولكنهم لا يحسون فى نفوسهم شكرا صادقا ، بل أقول لك بالصراحة أنهم يقولون من وراء ظهرك ما لا يقول هؤلاء أمام وجهك ·

فعاد الشيخ الى ثورته وجعل يهز ذراعه مهددا وصاح متفجرا : هل جئت هنا لتشتمنا وتسفه أحلامنا وتتهمنا بالرياء ؟

فانفجرت كذلك قائلا : لست أجيب على هذه الألفاظ الرخيصة لأنها لا ترهبني · أبطل يا سيدى هذه المآدب والولائم واذا اردت الاحسان الصحيح فاجعل ثمن هذا كله زيادة فى أجر عمالك · دعهم يذهبوا الى بيوتهم ليأكلوا مع أولادهم ونسائهم وهم يشعرون أنهم مدينون لعملهم وحده سيحرصون على عملك عند ذلك ويشكرونه لك كما يشكر الرجل الحر صاحبه ·

الذين يركعون تحت قدميك ليشكروك على عطائك لا يحملون لك غير الرهبة · حرر قلوبهم من أسر الاحسان المذل ، ولا تستعبدها ·

وكان وجه السيد أحمد يدل على شدة ضيقه وارتباكه وبدأت أشعر بأنى أسأت اليه اساءة كبرى · وغمرنى الخجل لأنى عرضته لمناقشة عامه لا شك فى أنها مست صميم كبريائه ·

ووجدت أن بقائى هناك لا يزيد موقفى الا حرجا فقلت معتذرا :

ـ أنا آسف يا سيدى على هذا الحديث كله وكنت أتمنى لو لم أتدخل فيه ·

والتفت مسرعا لأخرج وفى داخلى مرجل يغلى وعلى جسمى فيض من العرق ·

ولما خلوت فى غرفتى تلك الليلة أخذت أفكر فيما أفعل فى الصباح التالى · أأذهب الى عملى أم انقطع عنه ؟ وكان أول رأيى ان أنقطع لأن السيد أحمد لا بد أن يكون غاضبا على بعد ما حدث منى ، وحزنت حزنا شديدا لتورطى فى شأن كنت فى غنى عن التورط فيه ·

ولكنى عدت الى نفسى بعد قليل وقلت انى لم أقترف فى حق السيد أحمد جريمة ألوم نفسى عليها · فقد كنت أحمل له اخلاصا وولاء لا شائبة فيهما ، واعرف أنه صاحب الفضل على وأنه يكرمنى ولا ينبغى لى أن أحزن من أجل نصيحة صريحة قلتها له أبتغى بها مصلحته · لم أكن متهما أمام ضميرى ولهذا عزمت على أن أخوض المعركة حتى نهايتها · واستقر رأيى على أن أبقى فى خدمته وأواصل عملى حتى يبدأ هو بالتخلى عنى اذا شاء ·

وصاحبنى فى تلك الليلة احساس قوى بالاعتزاز بأنى انسان أستطيع أن أجهر برأيى ولا أتردد فى الثقة بنزاهة ضميرى · وكلما مرت بذهنى ذكرى هذه الليلة عرفت أنها كانت من اللحظات السريعة التى تمر بنا فلا نفطن اليها فى وقتها ولكنا نعرف فيما بعد أنها كانت لحظة خطيرة فيها مفرق من مفارق الطرق فى الحياة · بدأت أشعر منذ تلك الليلة بأن لى وجودا وان كنت لا أزيد على موظف بمحلج يكتب الارقام على بالات القطن ·

- ٣ -

عندما ذهبت فى اليوم التالى الى المحلج وجدت السيد أحمد جلال على عادته مهذبا سمحا كأن لم يحدث شىء فى الليلة السابقة · فحمدت الله على الرأى الذى اهتديت اليه وزادت ثقتى فى الرجل وزاد شعورى بالولاء له · واستمر السيد فى تكليفى القيام بتدبير الطعام للعمال فى الأيام الباقية من رمضان ولم يكن لى أن أراجعه فى ذلك فما كان ينبغى له أن يقطع عادته فى أثناء الشهر بعد أن بدأها ·

وبقيت فى عملى بعد ذلك شهرا بعد شهر لا أكاد أفطن الى مرور الزمن الا فى أول كل شهر اذا قبضت مرتبى · وقد زاد السيد أحمد ذلك المرتب بعد بدء الموسم الجديد فجعله خمسة عشر جنيها ، وجعلنى وزانا فاختفى شعورى بالصغر والتفاهة شيئا بعد شىء ·

وكان العمل فى أيام الخريف والشتاء لا يدع لى فرصة كبيرة فى القراءة لأنى كنت أعمل طول النهار الى المساء بغير راحة الا ساعة قصيرة عند الظهر · وصار السيد أحمد لا يكلفنى الذهاب الى البيت لقضاء الخدمات الصغيرة فلم أذهب الى هناك الا مرة واحدة فى مطالع الربيع لأحمل هدية جاءت اليه من أحد أصدقائه فى الاسكندرية ، وهى علبة بديعة الصنع من قطيفة الحرير يدل مظهرها على أنها تحتوى على حلية ثمينة · وذهبت الى البيت وكنت لم أقابل منى منذ شهور وكان يوما من أيام مارس والهواء الدافىء يعلن أن الحياة بدأت تدب فى الكون · كانت أعواد الأشجار وأوراقها الرطبة والأزهار المتبرجة بألوانها الزاهية وروائحها العطرة تقول « هذا هو الربيع » · وكانت الطيور المرحة كذلك تتواثب وتزقزق وتغنى قائلة ان الحياة تجدد شبابها · ورأيت منى فى الحديقة تتمشى فى ساعة العصر بين ظلال الشجر وحدها · لم تكن تلعب كما اعتادت ولم تسرع الى صائحة مرحبة كما كانت تفعل من قبل · كانت فى ذلك اليوم مثل زهرة الفول الأنيقة الناضرة اذا بللها الندى فى الصباح · وكان عليها ثوب من الحرير الأبيض ووجهها البارع الحسن يزينه كأنه جوهرة · كان لون وجهها الوردى ولون عينيها اللازوردى وشعرها المتموج الذهبى ، كان كل ذلك يبدو أروع من كل مناظر الربيع الجديد · ولما رأتنى أحنت رأسها

بابتسامة صغيرة فذهبت اليها لأحييها ، ومدت الى يدها فى هدوء ، ولاول مرة نظرت الى وجهها متأملا . رأيتها مثل وردة كانت فى المساء ناعسة فى كمها ثم تفتحت فى الصباح عن تمامها،وزينتها أسرار الطبيعة المتفننة فى الابداع . وجدتها أمامى فجأة وهى فتـــاة لا طفلة ، وكانت نظرتها صريحة كالعادة ، ولكن عينيها كانتا فى لون البحر الصـــافى العميق . فوقفت أمامها مبهوتا أتأمل صورتها كأنى لم أرها من قبل . ولما مددت اليها يدى بالهدية التى أحملها ، لم ابتسم ولم أنطق بكلمة بل انى لم أجب على سؤالها « ما هذا » ؟ ، وارتبكت وخشيت أن تسمع دقات قلبى . وما كادت تأخذ العلبة وتفتحها حتى هممت بالانصراف . ونظرت منى الى الحلية ونطقت بصيحة اعجـــاب خافتـــة ، ثم نظرت الى لتشكرنى . وشعرت بأن وجهى يتقد حمرة ، ولم أجد وسيلة للخلاص من ارتباكى الا بأن أنطق بتحية قصيرة ثم انصرفت ووليتها ظهرى . وما كدت أصل الى الباب حتى هبت على عاصفة شديدة من الحنق على نفسى ، ولم أعد أرى شيئا أمامى . وسرت فى الطريق كأننى هباءة تضل فى فراغ حتى عدت الى المحلج وأغرقت نفسى بين أكياس القطن فى شىء يشبه الحنق . وأخذت أكتب الأرقام تارة وأزن الأقطـــان تارة أخرى لا أدع لنفسى فراغا حتى أظلمت الدنيا .

ولما ذهبت الى بيتى فى تلك الليلة شهدت معركة من أعنف المعارك التى اضطربت فيها خواطرى ، كيف وقفت أمام منى هكذا كالصنم الأبكم لا أنطق ولا أتحرك ؟ أليســت هى منى الصغيرة التى كنت ألعب معها لأدخل السرور الى قلبها . ولكن ما لقلبى كان يخفق كالمجنون وأنا أنظر اليها ؟ وكانت صورتها تتمثل لى وعطرها ينفذ الى أعماق صدرى وعيناها تشعان بالنور فى خيالى ، وأصداء صوتها الهادىء تتردد فى سمعى مثل أنغام الموسيقى . وخطر لى سؤال عجيب فى ثنايا خواطرى « ليت شعرى كيف أبدو فى عينيها ؟ » ثم حنقت على نفسى وعدت اليها ألومها على ذلك السؤال الأحمق ، وحـــاولت أن أصرف ذهنى الى شىء يشـــغله عن تلك الخواطر العقيمة فاخذت أقرأ ، ولكنى لم افهم سطرا مما قرأت . ثم أخذت أكتب أشعارا ولكنى كنت أسرع الى تمزيقها ساخطا على حماقتى .

وطلع على الصباح بعد اغفاءة قصيرة فى آخر الليل وكنت أكثر هدوءا ، ولكن احساسا جديدا أو قلقا جديدا دب الى نفسى وهو الرغبة فى أن أترك الخـــدمة بالمحلج . وقضـــيت سائر اليوم غائبا فى أحـــلام اليقظة ، أفكر فيما يمكن أن أشتغل به من الأعمال اذا تركت عملى بالمحلج وتساءلت مرارا « لماذا لا أستقل بتجارة أكون فيها صاحب عمل لا موظفا صغيرا فى محلج ؟ » .

لماذا لا أكون مثل السيد أحمد جلال الذى بدأ حياته فقيرا مثلى ـ ثم استطاع بكده أن يبنى لنفسه تجارة عظيمة ؟

وقد استولت على هذه الفكرة الجديدة فصارت أمنية دائمة منذ ذلك اليوم . تخبو أحيانا وتبدو أحيانا ولكنها دائما هناك فى أعماقى ·

وكنت أترقب بعد ذلك أن يبعثنى السيد أحمد الى بيته لتأدية خدمة لعل عينى تقع مرة أخرى على منى ، ولكنه لم يطلب لى خدمة لمدة أشهر طويلة حتى شق الأمر على مع كل ما حاولته من صرف فكرى عن تلك الأمنية وتسخيفى لها · كنت دائما أذكر منى وهى تسير تحت ظلال الشجر فى ساعة العصر وشعرها الذهبى يشبه أشعة الشمس المضيئة ·

ومرت أيام الموسم من ذلك العام فاتسع وقت فراغى واشتدت على وطأة الفكر ، فكنت أقرأ كثيرا وأكتب كثيرا وأخرج الى الحقول لألهو عن التفكير فى منى ، ولكنى كنت دائما أخرج من الميدان منهزما · وكثيرا ما كان قلقى يحملنى على الحماقة فأتعمد المرور من أمام بيت السيد أحمد فى ذهابى الى خارج المدينة لعلى ألمح منى من بعيد ، فكنت اذا لمحتها يوما عدت الى بيتى كأننى أطير على الهواء وأتصبر بالسعادة التى فزت بها عدة أيام ، وأما اذا لم أفز بتلك اللمحة ذهبت الى الحقول كئيبا لأنفس عن قلبى بجولة طويلة ·

وحدث يوما أننى خرجت الى شمال المدينة فمررت بمنزل أنيق له سور من أشجار شائكة تتسلق عليها أعواد مزدهرة ذات أزهار بديعة الأشكال والألوان · وهزنى ذلك المنظر حتى وجدت نفسى أسبح فى خيالى فلم أتنبه الا على صوت بوق يصيح من ورائى ، فالتفت فاذا هى عربة كبيرة تكاد تدوسنى· فأسرعت الى جانب الطريق فى شىء من الغيظ ولكنى ما كدت أبصر من فى داخل العربة حتى وثب قلبى دهشة وسعادة · كانت منى هناك تبتسم ولوحت لى بيدها ، ثم انطلقت بها العربة وأنا ثابت فى مكانى · كانت هناك مثل الأزهار التى بدت لى منذ لحظة فوق السور العالى الشائك ، تبتسم ولا أستطيع أن أصل اليها · وتعلقت عينى بالعربة حتى اختفت عنى ثم سرت على الطريق وقلبى يدق عنيفا وأنفاسى تضطرب · وعادت العربة بعد حين وأنا ما أزال فى طريقى· فلما اقتربت منى هدأت سرعتها فاتجهت الى منى وكانت لحظة من أسعد لحظات حياتى ، اذ رأيتها تلوح بيدها نحوى وتبتسم فى مرح · وقد بقيت هذه الصورة عالقة بخيالى لا أنساها ، وهى ما تزال محفوظة عندى فى القطعة الشعرية التى ألفتها تلك الليلة بعنوان « زهرة السور العالى » ·

ومر على ذلك الصيف فى غمرة لا أكاد أتنبه فيها الى شىء غير صورة منى ، حتى بدأ الموسم الجديد وبدأت أعود الى أكياس القطن المكدسة فى

المحلج ، وعاد الى قلقي وضيقي من العمل الرخيص الذى حبست نفسى فيه ، وهل أهون من وزان فى محلج ؟ كانت هـذه الفكرة تعـذبنى فى الصباح والمساء وتزداد بى قسوة كلما اقترنت بها صورة منى ٠

وفى يوم من الأيام طلب منى السيد أحمد أن أحمل الى البيت مبلغا من الجنيهات (الفكة) ، وكان الوقت ظهرا والجو مطيرا فكنت واثقا أن منى لا تكون فى مثل هذه الساعة فى الحديقة ومع هذا فانى كنت سعيدا بأن أذهب الى البيت ولو لم أرها٠ودققت الجرس عند باب المنزل الداخلى. لأدعو الخادم ، وانفتح الباب ، وظهرت أمامى منى نفسها ٠ وكان وجهها يضىء بابتسامة هادئة وعينـاها تشعان بالنور الصـافى الذى أعرفـه وصاحت صيحة خافتة : سيد !

ولم يسعفنى النطق لأن دقات قلبى عوقت لسانى فمددت كلتا يدى نحوها قائلا :

ـ مفاجأة سعيدة ٠

ثم أرتج على فلم أجد كلمة أخرى ، فأخرجت ظرف النقود من جيبى وقدمته اليها ٠

فقالت ضاحكة وهى تأخذ الظرف :

ـ هى حقا مفاجأة سعيدة . هذا اسعاف أشكرك عليه لأنى مفلسة ، واليوم عيد ميلادى ، وعندى وليمة لبعض صاحباتى ٠٠ وكنت أسأل نفسى من ذا يشترى لى فاكهة ممتازة فهل تحسن الاختيار يا سيد ؟

فقلت سعيدا : ليس أخبر منى بأصناف الفواكه يا منى ٠ وكانت دقات قلبى قد هدأت قليلا واستطعت أن أستمر قائلا :

ـ وأرجو أن تقبليها هدية منى لعيد ميلادك ٠

فقالت فى بساطة : أشكرك ٠ لسنا عددا كبيرا ٠ أقة واحدة من التفاح وأخرى من الكمثرى ، وبعض وحدات من البرتقال ٠ دعنى أذهب لأدرك الكعكعة قبل أن تشيط ٠

وأحنت رأسها باسمة ثم انصرفت مسرعـة ٠ ولو كانت السـماء مفتوحة عند ذلك لانطلقت اليها لأن الأرض كانت لا تسعنى ٠ وسرت فى الطريق والهواء البارد يرحب بى ونور السماء الخافت يبتسم لى والرذاذ المتساقط يرف على وجهى رفيفا والكون كله يغنى ٠ وكان المطر يتزايد وأنا سائر حتى صار يهطل عندما وصلت الى السوق ٠ وملت على دكان فاكهى فاخترت أحسن ما عنده وبعثت به الصبى الى بيت السيد أحمد بعد أن نفحته بقطعة من ذوات القرشين وطلبت منه أن يعود الى فى القهوة

المجاورة بعد أن يوصل الفاكهة الى البيت · وكانت تلك القهوة مكانا مختارا لكثير من زملائى فى المحالج ورأيت جمعا منهم يضحكون بأصوات عالية حول اثنين منهم يلعبان النرد · وكان جو القهوة خانقا ولكنه كان دافئا فخلعت سترتى ونصبتها على كرسى لتجف من أثر المطر ثم جلست وحدى على منضدة بعيدا عن الزحام ، وطلبت فنجانا من الشاى لأستدفى · وبعد قليل عاد صبى الفاكهى وأعطانى ورقة صغيرة فيها كتابة باللغة الفرنسية : « ألف شكر » وتحتها الاسم العزيز « منى » · وقرأت الورقة مرارا ثم دسستها فى جيبى وأعطيت الصبى قطعة أخرى من ذوات القرشين ففرح بها وابتسم بسمة عريضة ورفع يده الى طرطوره مسلما وجرى خارجا · فأخرجت الورقة من جيبى وجعلت أنظر فيها وكان خطها أنيقا نظيفا واضحا صريحا أو هكذا تصورته وأنا أرى فيه صورة منى كأنها زنبقة · وأخذت أشرب من الشأى الساخن وأنا أردد بصرى فى الورقة مستغرقا فى تأملها حتى تنبهت على حركة فى الناحية الأخرى من المنضدة فالتفت فى غير اهتمام لأرى أمامى وجه مصطفى عجوة باسما بسمته الكالحة فانقبض صدرى وأسرعت الى دس الورقة فى جيبى وعدت أشرب من الشاى فى صمت · وكنت لم أجتمع به منذ ليلة رمضان العاصفة ، فخطر لى عندما وقعت عينى عنيه أن أسرع فى شرب الشاى ثم أنصرف الى منزلى لأتغدى ثم أعود الى المحلج ·

ولكنه شرع يحدثنى فقال :

ــ أأنت غاضب منى ؟

فلم أجبه ، وأخذت أرشف بقية الشاى ، ولكنه لم يخجل وعاد يحدثنى مخلطا بأقوال شتى تافهة لا تعنينى · ومن العجيب أننى بدأت أستمع الى أقواله بشىء يشبه الرضى أو الارتياح الى استطراده من موضوع الى آخر · وأعجب من ذلك أننى بدأت أرد عليه وأبادله الحديث بعد دقائق · وكان منظر وجهه الغليظ الأزرق بما فيه من حفر صغيرة يشبه فى عينى قطعة عجيبة من صنع الطبيعة وخيل الى أنه من قبح تفاصيله يستهوى البصر فى مجموعه · وما زال يستدرجنى فى الحديث حتى سألنى :

ــ أتعرف محمود بن محمد باشا خلف ؟

وكان سؤالا غريبا لا موضع له ولكن غرابته جعلتنى أتطلع لما بعده ·

فأجبته قائلا : « كان تلميذا معى فى المدرسة » · وكان محمود هذا صبيا سخيفا مغرورا غبيا ، تعود أن يرشو جيرانه ليملوا عليه الاجابة ، وكان كلما قابلنا فتح لنا كفيه قائلا : « انظروا الى هذا الوسخ الذى

فى يدى . انه صدأ الذهب الذى فى خزانة أبى » . فكنا كلما لقيناه بدأناه قائلين : « أرنا كفيك يا محمود » فيفتحهما ويعيد كلمته المعروفة . وكنا نضحك منه كثيرا وهو مغتبط بضحكنا . وكان ثرثارا كثير الادعاء يفاخرنا دائما بأنه يأخذ كل يوم دروسا خاصة فى منزله . وكنت أتمثل صورته باسما عندما قال مصطفى :

ـ حظوظ يا سيد أفندى . الدنيا حظوظ .

وخبط بيده على المنضدة كانه حانق .

فقلت له : ماذا تقصد ؟

فقال فى همس : ألم تسمع بما حدث ؟

فثار تلهفى على السماع وقلت فى اهتمام : ماذا حدث ؟

فقال وهو يصرف وجهه عنى : النهاية يا سيد أفندى . لا فائدة .

فزاد قلقى وقلت فى ضيق : ماذا حدث ؟

فقال محدقا فى وجهى : منى !

وكانت مفاجأة غير منتظرة ، وكان الخبيث يرقب كل حركة من حركاتى وانفلتت منى شبه صرخة وارتسم على وجهه ما يشبه التشفى واستمر قائلا :

ـ ما لنا نحن يا سيدى ؟ أما قلت لك انها حظوظ ؟

وحاولت التراجع فتمالكت نفسى بعد أن أحسست بما فرط منى ولكن الخبيث استمر يتحدث كأنه يتعمد اثارتى فقال :

ـ محمود الذى خرج من المدرسة قبل الابتدائية ! محمود الذى يعرف الجميع أنه لا يساوى مليما ، محمود الذى لا يعرف من الدنيا شيئا سوى اللعب والنزهة ! يا سلام يا ناس ! مصائب يا سيد أفندى ، والدنيا حظوظ . نولد للهم والغم والتعب ومحمود للعز والسيادة والنعمة ويتزوج منى بنت السيد أحمد جلال !

فصحت فى غيظ : من قال هذا ؟

فاستمر يقول : يا سيدى قلت لك حظوظ فلنكن نحن فى حالنا . نحن نكسب لهم وهم يركبون ظهورنا .

أنت تعجبنى والله يا سيد أفندى لأنك تعرف كيف تكلم هؤلاء بالصراحة . أعجبتنى عندما تكلمت مع السيد أحمد جلال فى رمضان . معلوم كلهم أنذال وعصابة منافقين . ولكن مالنا نحن ؟ النهاية هذه

فرصة لأقدم لك اعتذارى لأنى كنت أحب ان أقدم لك هذا الاعتذار من قبل العيد · تقول جبان ، تقول منافق كما تشاء ، ورزقى على الله · ولكنى والله مخلص لك ، ولولا أنى سمعت الخبر بأذنى ····· سمعته بأذنى عندما كان الباشا فى المنزل · كانت البنت الفلاحة تحمل القهوة وسمعت هذا الكلام ، ونقلته الى حرفيا · أراك مهموما يا سيد أفندى ·

فقلت منزعجا : ماذا تقصد ؟ ولماذا أكون مهموما ؟

فقال ضاحكا فى خبث : على أنا يا سيد أفندى ؟ معذور والله اذا كنت تحزن ·

فقلت فى دفعة : وماذا يهمنى ؟

فقال : أنت تسىء الظن بى دائمـا · أنا أتمنى لك خدمة وأنت لا تثق فى أبدا · ولو كان غيرك ما كنت أهتم أبدا ولكنك لا تصدق · السيد أحمد جلال يقدرك يا سيد أفندى ولو كان غيرك قال كلمة واحدة من كلامك فى ليلة رمضان ···· كان طار فى ساعتهـــا · هو يحبك بالتأكيد ويثق فيك وهو على حق · وهى أيضا بغير شك يا سيد أفندى ·

وشعرت كأن حجرا صدمنى وعجبت كيف ساقنى هذا الخبيث الى هذا المدى فى الحديث · وتمنيت لو أننى انكمشت حتى أختفى من وجهه السمج أو أن أقوم مسرعا واتركه ورائى ولكنى مع ذلك بقيت جالسا مهتما بسماع كل ما عنده ، كأن شيئا يمسكنى برغمى · ولست أدرى الذى ســل منى الارادة وعقد لسانى فلم أتحرك ولم أتكلم بل نظــرت الى وجهه الغليظ جامدا كأنى فى كابوس ثقيل · وأعاد كلمته قائلا :

ــ قلت لك الدنيا حظوظ · دعنا نحن فى بؤسنا ·

ووجدت نفسى أندفع قائلا :

ــ اسمع أيها الوغد · أعرف أنك لا تريد الا أن تملأ قلبى غيظا بهذا الحديث ، وأحب أن املأ قلبك الأسود غلا وحقدا ، اعلم انى لا أهتم بشىء مما تقول ولا أعبأ بمحمود ولا بغير محمود ، وأشعر بأنى لا أقل عن أحد ولا يهمنى ما تقول ان الدنيا حظوظ · قل عن نفسك ما تشاء ولكن لا تحشرنى معك · هل تظن أنى أقل من أحد ؟

ما معنى حظوظ وغير حظوظ ؟ لو كنت أريد ···· وترددت فلم أنطق بما كنت أريد ·

فقال مصطفى : الحق على يا سيد أفندى · هذا جزاء المودة والاخلاص الحق على يا سيدى والناصح دائما مكروه ·

فقلت : ما الذى جعلك تتكلم عن محمود خلف ؟ ولماذا تقول لى ان الدنيا حظوظ واننا بؤساء ٠كن بائسا أنت اذا شئت ولكنى لا ارى أنى أقل من أحد ٠ وهل يبعد ان أصير غنيا أنا الآخر ؟ لماذا لا أكون غنيا مثل السيد أحمد نفسه ٠

فضحك ضحكة عالية وقال فى وقاحة :

ــ قريبا يا سيد أفندى ٠ لا مانع أبدا ٠ تشجع وأسرع قبل فوات الوقت ٠

ولولا أنى خشيت من لفت أنظار من فى القهوة ومن تناقل الأحاديث الكاذبة واثارة قصة طويلة فى المدينة ، لقمت الى ذلك الوغد وافرغت فيه غيظى بطريقة لا ينساها ، ولكنى بلعت شتائمى وكتمت حنقى وقمت من مجلسى مسرعا فلبست سترتى وخرجت بغير أن أنظر اليه ٠ وكان المطر ما يزال يقطر فسرت فى الطريــق لا أحس بــردا ولا أبالى المطر ولا الوحل وفى عقلى سؤال واحد متشعب وهو « أحقــا خطبها محمود خلف ؟ وهل يرضى أبوها ؟ هل ترضى هى ؟ أهى جارية تباع من أجل ثروة الباشا ؟ » ٠

ولما صرت فى غرفتى أخرجت من جيبى قصاصة الورق التى بعثتها منى وأخذت أقرؤها وأعيد قراءتها وأنا حزين يائس ٠ ثم قبلتها ووضعتها مترفقا فى ظرف وجعلتها فى مصحف صغير أضعه فى درج مكتبى ٠

وجاءت أمى تدعونى للغداء فكذبت عليها قائلا انى أكلت ، وقمت الى سريرى فاستلقيت متعبا مضطربا فى حالة بين النوم واليقظة تشبه الذهول أو الدوار ٠ وأخذت الرؤى تتوالى على كأنها حقائق ٠ فرأيت كأنى أعوم فى بحر صاف أشق ماءه فى رفق وهدوء ، ثم كان البحر يتحول فجأة الى هواء أسبح فيه مثل الطير ويملؤنى شعور بالاستعلاء وأنا أشرف على الأودية والجبال فى اطمئنان ثم تهب عاصفة فأجد نفسى أجاهد فى موج عال له رؤوس بيض تشبه أكوام القطن،وتعلو فى أنفى رائحة عطنة تشبه الروائح التى أعرفها فى حارات دمنهور بعد نزول المطر ، فأكاد أختنق وأقوم من غفوتى لاهثا ٠ ولكنى لا البث أن أرى كأنى فى براح واسع فى آخره حديقة مزدهرة أريد أن أذهب اليها فاذا لصوص يخرجون على ويهاجموننى ويتقدم منى أحدهم بوجه غليظ يريد أن يطعننى بخنجره ويحاول أن يأخذ منى الورقة التى بعثتها منى ، فأهجم عليه وأنزع منه الخنجر وأرفعه لأضربه فيصيح صيحة عالية بصوت مصطفى عجوة فأقوم منزعجا ٠ ثم أعود مرة أخرى فتبدو لى منى من بعيد فأسرع نحوها لأعتذر اليها ولا أدرى لماذا أعتــــذر فأقف أمامها صامتا أمد اليها يدى ولكنها

تختفي فأشرد وراءها في اتجاهات شتى حتى أرى بابا مغلقا فأرتد عنه حانقا ولكني أجد الأرض زلقة فأحاول أن أقفز منها الى سطح رخامي أسفل مني بنحو مترين ، فأرى كلابا غريبة الشكل مخيفة تنظر نحوي مهددة ، فأستيقظ وقلبي يخفق خفقانا شديدا . وكان المساء قد بدأ يهبط بظلامه فوثبت من سريري لأوقد المصباح وسمعت صوت أمي تناديني :

ـ أصحوت يا سيد ؟

وفتحت الباب قائلة :

ـ قم لتذوق الكعكة التي أرسلتها مني . يارب يا ابني أعيش حتى أرى لك عروسا مثلها . قم معي فقد جهزت الشاي حتى لا يبرد .

فقمت آخذا بذراعها وكنت سعيدا لأقوم من غفوتي على هذه البشرى . هدية مني ؟

وقلت لأمي : أنت أجمل الأمهات جميعا .

وانحنيت لها باسما ، وأشرت اليها اشارة متأنقة لتجلس في صدر المائدة . فجلست تضحك ضحكتها الطيبة وجسمها يرتج وأخذت تدعو لي .

وقلت : أين منيرة ؟

فقالت : نسيت أن اقول لك . ذهبت مع منى .

فقلت في دهشة : منى ؟

فقالت أمي وهي تضحك : والله يا ابني أصبحت مثل أمي المرحومة : أقول أول الكلمة وانسى آخرها . أما قلت لك ان منى جاءت الى هنا ؟ ولما رأتني انحنت على يدي وطلبت أن تذهب منيرة معها . قلت لها « هي أختك يا حبيبتي » وذهبت معهما لأوصلهما الى العربة عند أول الحارة .

وكانت سعادتي بهذه الزيارة التي لم أنتظرها تعادل أسفي على أني لم أكن متيقظا لأستقبل منى .

ومددت يدي بالطبق لتقطع لي أمي نصيبا من الكعكة ، وذهب عني أثر تلك الأحلام المزعجة التي أفزعتني . وكانت الكعكة من الذ ما ذقته في حياتي كما كان الشاي عطرا منعشا ، وجاءت منيرة قبل أن نقوم عن المائدة فأخذت تقص علينا حديث الحفلة التي دعيت اليها ، وكانت هي الأخرى سعيدة بأن جددت عهدها بصديقة طفولتها .

ذهبت فى اليوم التالى الى عملى فى المحلج بقلب خفيف وكان ضغط العمل شديدا ولكنى لم أشعر منه بتعب ولا ضيق . ولم أعبأ بمصطفى عجوة الذى كان فى ذلك اليوم على غير عادته يتظاهر بالسلطان ويسير هنا وهناك بين بالات القطن صائحا بالعمـــال شاتما مؤنبا كأنه يريد أن يقول « أنا هنا » .

ولما أوشك عمل الصباح أن ينتهى جاء مصطفى الى ووجهه يلمع أكثر من عادته وقال لى بصوته المجوف :

ـ ألا تحب أن تشرب معى كوبا من الشاى ؟

وكان اول خاطر هم بنفسى أن أقول له « امش من هنا » ولكنى لم اجبه ومضيت فى عملى صامتا . فعاد قائلا : عندى كلام هام أريد أن أقوله لك . فثار الفضول فى نفسى برغم اشمئزازى منه وقلت له :

ـ ليس عندى غير ربع ساعة .

فقال ضاحكا : بركة . يكفينى الشرف يا سيد أفندى .

وانتظر حتى فرغت مما فى يدى وسار معى واضعا يده تحت ذراعى كأحسن ما يكون الأصدقاء . ولما دخلنا الى قهوتنا المعتادة صاح بالخادم :

ـ اتنين شاى !

وجلست الى الجانب الآخر من المنضدة متحفزا له بكل أعصـــابى كأنى أعتزم منازلته .

وبدأ قائلا : عندى لك نصيحة يا سيد أفندى .

فصحت متعجبا : هل جئت معك لأسمع نصائحك ؟ .

فقال باسما : لا تغضب قبل أن تسمع . هى نصيحة اذا أردت والا فهى بشرى . خبر سار تعمدت أن أقوله لك لأبرهن لك على صدق مودتى وان كنت أعرف أنك لا تصدقنى . النهاية اعمل الجميل وارمه فى البحر . على فكرة . لماذا لم تقل لى السلام عليـــكم وأنت منصرف بالأمس .

وضيقت عينى وأنا أنظر الى وجهه فاحصا ولم أنطق بحرف واستمر هو يقول :

ـ النهاية يا سيدى على رأى الشاعر « تظهـــر لك الأيام ما كنت جاهل » .

وضحكت برغمى قائلا : وتحفظ الشعر أيضا ؟ قل لى أولا ما هى نصيحتك يا مصطفى ٠

فقال : عندما تركتك بالليل كان قلبى يتألم من أجلك وان كنت تركتنى بغير سلام ٠ ما علينا ٠ وفكرت طول الليل فى شأنك والطريقة التى يمكن بها أن أخدمك وأزيل ما عندك من سوء الظن بصديقك ٠ الشاهد أنى عندما جئت اليوم فى الصباح كان كل ذهنى يفكر فى مسألة سيد أفندى ٠

فقلت ساخرا : مسألتى ؟ وما هى ؟

وجاء الخادم عند ذلك يحمل كوبين من الشاى فاتجه اليه مصطفى وطلب منه قطعتين أخريين من السكر وكوبا من الماء ٠ ثم أخذ يقلب الشاى بالملعقة فى بطء وذاق منه رشفة قبل أن يتكلم ٠

قال : أنت تعرف أنى الساعد الأيمن للسيد أحمد جلال ٠

وانتظر ليسمع رأيى فلم أجد ضرورة لتكذيبه ٠

فاستمر قائلا : أنا هنا فى المحلج من عشر سنوات قبل أن تدخله أنت ٠ ولولا ملاحظتى ومراقبتى وخوف العمال منى كان النـاس أكلوه وشربوه ٠

ورشف رشفة طويلة من كوب الشاى كأنه يقول « شربوه هكذا » ٠

ثم قال : والسيد أحمد يثق بى ثقة تامة لأنه يعرف انه يضـيع لو ترك أعماله لغيرى : هو يعلم أنى أخدمه مجانا ٠ نعم مجانا ٠ سـتة جنيهات فى الشهر لا تساوى ثمن عشرين رطل قطن يأخذها أحد العمال فى جيبه ٠ الشاهد ! انتهزت فرصة جلوسه وحده فى المكتب وأخذت أجس لك نبضه ٠

ففزعت وقلت فى دفعه : لماذا ؟

فرشف رشفة أخرى من الشاى ثم قال :

ـ هل يغضبك أن أجس لك نبضه من أجل منى ؟

فوثبت قائما من الغيظ وقلت : هذا لؤم ٠

فقال غاضبا : عدنا الى الشتم ؟ الحق على ياسى سـيد ولا داعى للكلام ٠

وهم بالقيام ٠

فقلت له فى دفعه : من اذن لك أن تتكلم عنى ؟

فقال : لم أتكلم عنك يا سيدى . اجلس من فضلك واسمع أولا . وأى عيب فى أن أتكلم عنك ؟

ووجدت أن الأمر أخطر من أن أغضب هكذا وأنصرف بغير أن أعرف قرار هذا الخبيث ومدى ما دبره لى من الكيد .

فجلست عازما أن أملك نفسى حتى أعرف كل ما عنده .

وبدأ يتكلم : ألم تقل لى يا سيد أفندى انك لا تقل عن محمود خلف؟ ألست ترى أنك لست أقل من أحد وأنك أولى بها ؟ لماذا لا تكون فى يوم من الأيام مثل محمود خلف وأحسن منه ؟

وهل من العجب أن تحب منى وتريد أن تتزوجهـــا ؟ الحق على يا سيد أفندى وسأتعلم أن أكون فى حالى ولا أهتم بأحد .

وكاد قلبى ينفجر من الغيظ ولكنى لم أتكلم . وأخذت كوب الشاى لأشغل نفسى به حتى لا أظهر اضطرابى .

ومضى هو يقول : قلت للسيد انك شـاب طيب ومن أسرة طيبـة والسيد أحمد نفسه يقول انه يعرف والدك وعمك ، الذى كان حكمدار المديرية . هل كنت أنا أعرف هذا ؟ فقلت انها فرصة لأودى لك خدمة وأظن أنى نجحت . قلت له ان الفقر والغنى من الله . وأنك ستكون غنيا فى يوم من الأيام ولم لا ؟ ألم يكن هو الآخر فقيرا . ولما وجدت أنه لم يغضب قلت له أيضا نك تحمل شهادة الثقافة ولمحت له أن الزواج يجب أن يكون على أساس المحبة .

فوثب قلبى الى حلقى وقمت واقفا وقلت له :

ـ اسمع يا دون ، لا تحسب أنك طعنتنى أو قدرت لى على أذى . وأحب أن أقول لك كلمة أخرى لعلها تنفعك اذا نقلتها للسيد أحمد جلال .

وبدلا من أن يغضب مد يده الى القطعة الباقية من السكر ووضعها فى فمه وشرب عليها بعض الماء وجعل يمصها وهو يقول : « عجيبة يا سيد أفندى » ولولا خشيتى من أن أحدث فضيحة لهشمت أنفه الغليظ بقبضة يدى وقلت له :

ـ اعلم أن ايقاعك عند السيد أحمد لا يهمنى . ولن أدافع عن نفسى وسأنتظر صامتا حتى أرى النتيجة . أنت تريد أن توقع بينى وبين الرجل لأمـــر فى نفسك . هذا خبث قديم لا أجهله . ولكن قد ينفعك أن تعرف أنى لست عبدا مثلك . ولو صدق هذا الدس الذى تدسه لى لكنت سعيدا

أن أترك محلجه • ولن أبقى فى محلج السيد أحمد جلال يوما واحدا اذا صدق كلامك ، أهذه أقوال تنفعك ؟

ونظرت اليه نظرة ناريه وانصرفت من القهوة وقلبى يغلى • واتجهت الى منزلى فلم أعد الى المحلج حتى أنتظر النتائج بغير أن أحرك ساكنا • وقلت لنفسى أن أكبر ما أخشاه أن يطردنى السيد أحمد • ولمحت فى قلبى لونا من السرور عندما فكرت فى هذا لأتخلص من عملى فى المحلج بغير أن أكون أنا البادىء بالقطيعة • فلماذا لا أبدأ بالتجارة وقد تجمع لى أكثر مما كان عند السيد أحمد عندما بدأ بالتجارة ؟ وقضيت ذلك اليوم والليلة التى بعده أحاول أن أشغل نفسى بشىء عن التفكير فى نفسى • فأخـذت أقرأ حينا وأكتب حينا آخر ولكن فكرى كان دائما يعود الى التجارة • لماذا لا أبدأ من الغد بأن أشق طريقى فى الأسواق ؟ عند ذلك فقط أستطيع أن أتقدم الى السيد أحمد جلال وأقول له ما أشاء • ولكن ألم يخطبها محمود خلف ؟ هل خطبها حقا ؟ وهل يمكن أن تحدث خطبتها هكذا بغير أن يعرف عنها أحد شيئا ســـوى مصطفى عجوة ؟ وجعلت أستعرض المشروعات التى يمكن أن أبدأ التجارة فيها • جنيهات قليلة هى التى فى يدى • وماذا تكفى ؟ هل أذهب الى الأسواق لأشترى بعض القطن بالرطل والرطلين والعشرة ثم أبيعها ؟ كان هذا ممكنا منذ خمسين سنة وكان كافيا ليصبح السيد أحمد جلال غنيا • ولكن لماذا لا أحاول ؟ ومن يدرى ؟

وخرجت من منزلى هائما فى المدينة وما حولها متلفتا حولى الى المتاجر والى وجوه المارة • لماذا لا أضرب فى الحياة مثل هؤلاء ؟ هل كل هؤلاء يعملون فى المحالج ؟ ونمت فى آخر الليلة نوما عميقا بعد أن تعبت من السير وسررت عندما قمت فى الصباح هادئا نشيطا •

وذهبت الى المحلج بغير تردد متوقعـا أن يكون مصطفى قد وجد الفرصة الكافية لاتمام مكيدته : وكان كل همى أن أستطلع ما يخبئه لى اليوم من المفاجآت •

ولكن السيد أحمد استقبلنى كالعادة سمحا مهذبا وقال :

— لا بأس عليك يا سيد أفندى ؟ لم تحضر بالأمس بعد الظهر •

فقلت له : أشكرك يا سيدى • كنت متوعكا قليلا •

وبدأت أحسب أن كل ما قال مصـطفى عجـوة كان ادعاء وكذبا لا يريد به الا أن يملأ قلبى غيظا ، وأقبلت على عملى منشرحا وكان الزحام حولى على أشده لأنى لم أحضر بالأمس بعد الظهر • ولم أجد وقتا للذهاب

في ساعة الظهر للغداء فبعثت أشترى رغيفا وقطعة جبن وأكلت وأنا أعمل . ولم يتركنى مصطفى بل جاء الى قبل الغروب ووقف قليلا جنبى ولاحظت أنه كان يقرأ الأرقام التى أكتبها وينظر الى الميزان ، وكانت هذه أول مرة أراه يقترب منى هكذا ليراقب عملى ولكنى لم أعبأ به ولم أوجه اليه كلمة تجاهلا منى له .

ولم أره بعد ذلك حتى ساعة الانصراف فجاء الى وقال فى مرح :

ـ ساسقيك شايا على حسابى .

فقلت فى دفعة : امش من هنا .

فأجاب هادئا : اذن نتكلم فى الطريق .

فقلت : قلت لك امش .

فقال معاتبا : أنت غريب الأطوار .

فقلت : لا داعى للكلام .

فأجاب جادا : اذن فليكن حديثنا رسميا . عندى لك كلام يتعلق بالمصلحة .

فوثب جوابى : ومالك أنت ؟

فقال فى زهو : بأمر السيد أحمد .

فتركته بغير جواب ولبست معطفى وطربوشى . وسرت بغير أن أنظر اليه ولكنه سار الى جنبى حتى خرجت ثم وضع ذراعه تحت ذراعى وقال فى هدوء : .

ـ اسمع يا سيد أفندى . هى كلمة واحدة وأنت حر .

فقلت فى فتور : ما هى ؟

فقال : هل هذه طريقة الوزن يا سيد أفندى ؟ لم أعرف أنك تفعل هذا وكدت الطم وجهى اليوم . فهل كنت دائما تفعل هكذا ؟

فقلت : وما دخلك أنت ؟ هل رأيتنى أسرق ؟

فقال فى وقاحة : ما دخلى ؟ لو سرقت كان أهون . ما معنى هذا ؟ ما دخلى ؟ ما دخلك أنت ؟ أنا أكلمك باسم المحلج وباسم عيشى وعيشك وباسم المصلحة . المحلج الذى يطعمنى ويطعمك .

فصحت غاضبا : قلت لك ابعد عنى .

فاجاب وهو ينزع يده من تحت ابطى ، ما هذا الكلام الفارغ ؟ اذا كان لا يعجبك أحد فما معنى بقائك معنا ؟

فصحت : اخرس ٠

فقال غاضبا لأول مرة : اخرس أنت ٠ لو كان كل الوزانين مثلك ما بقى محلج السيد أحمد جلال ٠

فقلت حانقا : لأنى أسرق ؟

فقبض على ذراعى وهزها قائلا : أنت أبله ٠ أنت لا تفهم ٠ أنت تشخط وتنتر وكأنك السيد والناس جميعا الخدم ٠ من أين يدفع السيد أحمد مرتبك ومرتبى ومصاريف المحلج والولائم والاحسان ؟ هل يأتى بأموال من الترعة الخطابية ؟ من أين يدفع أثمان القطن الغالية وأنت تعرف أن ثمن محلجنا أعلى الأسعار فى دمنهور ٠ ؟

فقلت فى نغمة ساخرة : ماذا تقصد ؟

فقال : ماذا تقصد أنت ؟ ما معنى هذه الطريقة فى الوزن ؟ قنطارين وعشرين رطلا ٠ عظيم ! ثلاثة قناطير وأربعة أرطال ونصف ! ملك !

فقلت متحديا : وماذا كنت تريد ؟

فأجاب : اذا كنت لا تعرف فاسأل ٠ اسأل أهل العلم يا أخى

فصحت فى غيظ : أمسك لسانك : سألت عقلى وضميرى وسألت قلبى وواجبى ٠

فقال فى سخرية : وماذا قال هؤلاء ؟ : قالوا لك اخرب بيت السيد أحمد جلال ؟

فقلت منفجرا : اسمع أيها الرجل ٠ اذا كان عندك كلمة فقلها لغيرى ولا تصدع رأسى بهذا الهراء ٠ ماذا تريد ؟ هل تريد أن أسرق ، وبدلا من كتابة قنطارين وعشرين رطلا أكتب قنطارين ٠ أهذا ما تريد ؟

فقال فى وقاحة : هل تخيفنى بهذا ؟

فقلت : قل باختصار ، هل هذا رأيك أنت أم هو رأى السيد أحمد ؟ هل هذه رسالة ؟

فأمسك ذراعى قائلا : من قال انها رسالة ؟ أنا أكلمك كصديق ٠ أنا أنصحك لله فى الله ٠ أنا أعرف السيد أحمد جلال ٠ ولو عرف أن هذه طريقتك لم تبق فى المحلج يوما واحدا ٠ أنا أعرف أنه لا يشبه الناس ٠

لا يمكن أن يقول لك كلمة · هو بئر عميقة وداهية كبيرة · يلتفت هنا أو هنا لليمين والشمال وتحت قدميه ، ويخطو أول خطوة في بطء كأنه يجس الأرض ، ثم يندفع كالسهم · لا تغتر بأنه لا يقول لك كلمة · لا مؤاخذة اذا كنت أعرض نفسي لنصحك مع علمي بسوء ظنك · والحق علي لاني لا أتعلم ·

فصحت : كذاب · أنت تريد أن تجد بابا جديدا للدس · ومع ذلك فاعلم أيضا أن كل هذه المحاولات لا تهمني · اعلم أني سأستمر على طريقتي التي أملاها على ضميري ·

فقال وهو يهز رأسه آسفا : لقد نصحتك والسلام يا سيد أفندي · وكان وجهه المبهوت في نظري مضحكا ولا أدري لماذا ، فضحكت برغم غيظي مقهقها ، ولم أنتظر أن أسمع الكلمة التي رأيته يفتح فمه بها وقلت له في سخرية : سلام عليكم ! ·

وسرت عنه مسرعا ، وكان قلبي يفيض سرورا لأني استطعت أن أدخل على قلبه شيئا من الغيظ آخر الأمر ·

ولما ذهبت في اليوم التالي الى المحلج كنت مطمئنا ، ولكنني كنت أشعر بشيء يشبه الشعور بالاهانة · وكنت متحفزا لأسمع كلمة ولو يسيرة من السيد أحمد جلال تشير الى طريقتي في الوزن حتى أقول له ما في نفسي صريحا · ولكن السيد أحمد جلال لم يكن في ذلك اليوم أقل تلطفا مما كان في أي يوم آخر · وكانت الجموع التي حولي تتزاحم علي وتصيح بي تستعجلني ، وتحريت في ذلك اليوم تحريا شديدا في أن يكون وزني صحيحا · ولم أفق من غمرة عملي الا في الساعة الواحدة بعد الظهر ، فأسرعت خارجا لآكل لقمة · وخطر لي أن أغسل يدي ووجهي أولا كالعادة ، وكانت دورة المياه على مقربة من الباب المؤدي الى بناء آلات الحلاجة · وفيما كنت أجفف وجهي سمعت لغطا بعيدا يشبه صوت العراك في داخل عنبر الآلات · فذهبت لأرى ما هناك فاذا جمع كبير من العمال يضطرب ويموج في داخل العنبر حول مصطفى عجوة · فأسرعت لأعرف السبب ودخلت بين العمال كما يدخل الطفل الغرير في المآزق التي لا يعرف خطرها واقتربت من مصطفى عجوة لأسأله ما الخبر · وما كاد يراني حتى ثار ثورة شديدة وجعل يسب العمال ويصرخ فيهم مهددا ، ودفع أحدهم بيده في صدره فاتقدت حماسة زملائه وصاحوا هائجين ورفع أحدهم يده فلطم بها وجه مصطفى وأخذ الآخرون يشتمونه ويلعنونه ·

وزاد مصطفى هياجا وتهديدا وقال انه سيبلغ الأمر الى السيد أحمد جلال ليخرب بيوتهم ·

فما كاد العمال يسمعون ذلك حتى اندفعوا يشتمونه ويشتمون السيد أحمد جلال ثم أخذوا يلكمونه بقبضات أيديهم ويركلونه بأقدامهم حتى كاد يهلك بينهم وهو مع ذلك لا ينقطع عن السب والتهديد وتصايحوا يحرض بعضهم بعضا على تدمير المحلج · فصحت بأعلى صوتى قائلا « اسمع أنت وهو ! » والتفت الجميع نحوى ومضت لحظة هدوء قصيرة انتهزتها لكى أخاطبهم قائلا : ما هذا أيها الاخوان ؟

وكان فيهم وجوه كثيرة أعرفها فأخذت أخاطبهم بأسمائهم فى نغمة عتاب ألين فيها حينا وأعنف حينا وأقبلوا على يشكون لى ما أصابهم من مصطفى عجوة ·

وصاح مصطفى :

ـ أتفتح أذنك لهؤلاء وأنت تسمع شتائمهم ·

واندفع غاضبا يشق الزحام خارجا وهو يهددنى معهم فشيعه العمال بضحكة عالية ساخرة من ألفاظ السباب المقذع · فقلت لهم :

ـ أيليق بكم أيها الاخوان أن تسبوا رجلا غائبا لم يسىء الى أحد منكم ؟ ألا تعرفون عطف السيد أحمد عليكم حتى تجازوه بمثل هذه الشتائم ؟

فصاح أحدهم وهو أكبرهم : هو يسلط علينا شيطانه هذا يعذبنا كل يوم ، ويذلنا و ···

وصاح آخر : وذنبنا أننا فقراء يعنى ؟ وهذا المصطفى العجوة يعاقبنا لأن المطر يؤخرنا فى الصباح ؟

وصاح ثالث : ولو قطع القرشين وذهب فى داهية لكان أهون من لسانه المر · لسان يقطر السم ·

وقال رابع : كل يوم شتيمة واهانة ـ « السيد أحمد يطعمنا والسيد أحمد يكسونا ، كأنه يقول لنا بالسم الهارى » ·

وصاح كبيرهم الأول : أحب أن أفهم الداهية التى يهددنا بها سى مصطفى عجوة كل يوم · هل الدنيا فوضى ؟ نروح فى داهية لأنه يشكونا للسيد أحمد ؟ لأ يا سيدى · نكسر دماغ سى مصطفى ونروح فى داهية بحق ·

وصاح آخر : والدولاب يقطع أجسامنا مجانا · وأولادنا تموت ولا يعجب سى مصطفى أن نحزن · واذا مرضنا رمونا فى الطريق ·

وصاح شاب الى جنبى : وهذا الصبى ما ذنبه ؟ هذا المسكين يقطع منه مصطفى خمسة قروش لأنه تأخر ربع ساعة ؟

وكان الصبى الذى أشار اليه لا يزيد عن طفل فى سن العاشرة ووجهه النحيل الأصفر يزداد اصفرارا من الدموع المنحدرة على خده ·
فناديته ـ تعال يا أخى :

ووضعت ذراعى حول عنقه · وكان منظره محزنا حقا عندما بدأ يسعل وزادت دموعه انحدارا ·

ومسحت على رأسه قائلا :

ـ ماذا جرى لك ؟ ما اسمك ؟

فقال بصوت خافت : عمر ·

فقلت فى عطف : عيب يا سيد عمر · لا تبك كالطفل ·

فقال وهو يجفف دمعه : قطع عم مصطفى منى خمسة قروش ·

فقلت له مضاحكا : فداك يا أخى ·

وكادت الدموع تفر من عينى من أجله · كان جسمه يختلج وهو يسعل كأنه عود فى عاصفة ·

وصاح عامل من الخلف : لو كان الولد يخوفه لقطع منه قرشين فقط · أمه مريضة وأبوه ميت · حظه أسود منيل · يا ابنى الحق بالوالد أحسن من العذاب ·

وساد صمت رهيب على الجميع ومسحت مرة أخرى على رأس الصبى وقلت له :

ـ تعالى معى يا عمر · يلا يا جمـــاعة ، سأذهب الى السيد أحمد وأعتذر اليه بالنيابة عنكم · يلا للغداء وارجعوا لأعمالكم وانسوا هذه الغضبة ·

تعال معى يا سيد عمر ·

وأخذت الصبى فى يدى وسرت وأنا أسمع همهمة خافتة من ورائى ، وتدفق العمال من العنبر خارجين يدعو بعضهم بعضا فى مرح كأن شيئا لم يحدث ·

وفى أثناء السير عرفت من الصبى أن أمه مريضة تسعل وتبصق الدم وهو يشترى بأجره الطعام والدواء ولن يقدر على شراء ذلك بعد خصم القروش الخمسة ·

وكانت الساعة قد بلغت الثانية فأعطيت الصبى ما كان فى جيبى الا قرشين أبقيتهما لأشترى رغيفا وقطعة من الجبن ، وكنت سعيدا عندما نظر الى الصبى باسما ومسح دموعه · المسكين ، اننى ما أزال أتذكر نظرته ·

في الساعة الثالثة عدت الى المحلج وبدأت عملي ونسيت فيه كل ما حدث في ساعة الظهر · ولكنني تنبهت على صوت حاجب مكتب السيد أحمد يدعوني اليه ·

وكانت المسافة بيني وبين المكتب تزيد على مائة متر فأخذت أجمع شوارد أفكارى حتى أحدثه عما وقع بين العمال وبين مصطفى عجوة ليعمل على ازالة ما يدعو الى اثارة نفوسهم عليه وعلى عمله ·

ورأيت مصطفى عجوة واقفا الى جانب المكتب ويداه مضمومتان الى صدره من أمام ولونه قاتم يكاد يكون أسود · وبادرني السيد قائلا :

ـ سلم عهدتك يا سيد أفندى ·

فوقفت أمامه لحظة وأنا دهش كأني لم أسمع قوله · لم أتوقع هذه النهاية في تلك الساعة بالذات ، ولو طردني السيد أحمد في اليوم السابق أو الذى قبله أو في صباح ذلك اليوم نفسه لما وجدت في ذلك شيئا يدعو الى الدهشة أو السخط ، وأما في تلك الساعة فاني أنتظر منه كلمة شكر على ما صنعت له · كان العمال على وشك تدمير المحلج بغير شك لولا وجودى ، ولم يكن فيما فعلت شيء يستحق غير الشكر · أيطردني بعد أن أخمدت ثورة كان يشعلها هذا المصطفى عجوة الواقف الى جانبه ينفخ الهواء من أنفه الضخم ؟ أيطردني لأني أزلت ما في نفوس عماله من الحنق عليه وقلت لهم اني سأعتذر اليه بالنيابة عنهم ؟ ولو كنت عندما ذهبت الى السيد أحمد أتوقع أن يفاجئني بهذه الكلمة بغير مقدمات لأعددت نفسى لذلك وراجعته لأبين له أنه مخطيء أو أن الذى بلغه كذب · ولكنها كانت مفاجأة أحدثت في نفسى صدمة مست صميم كبريائي ، ولهذا أبيت أن أراجعه بكلمة مع اني كنت أقول في سرى « أهذا جزائي ؟ » ·

وأدرت ظهرى له صامتا وخرجت من المكتب لأسلم عهدتي · وما هي عهدتي ؟ بضع دفاتر وأوراق وأقلام ودواة وعلبة نيشان وفرشة بقيت عندى منذ كنت أرقم البالات · هذه كانت عهدتي ، وكان شعورى وأنا خارج من المكتب لا يزيد على شعور رجل تسأله « كم الساعة الآن » لم يكن في نفسى ذرة من الأسف في تلك اللحظة ·

وخرجت من المحلج حاملا معطفى القديم وأنا عالى الرأس يخيل الى أنى أنا الذى أطرد المحلج ومن فيه ٠

وسرت فى الطريق متجها حيث تقودنى قدماى ـ شارع «أبو الريش»، والسوق ، وعرجت الى اليمين هابطا نحو خارج المدينة ، ولما وصلت الى جانب الترعة بدأت أفكر أنى لم أترك المحلج فقط بل قطعت صلتى أيضا بالسيد أحمد جلال والد منى ٠ وسرت أجرر قدمى بقلب مظلم كسير ٠ عند ذلك فقط بدأت أشعر بأنى خسرت خسارة فادحة ٠

وعرجت الى اليمين بغير أن أعرف أن هذا الجانب أفضل من الآخر وكان الجو باردا ولكن السماء كانت صافية والشمس تميل الى الغرب فى موكب رائع من الألوان البديعة ٠ وشعرت بوجهى المتقـــد يلذ مس الهواء وصدرى الضائق يرحب بالهواء الطلق ٠ وكانت الحقول تمتد تحت بصرى خضراء رطبة ترتاح العين الى الانسراح فيها ، وكانت الدواب محملة بأحمال مختلفة ومن ورائها قطعان الماشية تعود الى بيوتها قبل الظلام ٠ فجعلت أنظر اليها متأملا أشكالها وأحجامها وأقايس بين ألوانها وملامحها ، وذهنى يدور كأنه منفصل عنى ٠ هذا شب بقر قوى يظهر عليه العنف وينظر نحوى بمؤخر عينه وبطأطىء رأسه مهددا ، ووجهه يشبه ملامح مصطفى عجوة عندما كان واقفا الى جنب المكتب ٠ وهذا حمار أعجف يحمل حملا ثقيلا من البرسيم ويزحف تحته مطرقا ، ويلوى رأسه لعله يقدر أن يصـــل بفمه الى قضمة من أعواد البرسيم الذى فوق ظهره ، ولكنه لا يصل اليها ٠ ما أشبهه بالصبى المسكين عمر غير أنه لا يبكى ٠ وهكذا سرت هائم الفكر حتى وجدت نفسى مرة أخرى عند كوبرى « أبو الريش » فعرجت الى اليمين وسألت نفسى « الى أين ؟ » ولما اقتربت من الفضـــاء الذى يبدأ منه الطريق الى محلج السيد أحمد جلال كان الظلام قد هبط على الأرض وتبينت فى قرارة نفسى أمنية غامضة وهى أن أصادف السيد أحمد جلال خارجا من المحلج ٠ واقتربت من ركن مســـتور عند مدخل الطريق ووقفت أفكر ، كأنى أريد أن أتذكر شيئا نسيته ٠ ومر وقت طويل وأنا هناك ذاهل عن كل شىء ولا أدرى ماذا أريد ٠ وظهر شخص مقبلا من بعيد فى الطريق المظلم فخطر لى أنه « هو » ٠ لم يعد الأمر خافيا على فانى كنت هناك أنتظر السيد أحمد جلال ٠ وما كان سيرى على الترعة وكل دورانى ولفى الا بقصد خفى أن أعود الى المحلج لعلى ألقى الرجل ٠ ولكن ذلك الشخص لم يكن « هو » فتداريت فى ظل الجدار حتى لا يرانى وبقيت واقفا هناك مستندا الى الجدار وأنا فاتر الذهن لا أدرى الى متى أبقى واقفا هناك ٠ وكدت أثب فى مكانى عنـــدما رأيت السيد أحمد يخرج من باب المحلج فى الموعد الذى تعود أن يذهب فيه الى بيته ٠ ولما اقترب منى أسرعت اليه كما يسرع الصديق الى صديقه يحاول أن

يزيل عنه جفوة طرأت على علاقتهما · ولم يظهر على وجهه عندما رآني شيء يدل على الغضب او الرضى أو الدهشة كأنه كان ينتظر أن يجدني هناك · وسلم على في بساطة قائلا : « تعال معى يا سيد أفندى » · فخفق قلبي سرورا واستبشرت بكلمته ، وسرت وراءه بخطوة قصيرة ، ولكنه دعاني لأسير الى جنبه · وتمنيت بكل قلبي أن أقدر على ازالة ما عنده من الغضب على ولم أشعر بشيء من الذلة أو الامتعاض لأني كنت عالما أني بريء وأنه لم يعرف حقيقة ما عندى ·

ولما وصلنا الى البيت دخلنا الى غرفة المكتب ، وأخرج السيد أحمد سيجارة فأشعلها ثم جلس وأشار الى كرسى قريب منه لأجلس عليه · ثم صفق وأمر الخادم أن يأتى لنا بفنجانين من القهوة ·

ثم التفت الى قائلا :

ـ هيه يا سيد أفندى ·

فقلت في تردد :

ـ لست أدرى السبب في طردى يا سيدى ، ولم أجرؤ أن أراجعك عندما كنت غاضبا · والحق أن دهشتي أيضا جعلتنى لا أفكر في مراجعة · ولكنى من حسن حظى أنى أمر من هنا في اللحظة التى تخرج فيها من المحلج ·

واحمر وجهى عندما قلت هذه الكذبة ولكنه كان ناظرا الى الأمام مستندا بظهره على الكرسى الطويل فلم ينظر الى وجهى ·

وقال في بطء :

ـ المسألة بسيطة يا سيد أفندى ·

فقلت في سرى : بسيطة !

وخفق قلبى عنيفا · انه هادىء كأنه جدار مصمت ! وقلت له متمالكا نفسى : هى طبعا بسيطة ، ولا ينبغى أن تؤثر في مودتى لك ، ولكنى لا أعرف السبب في طردى · لا أعرف سببا يدعو الى غضب في هذا اليوم بالذات ، لأنى كنت لا أنتظر فيه الا الشكر · اظنك لم تعرف أنى وقفت حائلا بين العمال وبين تدمير المحلج ·

فرفع حاجبيه وهو يلتفت الى قائلا : تدمير المحلج ؟

فقلت في حماسة : نعم تدمير المحلج · ولست أعجب لأنك لم تعرف الحقيقة لأن مصطفى عجوة يتعمد دائما أن ينقل اليك أخبارا مشوهة عنى ·

ونظرت الى وجهه لعلى ألمح عليه شيئا يدلنى على حقيقة شعوره،ولكنه كان هادئا كالصورة المعلقة أمامى على الجدار ٠

واخذت أصف له ما حدث بين مصطفى عجوة والعمال فى ساعة الظهر وما حدث منى حرفا حرفا وختمت حديثى بعبارة حماسية فقلت : انى كنت مدفوعا الى تدخلى بشعورى القوى نحوه وبأنى أؤدى واجبى نحو رجل أحبه وأحترمه ٠

شعرت بالدم يثور فى وجهى مرة أخــرى عندما وجدت أنه ما يزال هادئا ٠

وجاء الخادم يحمل فنجانين من القهوة فأخذ يرشف من فنجانه وقال لى : تفضل !

ولكنى شكرته ومضيت فى كلامى :

ـ لهذا لم أتوقع منك أن تطردنى وكانت دهشتى عندما سمعتك تقول لى سلم عهدتك أشد من أن أحاول الدفاع عن نفسى ٠ والحق أنى ايضا أخذت على خاطرى ٠ ولست أريد بكلامى هذا شيئا أكثر من أن اعرف السبب فى غضبك لأن الذى يهمنى هو العلاقة التى بيننا ٠

فنظر نحوى باسما لأول مرة ٠ ولكن ابتسامته كانت تحمل معنى كأنه يقول : « وما هذه العلاقة التى بيننا ؟ » ٠

واعتدل فى جلسته فصار أكثر هدوءا كأنه قط يرقد على فراش وثير ٠

وقال بصوت خافت : لم أكن أعرف من قبل أننى مهدد بكارثة ٠ هذا شىء جديد يا سيد أفندى ٠ ومع ذلك فلماذا لم تدع العمال وشأنهم ؟ لم تكن لك علاقة بأعمالهم يا سيد أفندى ٠ دعهم يا أخى يثوروا اذا شاءوا ويدمروا المحلج ، وأنا أعرف كيف أعاملهم ٠ كنت دائما أعرف كيف أعاملهم قبل أن تشرف المحلج ٠

واحسست بالعرق ينضح من جسمى كأن اناء من الماء البارد صب فوق رأسى ٠

واستمر قائلا : لا تغضب من قولى يا سيد أفندى فأنت مثل ولدى وكنت أرجو أن تشق طريقك فى الحياة معى ٠ لا أنكر أنك أمين وذكى وأنا أقدرك وأحبك وأعرف أنك من بيت طيب ٠ كنت أود لو بقيت معى حتى تقدر أن تشتغل بعمل ينفعك هنــا أو غير هنيا ٠ وكنت أحب أن تفتح عينيك للحقائق وتتعرف أمور الدنيا لأن التجارب هى التى تعلمنا ٠ كنت أتمنى أن تبقى معى وتتعلم كما يتعلم هؤلاء جميعا حتى تصير مثــل مصطفى عجوه ٠

وكانت هذه الكلمة الأخيرة فوق طاقتى فقلت مندفعا :

ـ اسمح لى أن أقول انى لا أرضى بأن أقارن بمصطفى عجوه ٠

فرفع حاجبيه وتبسم قائلا :

ـ لست أبالى ما يقع بين بعض الموظفين وبعض من هذه المنافسات ، ولا أحب أن أفتح أذنى لها ٠ هذا شىء طبيعى ولا أعيره التفاتا كثيرا ٠ والذى أقصده أنى كنت أود لو بقيت معى حتى تطمئن على مستقبلك ٠ هذا كل شىء ٠

وسكت لحظة ثم اتسعت بسمته وهو يقول :

ـ ولكنك يا سيد أفندى تريد أن تقفز دفعة واحدة ، فى وثبة واحدة ٠

وطقطق باصبعيه محركا يده الى فوق ٠

واعقب ذلك بضحكة عالية لأول مرة ٠

وخطر لى أنه يلمح الى الأقوال التى سمعها من مصطفى عجوة عن تطلعى الى منى ٠ فثارت كبريائى وقلت مندفعا :

ـ أتقصد يا سيدى أنى غير جدير بأن أتطلع الى أعلى ؟

فقال متراجعا : أبدا ! لا أقصد أكثر مما يفهم من كلامى ٠ لست أقصد أكثر من أنك تندفع يا سيد أفندى ٠ أنت جدير بأن تتطلع كما تشاء ولا حق لأحد فى منعك من شىء ٠ ليس هذا موضوع الحديث يا سيد أفندى ٠ وأنا أرجو دائما أن أسمع عنك ما يسرنى ٠

وأحسست أكثر من قبل بأنى أصطدم فى جدار مصمت ٠ وبدأت أثور فى داخلى لأنه لم يترك لى فرصة للأمل فى مصافاته ٠

وقلت فى شىء من العنف :

ـ أشكرك على كل حال يا سيدى وأنا مسرور من أنى أديت نحوك واجبى كاملا ٠ ويزيدنى سرورا أن أشعر بأنك لم تنصفنى ٠ لست أنسى أن أشكرك على كل ما سمعته منك وعلى كل ما لقيته من عطفك ومساعدتك ٠ لست أنسى أنك مددت الى يدك عندما كنت صغيرا لا أجد أحدا يمد يده الى ٠ ولكن أحب أيضا أن تعرف أنى لست أقل من أحد ٠ هذا ما أشعر به فى قرارة نفسى ٠ واذا كنت أتطلع الى فوق فليس هذا أكثر مما ينبغى لى ٠

وقمت لأنصرف ونظرت الى وجهه فى ثبات فوقعت عينى فى عينه ولمحت أن نظرته لم تثبت أمامى • ولأول مرة منذ عرفته رأيت عليه شيئا يشبه الحيرة أو الارتباك ولكنه لم ينطق بكلمة • فرفعت يدى مسلما عليه من بعيد قائلا :

ـ لعلنا يا سيدى نلتقى فى أوقات أخرى أكثر مودة ، الى اللقاء يا سيدى •

وخــرجت بغير أن أنتظر وتعمدت أن أرفع رأسى وكنت فى تلك اللحظة مملوءا بالثقة والاطمئنان • ولما وصلت الى قريب من باب الحريم لم أملك أن أنظر نحــوه نظرة متلهفة كأنى أودعه ، وثارت فوق عينى غشاوة من الدمع وقلت فى نفسى : « أحقا هذه آخر مرة أقترب فيها من هنا ؟ » •

وعدت الى بيتى فأخبرت أمى بما حدث فلم أسمع منها الا دعــوة طيبة ، وكانت فى تلك الليلة أكثر مرحا واستبشارا مما أنتظر • وأخذنا نتحدث فيما أعمل بعد ذلك ، فلما قلت لها أنى أعتزم التجارة أظهرت لى رضاء متحمسا وكررت دعاءها الى الله أن يوفقنى • وكانت ليلتى هادئة على غير انتظار ، بل انى رضيت عن الظرف الذى اضطرنى الى قطع صلتى بالعمل فى المحلج ورأيت أنه جعلنى أقدم بغير أسف على الخطوة التى فكرت فيها مرارا بغير أن أجرؤ على أن أخطوها • سأذهب فى اليوم التالى الى السوق لأجرب حظى • ولكن شيئا واحدا كان يعكر شعورى بالرضا ، وذلك أنى قطعت ما بينى وبين والد منى • لم أعترف فيما بينى وبين نفسى أن هذا آخر العهد بيننا ، وكان تحت كل مشاعرى أمل غامض أن أستطيع فى يوم من الأيام أن أعود الى السيد أحمد جلال قائلا له «أنا سيد زهير» •

وكان اليوم التالى سوق قرية الدلنجات فعزمت على أن أقوم مبكرا لآخذ قطار الصباح ، ولو على سبيل التجربة لأرى شئون الأسواق وأجس المخاضة قبل أن أنزل فى الماء • وفى الصباح الباكر أخذت معى كل ما كان معى من النقود التى ادخرتها طوال السنوات الماضية لأبدأ حياتى كما بدأ السيد أحمد جـلال حياته • وكان الظـلام ما يزال حالكا تحت السماء القاتمة •

ولا يمكن أن أصف شعورى عندما شممت رائحة الهـواء الرطب وسرت فى الطريق الصامتة عالما بأن الناس ما يزالون نياما فى فراشهم • وكان المطر قد سقط فى الليل غزيرا وتجمعت منه بركة واســعة تملأ الطريق الى المحطة فخضت فيها لأنى لم أجد جانبا جافا من الطريق أسير

فيه ، وكان حذائى قديما له رقبة خففت البلل عن قدمى بعض الشىء ٠ ولما قربت من ضريح سيدى (أبو طاقية) قرأت الفاتحة كما كنت أفعل منذ طفولتى عندما كنت تلميذا فى المكتب المسمى باسمه ٠

ولم أقدر أن أصل الى المحطة الا بعد ربع ساعة مع أن المسافة لم تكن أكثر من ثلثمائة متر ٠ وكانت عربة الدرجة الثالثة مزدحمة ليس فيها موضع لقدم ، فاضطررت الى الجلوس على طرد فى الممر بين المقاعد وكان طرد قماش لأحد التجار الذاهبين الى سوق الدلنجات ٠

وكنت لا أعرف من المسافرين الا عددا قليلا أميزهم بوجوههم ولكنى دهشت عندما جاء حمادة الأصفر قبل قيام القطار بدقيقتين ٠ فجاء يتخطى الطرود فى الممر حتى جلس على طرد قريب منى وحيانى قائلا :

ـ صباح الخير يا سيد أفندى ٠

ولم يخل جوابى من التعبير عما هجم على من الضيق عند اقترابه منى ، وكان فى يده رغيف مقدد من أرغفة دمنهور المنفوخة وقد أكل أعلاه وبقى أسفله فى يده مثل الطبق وبه قطعة جبن قديم أغبر اللون ٠

وقال لى وهو يمضغ :

ـ الى أين العزم ؟

فالتفت اليه فى شىء من الرثاء والتقزز معا وقلت فى احتقار :

ـ الدلنجات ٠

وبدا لى أن المسكين قد زاد نحولا واصفرارا وكانت حول عينيه دائرتان خضراوان ووجهه المنقط بالنمش الأسود يشبه خرقة قذرة ٠

وقال فى صوت خافت :

ـ الى السوق ؟

وهممت أن أصده بكلمة جافية ولكن منظره جعلنى أمتلىء شفقة وقلت له :

ـ نعم ٠ وأنت ؟

فقال : استرزق ٠ ربك كريم يا سيد أفندى ٠

وكان ركاب العربة فى هذه الأثناء يختلسون النظرات نحوى ويتكلمون بأصوات خافتة ، ثم استرعى سمعي ضحك عال ينبعث منهم عندما قال أحدهم :

ـ قوموا بنا لنبيع التذاكر ونعود يا عم على ٠

فرد عم قائلا : ربك يستر يا شيخ عفيفى ، ويجعل الدور على المميز ٠

وعلت ضحكة أخرى أطول من الأولى واستمر الركاب ينظرون نحوى ويتهامسون وسألنى حمادة قائلا :

ـ ماذا تريد أن تشترى ؟

فقلت له فى شيء من المباهاة : قطن طبعا ٠

وسمعنى أحد الركاب وكان الى جانبى فصاح قائلا :

ـ أبشروا يا جماعة ٠ فرجت ! الأفندى تاجر قطن !

فصاح الشيخ عفيفى : أبشر يا عم على ٠

فقال الشيخ على : قلت لكم من الأول ٠ الأفندى أكبر من البيض والفراخ ٠

وعاد الضحك وصار عاما ، وشاركت فيه لأنى بدأت أفهم سبب التهامس والمزاح ٠ وأخذ الجميع يتحدثون عما حدث فى يوم الثلاثاء الماضى عندما جاء أفندى من الاسكندرية واشترى كل ما كان فى السوق من الدجاج والبيض بأثمان عالية لأنه من الموردين للجيوش ، ولهذا لم يقدر عم على والشيخ عفيفى على شراء شيء منها وهما من تجار الدجاج ٠ فلما رآنى الركاب حسبوا أنى أفندى آخر جئت لأزاحم فى شراء الدجاج والبيض كما فعل الآخر وكانوا يتبادلون الفكاهات عنى وأنا غافل ٠ وكانت هذه الغلطة موضوعا جديدا للفكاهة استمر الركاب يتناقلونه مدة طويلة فسهل علينا قطع الطريق ٠

وسألنى جارى عن اسمى،فلما قلته له عرف أبى وأخذ يترحم عليه، وبدأ الآخرون يتوددون الى عندما أخذ جارى يعرفهم بأبى ويذكرهم به ٠

وأخذنا نتحدث معا عن الأسواق وأسرارها فتلقيت فى هذه الجلسة أول دروسى فى تجارة الأسواق وخرجت بفوائد لا تتاح الا لمن يتبادلون أنفاسهم مع الناس،ويعرفون من الحكم ما لا تعلمه لهم القراءة أو التأمل٠ وعزمت فيما بينى وبين نفسى أن أحفظ ما أسمع من هؤلاء الذين لا يتلقون ما يقولون عن أحد ٠ ان كل كلمة يقولونها تصدر عن حكمة متواضعة لا تدعى الحكمة،وهى التى يتعلمونها من وخزات الحوادث وغمرات المآزق ٠

وبلغنا الدلنجات آخر الأمر ، ونزلنا نتدفق من العربة الى الفضاء الواسع متجهين الى السوق ، وكل منا يحمل فى يده ما أعده للبيع أو للشراء ، وكنت لا أحمل فى يدى الا ميزانا فى كيس من أكياس الجيش ٠

وكان منظر هذا الجمع الكبير وهو يتجه فى صف طويل أشبه بمنظر الجيش الزاحف ·

وكان حمادة يجتهد أن يبقى قريبا منى مع أنى تعمدت ألا ألتفت اليه عندما نزلت · وكان يحمل على كتفه كيسا لا أعرف ما فيه ، وينظر نحوى فى شىء من التردد كأنه يريد أن يجد سبيلا الى أن يلاطفنى · ولما لم يجدنى التفت اليه تجرأ وقال لى :

ـ ألست فى حاجة الى من يساعدك يا سيد أفندى ؟

وكان فى صوته انكسار زادنى اشفاقا عليه وقلت له : فى أى شىء يا حمادة ؟

فشجعه جوابى واقترب منى قائلا : فى أى شىء ، أحمل لك ما تشترى أو أساعدك فى الشراء ، وأنا خبير بالأسواق ·

ثم همس قائلا :

ـ ومن أجل مساعدتى أيضا ، فوالله انى لم آكل منذ الأمس الا هذه اللقمة التى رأيتها فى يدى ·

فقلت له عاطفا :

ـ وهل تجىء الى السوق فى مثل هذا الصباح بغير وجهة ؟

فقال :

ـ وماذا أعمل ؟ أقصد باب الله يا سيد أفندى · هو العمل الذى أقدر عليه ما دام الناس لا يريدون أن أعمل معهم · كل من أعمل عنده يطردنى · لماذا ؟ لا أدرى · نحس · شؤم · بختى زفت ·

فقلت باسما : وتريد أن تجرب حظك مرة أخرى معى ؟

فقال : خليها على الله ! والله يا سيد أفندى هو البخت · لكن يمكن · يمكن بختك يغلب يا أخى · جرب يا سيد أفندى · والله كلهم كسبوا وربحوا معى ولكنى منحوس · فازوا بالمكاسب وطردونى ·

مد يده الى ليأخذ منى الكيس الذى حملت فيه الميزان فقبضت ذراعى وقلت له :

ـ هذا ميزانى وأنا أولى بحمله · أين موضع السوق ؟

فقال : ألا تعرفه ؟ تعال من هنا ·

وكنا قد بعدنا عن المحطة مسافة تقرب من مائتى متر ·

فسألنى : كم معك ؟ ولا مؤاخذة فى السؤال يا سيد أفندى ·

فقلت فى شىء من الخجل : عشرون جنيها ٠

فجذب يدى واتجه بى الى جهة الطريق الزراعية الى يمينى وقال :

ـ وهل تريد ان تذهب الى السوق ٠ تعال الى هنا ٠

وسار بى على الطريق حتى بعدنا عن القرية بنحو خمسمائة متر ووقف لحظة يتلفت حوله ثم اتجه الى شجرة على جانب الطريق وقال :

ـ ها هنا موضعنا ٠

فقلت فى دهشة : ماذا تريد ؟

فقال : هنا موضعنا ٠ نجمع من الفلاحين بالرطل والرطلين والعشرة ٠ هنا تجارة الأمانة ٠ انصب ميزانك هنا ٠ بعشرين جنيه وتريد الذهاب الى السوق ؟ هل عندك كيس ؟ انتظر ٠

وحل الكيس الذى معه فأخرج منه كيسا كبيرا من أكياس القطن الفارغة وفرشه على الأرض وأخذ منى الميزان فنصب قوائمها وعلقها ٠

وكانت الساعة تبلغ السابعة من الصباح عند ذلك وقد تحول الجو الى صحو صاف ، ولمعت الشمس فوق الأفق وكان الفلاحون يتسارعون على الطريق ، بعضهم يسير على قدميه وبعضهم يركب ، وكل منهم يحمل بضاعته ٠

وقال حماده : أجلس أنت هنا كالأمير ودعنى ٠

ثم ذهب الى وسط الطريق وأخذ يصفر صفيرا عاليا بمهارته التى عرفتها منه فلم أستطع أن أقاوم الضحك واستمر بعد ذلك يصفق ويصيح قائلا :

ـ هنا تجارة الأمانة ! هنا تجارة الأجواد ! هنا تجارة سيد أفندى زهير !

وكان الفلاحون ينظرون اليه فى دهشة ثم يقفون حوله فيشير لهم نحوى ٠ وقمت الى ميزانى فسويته واتخذت هيئة التاجر المجرب فكل من أتى الى بما معه من الأرطال وقفت أنظر فيها وأقلبها ثم أزنها وأكتب الوزن على ورقة وأكتب أمامها اسم صاحبها ٠ ثم يجىء حمادة فيفحص مرة أخرى ويساوم فى الثمن حتى يرضى البائع فأصرف له النقود ٠

ولم تمض الا ســـاعة قصـــيرة حتى فرغت نقودى ولم يبق معى الا ما يكفى للعودة بما اشتريناه الى دمنهور ٠ وأخذ حمادة يعد الكيسين الذين معه ليعبىء فيهما القطن واستأجرنا عربة لتحمله الى المحطة واستطعنا

أن نعود ببضاعتنا الى دمنهور فى قطار الظهر . وهكذا مر اليوم الأول من تجربة حظى فى التجارة مع حمادة الأصفر وكان ربحنا فيه عظيما لا يقل عن خمسة جنيهات فوق كل ما صرفناه فى سفرنا وأجرة النقل وثمن الأكياس . وكان حمادة سعيدا فى آخر النهار عندما أعطيته خمسين قرشا ، ولم يتركنى حتى تعاهدنا على أن نذهب معا فى كل مرة الى أسواق القرى المجاورة .

وكان سرور أمى من هذه المغامرة الأولى عظيما وقالت توصينى بحمادة : تمسك بهذا المسكين فمن يدرى يا ولدى . لعل هذا رزقه .

- ٦ -

مر ما بقى من موسم القطن فى ذلك العام وأنا دائب على الذهاب الى الأسواق المحيطة بدمنهور فى صحبة حمادة ، نشـــترى دائما على طريقته ثم نجمع ما نشترى ونحمله على عربة نسير الى جنبها حتى نصل الى أقرب محطة للقطار فنرسله منها الى دمنهور . وكان حمادة يتفنن فى وسائل الاعلان واجتذاب الأنظار ، وكان هو بشخصه علما يســترعى الأبصار والأسماع بقامته القصيرة وصفيره العالى وتصفيقه وفكاهته ، وصرنا بعد قليل من أشهر من يرتاد الأسواق وأصبح اسم سيد زهير وتجارة الأمانة والأجواد مما يجرى على ألسنة أهل القرى وان كان متجرنا فى كل مرة لا يزيد على ظل شجرة على جانب الطريق . واستطعت أن أقتصد من أرباح هذه التجارة أكثر من مائتى جنيه فوق الجنيهات العشرين التى كانت معى من قبل ، بعد كل ما أنفقته على البيت حتى حل الموسم الجديد . ولا شك فى أن الفضل الأكبر فى نجاحى هذا يرجع الى حمادة ، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم أصادفه فى أول يوم على غير موعد .

وما أجدر هذه الانسانية الضعيفة أن تتواضع وتعرف موضعها من المقادير ، وما أكثر الأدلة التى تدلنا على أن النجاح والاخفاق يتوقفان على عوامل عدة أقلها ارادتنا . وكان حمادة مادة غزيرة للتأمل فى ذاته ، فكنت أراه وأستمع اليه كأنه كتاب حى من الكتب الصفراء القديمة التى تحتوى على كنوز من المعارف . فهو يعرف الناس ويتعمق حقائقهم بفطرته الساذجة التى لا تخدعها مظاهرهم ولا يضللها ما تعارفوا عليه من المعايير التى خلقوها لأنفسهم . وقد حيرنى منه أنه لم يستطع أن يشق له طريقا فى التجارة ويستقل بنفسه فيها مع أنه كان بغير شك صاحب الفضل فى كل نجاح أصبته فى تجارتى . وقد سألته يوما فى ذلك فلم يقل سوى أنه مولود فى ساعة نحس .

فقلت ممازحا : جرب معى حظك وابدأ بمشاركتى .

فقال ساخرا : قلت لك دعنى ولا تخاطر بنفسك .

فقلت : أنا قابل يا حمادة : فلا تخف .

فاجاب : لا تحـــاول اغرائى · جربت حظى مرة بعد مرة وكانت النتيجة واحدة · ألست تؤمن بالأقدار والحظوظ يا سيد أفندى ؟ ذهبت مرة الى منجم هندى ليكشف لى عن حظى فلم يقل لى الا كلمة واحدة معناها انى منحوس مؤبد · شاركت مرة عطارا فاحترق المخزن كله ، وشاركت جزارا فقطع اصبعه ، فى أول يوم ، وشاركت فى قهوة فمات صاحبها بالسكتة القلبية بعد أسبوع · واذا أردت أن تعرف رأى الناس عنى فاذهب الى شارع السوق وقف بين المارة واسأل ما رأيكم فى شركة حمادة الأصفر ، فانهم جميعا يجيبون بصوت واحد انها شركة مشئومة ·

فلم أملك نفسى من الضحك وقلت له : سأخاطر معك برغم كل هذا . وسيكون ربحنا مناصفة ·

فقال : ليس معى نقود ·

فقلت : أسلفك اذا أردت ولك أن ترد لى دينك من الربح ·

فقال : واذا خسرنا

فأجبته : ننتظر حتى نربح ونعوض الخسارة ·

فهز رأسه قائلا : لا يا عم لا شأن لى بالمشاركة · لا شأن لى بالربح ولا بالخسارة ، ولم أطلب منك أن تدخلنى فى شركة ·

ثم فرك اصبعيه يشير الى طلب النقود ·

وكانت هذه عادته منذ انتهى الموسم،اذ كان يعود الى بين حين وآخر يطلب المساعدة ، فكنت أعطيه فى كل مرة جنيها أو نصف جنيه مع أنه أخذ نصيبه من الربح ستين جنيها فى أربعة أشهر ·

وقد سألت نفسى مرارا ما الفرق بين حمادة وبين السيد أحمد جلال فكنت أعجب من المقارنة بينهما · لقد عرفتهما وخبرت أحوالهما وتبينت مقدار ما عند كل منهما من الذكاء والمقدرة ولو سئلت عن رأيى فى أيهما أصفى جوهرا لما ترددت فى أن أقول انه حمادة · هو الأذكى وهو الأعمق وهو الأكثر تفننا · ولكن الذى جعل أحدهما فى طرف والآخر فى الطرف الثانى هو عنصر آخر أهم من الذكاء والعمق والتفنن ، وهو عنصر خفى مثل أرواح العطور وأسرار الحياة الغامضة ، لا يتيسر للانسان أن يصفه لأنه لا يقدر على تحديده·ولكن شيئا واحدا كان يظهر لى واضحا وهو أن حمادة كان ينطوى فى داخله على أنواع من المخاوف لم أستطع كشفها · ولما فرغت من مشاغل الأسواق عدت الى عزلتى ولا أخفى أننى شــعرت بكثير من الارتيـــاح لأنى تخلصت من صحبة حمــادة مع كل ما كنت أحسه نحوه من الرحمة · وكان فراغى من مشــاغل الأســواق

يجعلني أفرغ الى أحاديث كثيرة مع نفسي وكانت كلها تدور حول صورة واحدة (مني) ·

وبدت لي الشهور التي مضت على منذ خرجت من خدمة السيد أحمد جلال كأنها دهر طويل من السنين · كيف نقيس الزمان نحن معاشر البشر ؟ اننا نقيسه بالساعات والأيام والسنين مع أن هذه كلها أخيلة لا تدل على حقيقة خارج نفوسنا ·

ولا أستطيع أن أصف الحرقة التي كانت تشمل قلبي كلما تصورت اني فقدت كل أمل في رؤية مني · ومع ذلك فقد كنت أجادل نفسي واتهمها بالحماقة والسخف فأين أنا وأين مني ؟ كنت أكره أن أقول في نفسي « من أنا ؟ » ولكنني كنت مع ذلك أقول ذلك وأجد له مذاقا كالحنظل · وكنت أكثر من الخروج الى أطراف المدينة واستصحب ما أريد قراءته من الكتب طامعا أن ألهو بذلك عن التفكير في (مني) ولكنني كنت دائما أشرد اليها ولا أطيق الاستمرار في القراءة لأن صورتها كانت تتمثل لي في كل سطر وراء كل خاطرة · وكنت يوما جالسا في قهوة تعودت أن أعرج عليها عند أطراف المدينة ومعي كومة من الصحف والمجلات وأخذت أقرأ لألهو عن أحاديث نفسي بتلك الأخبار التي اعتادت الصحف أن تضع لها العناوين الضخمة ذات اللون الأحمر · وأي شيء أحق بأن يتسلى به الانسان من السخرية ؟ ان السخرية هي ملجأ الأشقياء اذا أرادوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين الموت كمدا · كانت الأخبار كلها تنطق بأننا منهزمون في كل مكان ، سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، ومع هذا كان السادة على أحسن ما يكون الناس رضاء عن نافسهم ، ورضاء عن الحياة · ها هو ذا وزير يقيم حفلة ساهرة تشغل أخبارها الصفحة الأولى من الجريدة العظمى ، لأنه بلغ الخامسة والسنين من عمره المبارك · وها هو ذا احتفال آخر بزواج ابنة الثرى الكبير المعروف وفيه تدفقت الشمبانيا في القصر الشاهق حتى أغرقته بالمرح · هكذا تقول الجريدة بغير خجل · وهذا خبر ثالث أكثر جدا وصرامة لأنه احتفال حزب كبير في عاصمة مديرية كبرى تعالت فيه الأصوات بالحماسة · الوطنية ، ولكنها كانت واأسفاه لا تزيد على الحماسة في المناداة بسقوط الحزب المنافس ومن فيه من الزعماء · هكذا كان الحزب الأصفر يتحمس في المناداة بسقوط منافسه الحزب الأخضر في القسطنطينية عندما كان محمد الفاتح العثماني على أبوابها · وفي صدر الصفحة الوسطى كتبت بشرى بعنوان ضخم تقول ان ميادين المدينة ستضاء بعد يومين بالأنوار الساطعة احتفالا بعيد الدستور ، وستعطل المصالح الحكومية وتفتح سجلات التشريفات في القصر ليذهب المهنئون من العظماء ويكتبوا بها أسماءهم تأدية لواجب الولاء للملك الذى لم يدع برلمانا واحدا يسقط

وزارة .. وتعجبت ماذا يفعل الناس بهذه الأنوار كلها اذا ارادوا أن يبتهجوا بالعيد حقا · انني أرثي للفراش كلما رايته يقذف نفسه على الأنوار التي تحرقه · وأخذت أقرأ كل ما امامي من الأخبار حتى الوفيات الى أن رأيت اعلانا عن آخر موعد للتقدم لامتحان البكالوريا ، وهو يوم الأحد المقبل · فذكرني هذا الاعلان بحياتي الماضية وأخذت أعد الساعات التي مرت على بعد ترك المدرسة · سبع سنوات كاملة لم أشعر بمرورها كأنها قطعت من حياتي · ولو كنت واصلت الدراسة لكانت هذه السنوات كفيلة بأن تجعل مني شخصا آخر في نظر نفسي وفي نظر غيري · ولكن ماذا أصبحت بعد هذه المدة ؟ كنت واقفا في مكاني كأني اقفز الى أعلى ثم أسقط حيث كنت واقفا · ولو كنت مثل زملائي الذين واصلوا الدراسة حتى حصلوا علي الشهادات العليا لكنت أذهب الى السيد أحمد جلال لأقول له « أنا سيد زهير ! » ·

وقمت من القهوة ضائقا بنفسي فعدت الى منزلي وأغلقت على الباب وجعلت أقرأ قصة انجليزية بدأت في قراءتها منذ ليلة ، ولكني لم أفهم منها شيئا وكان ذهني يشرد برغمي عائدا الى فكرة البكالوريا · وجئت بالجريدة فأخذت أقرأ اعلان الامتحان مرة أخرى ووقفت عند آخر موعد لتقديم الطلبات · هو يوم الأحد ولم يبق عليه الا الجمعة والسبت ، ولا ينبغي أن أعد الجمعة لأنها عطلة · وقمت الى مكتبي فأخرجت بعض الكتب الدارسية وأخذت أنتقل بينها قارئا من هنا ومن هناك حتى ثقلت عيناي ودارت رأسي وتثاءبت ولكني عندما أردت النوم لم أستطعه ومضيت في تفكيري : « ماذا أفعل اذا أردت التقدم للبكالوريا ؟ » بل اني سبحت في الأفكار وأخذت أحسب ما أحتاج اليه من المصروفات في الجامعة لو دخلت الامتحان ثم نجحت في البكالوريا · وتسلل النوم آخر الأمر الى جفني حتى استيقظت في الصـــباح وأنا عازم على أن أتقـدم لذلك الامتحـــان ·

وتذكرت أن لي صديقا قديما من زملائي أصبح مدرسا في المدرسة الثانوية بعد تخرجه من كلية الآداب ، وكنت أراه من بعيد في الطريق في بعض الأحيان ولكني كنت أطيع دفعتي الغريبة فأعرج الى أقرب عطفة حتى أتحاشى مقابلته · وكان أول ما خطر لي أن أذهب اليه لأطلب مساعدته على التقدم للامتحان · وشعرت بالخجل من نفسي اذ لم أفكر في زيارته الا عندما اضطرتني الحاجة اليه ، ولكني عزمت آخر الأمر على أن أجمع عزيمتي وأطرد التردد وأذهب اليه ·

وعبد الحميد عباد ـ ذلك الزميل القديم ـ شاب جمعتني به صلة وثيقة في أيام التلمذة ، وهو من أبناء دمنهور وكان والدانا صديقين

ويدخل كل منا بيت صاحبه كأنه أحد افراد أسرته · ولم أشعر لمقاطعة احد من زملائي القدامى بما شعرت به من الأسف لمقاطعته·وكثيرا ما حدثت نفسي أن أذهب اليه لأعاود مودته معتذرا عن مجافاتي له ولكن الكبرياء حالت بيني وبين ما حدثت به نفسي · وكان من الممتازين في قوة التفكير وكثرة القراءة ، وان كان من أكثر التلاميذ انزواء · كان لا يشارك في الألعاب ولم يكن له نصيب من الظهور في محافل أواخر الأعوام ، وكنا لهذا نعرفه باسم الفيلسوف لا تكريما له ولا تقديرا لذكائه بل تفكها يقرب من أن يكون سخرية · وكان يتخذ لنفسه آراء يتمسك بها ولا يقبل فيها جدالا ، وكثيرا ما انتهت مناقشاتنا معه الى المشادة أو المنافرة · وكان في أثناء الدروس لا يقبل من المدرسين قولا حتى يناقشه ويحلله ، ولا يبالي ما يؤدي اليه ذلك من ضيقهم به في بعض الأحيان · وكنا نقول فيما بيننا انه من أتباع الحزب الوطني وان كنا لا نعرف حقيقة مبادىء الحزب الوطني ، وكان هادىء الطبع في أكثر أحواله ، فاذا تحمس في مناقشة سياسية تدفق وتهور وغضب واعتزل أصحابه يومين أو ثلاثة أيام في كل مرة قبل أن يستعيد سماحته ووداعته · وعزمت على زيارته في الصباح وكان اليوم جمعة ، ورأيت أن أختصر الطريق الى بيته بأن أعبر شريط السكة الحديدية من جنوب المحطة وراء مخازن البضاعة ، وكانت تلك الطريق تربة متعرجة تمر بين المقابر ، ولكنها توفر في السيرة دورة طويلة تشبه نصف دائرة · ولما وجدت نفسي بين المقابر تذكرت أن أزور مقبرة أبي وكنت منذ وفاته أتحاشى الاقتراب منها مدفوعا بشعور الطفولة بغير تفكير · ولما وقفت الى جوار القبر غمرني حنين شديد وانهمر الدمع من عيني بحرقة بالغة وهجمت على موجة من الأسف والندم على أني لم أذهب كل تلك السنوات لأزور ذلك الوالد العزيز وأترحم عليه وأذرف عنده دموعي ، وهو الذي كان يملأ حياتي بهجة وأملا · وتذكرت وأنا واقف هناك ذلك اليوم البعيد الذي سرت فيه ذاهلا مع الموكب الحزين لأودع جثمانه ، وعاد الى الشعور باللهفة التي أحسستها وأنا أراه محمولا الى الحفرة ليدفن فيها · كنت عند ذلك أتمنى لو بقيت معه ونازعت من حولي لأتمسك به ، اذ خيل الى أن الحياة بغيره تكون موحشة خاوية مخيفة · وأخذت أقرأ الفاتحة مرة بعد مرة وأنا في غمرة من الحزن ، وقرأت ما تذكرته من الآيات الأخرى ، ووجدت في ذلك راحة لا أقدر على وصفها· وخيل الى في تلك اللحظة أن قرحة في داخلي تندمل وأنني أحس روحه تخاطبني قائلة « ان الحياة تناديك يا ولدي ! » · ولأول مرة منذ فقدته تبين لي أنني ما أزال متصلا به بعد الموت وأنه يهتم بي ويباركني · كان كياني كله ينبض بشعور مبهم بأن الحياة وديعة فينا وأنها متصلة بالأجداد من قبلنا ومتصلة بالحفدة من بعدنا ، وأنها واجب مستمر علينا أن نؤديه

اذا أردنا أن نشارك في تحمل أمانتها • ومضيت بعد حين عن القبر وقلبي يعاهدني على أن أؤدي واجب حيـــاتي ، فلما سرت في طريقي الى بيت عبد الحميد عباد كنت أحس بأن شيئا كبيرا تغير في نفسي •

واستقبلني عبد الحميد كما عرفته في سماحته ووداعته وجلسنا ساعة نتذاكر أيام المدرســة وما كان فيها من أحداث صــغيرة • وكان يذكرني بأشياء غابت عن ذاكرتي ، كأني طويتها في أغوار عميقة تخفيها عني • واستمعت اليه كأني أرى صورا من عالم بعيد ـ صورا شاحبة ذهبت ملامحها وانمحت الوانها من ذهني ولكن أصداءها ماتزال باقية • فذكر الأيام الثـائرة التي كانت تهز أعماق نفوســنا في سنة ١٩٣٥ واجتماعاتنا السرية التي كنا نخفيها عن الأنظار ، وتلك المؤامرات الصغيرة التي أحطناها بالكتمان والخطب النارية التي تبادلناها والمناقشات العنيفة التي تبارزنا بها ، والخطاب الذي حاولنا كتابته بدمائنا في رعونة الصبا لنبعث به الى الملك لنطالبه بحرياتنــا • وخيل الى أن هذه السنوات التي فارقت فيها صاحبي قد نزعتني من عالم الى عالم ومن حياة الى حياة ، وحددت لي الأفق الذي أجول فيه وجعلتني أنحصر في طي نفسي وأنساق مع ظروفي كما تدفعني • واعتراني ارتباك شديد عند ما دارت هذه الأفكار في رأسي ولم أدر كيف افتح الحديث الذي جئت من أجــله • ونظر صاحبي نحوي في عطف وقال وهو يســـتند الى ظهر الأريكة التي كنا جالسين عليها •

ـ لقد مرت بنا السنوات يا سيد وكأنها لحظات • فكيف أحوالك وكيف تنظر الى الحياة ؟

فارتحت الى قوله لأنه خلصني من ارتباكي وقلت :

ـ هي سنوات كثيرة حقا وهذه آثارها تظهر على شعرك •

وكان الشيب يغبر فوديه ووسط ناصيته •

فقال باسما : ولكنك ماتزال محتفظا بشعرك الأسود •

فقلت مبادرا : هذا لأن السنوات مرت بي كأنها قطار سريع وأنا واقف الى جانب أنظر اليها من بعيد •

فقال هادئا : يذكرني قولك هذا بالصور التي كنت ترسمها في موضوعات انشائك • لم لا تكثر من الكتابة فقد قرأت لك شعرا في الثقافة ومقالات في النبراس •

فأجبته في فتور : لست أدري • عشت هذه السنين لا أفكر في شيء سوى أن أطفو على سطح التيار وأتجه معه حيث يريد أن يحملني • لم

أفكر في شيء ولم أرغب في شيء وأكاد أكون ذاهلا عن نفسي · قضيت هذه السنوات السبع وأنا غير شاعر بأن لي شيئا أعيش من أجله · والآن فقط وأنا آت اليك بدأت أشعر بأني كنت أحيا ذاهلا · كنت آتيا اليك من الطريق الذي يمر بالمقابر فعرجت على قبر أبي لأزوره · أتصدق أني لم أذهب لزيارته مرة كل هذه السنوات ؟ كنت مثل قشة تطفو على الماء ويدفعها التيار هنا أو هناك وهي لا تريد لنفسها شيئا · ولكني عندما وقفت عند قبر أبي خيل الى أن روحه تستقبلني وتحدثني ، وتقول لي « ان الحياة تناديك يا ولدي » · ولأول مرة بدأت أفكر وأنا في طريقي اليك وأسأل نفسي ما ذلك الذي تناديني الحياة من أجله ؟

وكان صاحبي يستمع الى في اهتمام وعطف وقال :

ـ سل نفسك يا صديقي عن الغاية التي تريدها أنت من الحيـاة هذه هي الحياة التي تناديك ·

وشعرت بالرهبة تغمرني وأنا أحاول أن أجد له جـوابا ، ولكنه استمر قائلا :

ـ أظنك مغاليا يا سيد عندما تقول ان الزمن قد مر بك كالقطار وأنت واقف الى جانب · وما الزمن ؟ انه خرافة ·

فقلت مسرورا : هذا ما كنت أقوله لنفسي ·

انه من صنع عقولنا نحن أليس كذلك ؟

فقـال موافقـا : لا شـك في هـذا · ولكنه مع هذا يمثل حقيقة يا صديقي · هو يمثل الحركة التي فينا والحركة التي حولنا · الحركة هي الحقيقة الوحيدة التي تعنينا ، ولا عبرة بما نسميه الزمن الا بمقدار ما يكون فيه من الحركة · السكون والجمود لا يكون الا للأموات · بل ان الأموات نفسها تتحرك والجمادات تتحرك لأنها تتغير وتتحول من حالة الى أخرى · لم تكن أنت ساكنا ولا جامدا في هذه السنوات ولا يمكن أن تكون جامدا ، لأنك كنت تنمو وتجرب ، سواء فطنت الى ذلك أو لم تفطن · قد نشعر بالقلق لأننا لم نحقق لأنفسنا غاية كنا نحب أن تتحقق ، ولكن هذا معناه أننا نحس في أعماقنا بوجود غاية مبهمة ، وما شعورنا بالقلق الا من أجل هذه الغاية المبهمة ، وهذا الحديث الذي خيل اليك أنك سمعته وأنت واقف الى جوار قبر أبيك ما هو الا حديث هذه الغاية المبهمة التي تحسها ولم تقدر بعد على تحديدها ·

فقلت في تردد : أقول لك يا صديقي في صراحة اني خائف حائر لم أستطع ولا أظنني أستطيع أن أعرف أين أتجه ·

فقال وهو ينحنى الى الأمام ويتكىء بذراعيه على ركبتيه فى اهتمام:

ـ ألا يمكن أن يكون هذا من صـــنعك أنت ؟ دعنى أحدثك فى صراحة . يخيل الى أنك آسف لأنك لم تستمر فى الدراسة ، ولهذا تقول ان السنوات هرت بك كالقطار السريع من بعيد · ولكننا لا يمكن أن نكون نسخا مكررة من صورة واحدة · لكل منا صورة ممكنة يستطيع أن يحققها قد تكون مخالفة للصور الأخرى ، وهذا لا يمنع من أن تكون مساوية لها أو خيرا منها · أنت تاجر وأنا معلم وغيرنا طبيب أو عامل أو فلاح ، وكل منا يستطيع أن يكون هثل الآخرين أو خيرا منهم اذا حقق صـــورته كامـلة ·

وتنبهت الى قوله كما يتنبه الحالم الى صوت يوقظه ، كان التأثر باديا عليه وصوته يتهدج وعيناه تلمعان ، فذكرنى بأيام التلمذة عندما كان يتدفق فى حماسته للفكرة التى يقتنع بها · وبدأت أسأل نفسى أسئلة كثيرة وأنا أعبث بأصابعى كما كنت أفعل دائما اذا كنت مرتبكا أو سابحا فى أفكار حائرة ·

ولم أجرؤ بالطبع على أن أحدثه عن الامتحان الذى جئت اليه من أجـــله ·

فاستأذنت بعد قليل وقمت لأنصرف ·

فقال لى باسما :

ـ متى أراك يا سيد ؟ أشكرك على هذه الزيارة وأرجو ألا تكون الأخيرة·

فقلت ضاحكا : ستراني أكثر مما تحب يا عبد الحميد ·

فضغط على يدى قائلا : مرحبا بك دائما ، وحاول اذا استطعت أن تكثر من زياراتك حتى أضيق بها ·

- ٧ -

انصرفت من عند عبد الحميد وذهنى متقد بأفكار شتى ، وكأن رأسى يدور وقلبى يشبه عصفورا فى أسر طفل غرير يقذف به فى عنف ويجذبه فى قسوة ٠

كنت أسأل نفسى مئات الأسئلة التى لا أجد لها جوابا شافيا ، وأخذت أسخر من الفكرة التى دفعتنى اليها حيرتى ، فهل أعود أدراجى لأكون مرة أخرى تلميذا وأتقدم للامتحان فى البكالوريا ؟ أهناك برهان أقوى من هذا على أنى وقفت حقا عن النمو كل هذه السنين كأنى فلاح مسكين فى حقله والقطار السريع يمر به من بعيد ؟

وأخذت أعيد على نفسى ما قلته وما قاله عبد الحميد ٠ ليس الزمن سوى خرافة من صنع عقولنا نحن والحركة هى الحقيقة الوحيدة ٠ كل شىء يتحرك حتى الحجارة ٠ وأما أنا فانى لم أتغير وان كان عبد الحميد يقول لى انى لابد تغيرت ٠

ووصلت الى منزلى وأنا أقلب هذه الأحاديث فى نفسى ودخلت الى غرفتى واستلقيت على الكرسى الاسيوطى القديم الذى اشتريته منذ شهر من أحد تجار الأثاث المستعمل ، وجعلت أدير بصرى فى الغرفة وأحسست أنها تضيق بى وأن جدرانها تقترب من كل جهة لتنطبق على وتحطمنى ٠ وقمت لأسير فيها حتى أتحقق من أن الجدران ثابتة فى مكانها ، وكانت الغرفة لا تزيد على ثلاثة أمتار فى اربعة فما أكاد أخطو بها خطوتين حتى أرتد الى الناحية الأخرى كأنى وحش فى حظيرة ٠ فعدت الى الكرسى واستندت برأسى الى ظهره وجعلت أسبح فى أفكار هائمة ٠ كل شىء يتحرك حتى الجمادات وأما أنا فانى ما أزال كما كنت منذ سبع سنوات ، ولا أدرى ماذا تغير منى ٠ ماذا يدل على هذا النمو الذى كان عبد الحميد يتحدث عنه ؟

ولماذا أخجل من فكرة التقدم لامتحان البكالوريا ؟ اليوم الجمعة وغدا السبت وآخر موعد للقيد فى الامتحان يوم الأحد فاما الآن واما لا ٠ قمت خارجا من غرفتى عازما على أن أعود الى صاحبى لأفاتحه فيما قصدته

من أجله منذ قليل . ولما بلغت ضريح أبو طاقية وقفت لأقرأ الفاتحة وانشرح صدرى وأسرعت فى سيرى حتى وصلت الى بيت صـــديقى ، ولما لقيته تبسمت قائلا :

ــ أما قلت لك انك سترانى أكثر مما تحب ؟

فجذبنى من يدى قائلا : الحديث بيننا لم ينته بعد .

فقلت مبادرا : لم أعد اليك لأتمم هذا الحديث ، ولا أريد أن أضيع وقتك ، أو بقول آخر لا أريد أن أضيع وقتى ، فالحقيقة أنى كنت آتيا اليك أول مرة لأقول لك شيئا سخيفا خجلت أن أقوله . أليس من المضحك أن أفكر فى التقدم الى البكالوريا بعد هذه المدة الطويلة ؟

وسكت لأرى أمارات الدهشة على وجه صاحبى ولكن وجهــه كان أصفى من صفحة غدير رائق .

وقال باسما : اظنها فكرة حسنة .

وكنا قد بلغنا غرفة الانتظار وجلس الى جنبى قائلا :

ــ اعتقد أنك لن تجد صعوبة فى النجاح .

فوثب قلبى الى حلقى من السرور وقلت :

ــ أتظن هذا ؟

فقال : أعرف أنك كنت دائما تحب القراءة ولا شك فى أنك كنت تقرأ وتكتب .

وشعرت من نظرته ومن نبرات صوته أنه لا يجامل ولا يقصد أن يشجعنى . فقلت :

ــ سأقدم على المغامرة وآخذ نصيبى . اذن فانت ترى أنها فكرة لا تبلغ من السخافة ما كنت أظن .

فقال مبادرا : هى ان شئت مغامرة ولكنها ليست مقامرة على كل حال . هناك الوف من الشبان يجعلون من الامتحان نوعا من المقامرة لأنهم مفلسون يريدون أن يحصلوا على ثروة بغير مقابل . ولكنك لا تقامر يا صديقى لأنك تطلب شيئا تعرف قيمته وتريد أن تحصل عليه بثمنه . لم تكن واقفا كما زعمت الى جانب الطريق والقطار السريع يمر بك . لا أحب أن أجاملك بمثل هذه الأقوال ولست أقصد أن أجاملك ولكنى أظن أنك أحسنت .

فملأنى قوله ثقة وقمت مستأذنا وقلت : سأمر عليك فى الصباح .

فقال : سأكون هناك منذ الساعة الثامنة وان كنت لا أبدأ عملى قبل العاشرة · وأحب أن أذكرك بأنى معلم ·

فتبسمت قائلا : وأحب أن أقول لك أيضا انى أصبحت تلميذا من جديد · وأرجو أن أكون تلميذا مجتهدا ·

ومددت يدى اليه وضغطت على يده بغير أن أشكره بلسـانى · وبدأت من ليلتى أعد العدة للمذاكرة ، ولا أذكر أنى كنت فى وقت من أوقات تلمذتى فى مثل هذه الحماسة للتعلم · حقا اننا لا نعرف للتعليم قيمة الا اذا شعرنا حقا بأن لنا غاية تريد أن نحققها من ورائه ·

وكانت الأشـهر الثلاثة الباقية على الامتحان أكثر أوقات حيـاتى ازدحاما بالعمل والكد · كنت مثل شخص غرقت به السفينة فى ليلـة مظلمة من ليالى الشتاء العاصفة ، فهو لا يلتفت الى رهبة الظلام ولا الى برد الماء ولا الى شدة العاصفة ، بل يحصر كل همه فى الأنوار البعيدة التى تخفق على الشاطىء ، ويجاهد بكل قطرة فى حياته ليصل الى البر سالما · لم أكد أختطف فى كل ليلة الا ساعات من النوم ، ولم أكد أذوق من الطعام الا ما يمسك الرمق · كنت أتحرك وأعمل فى شىء من الذهول عن كل شىء سوى ما أدرسه ، ولا أكاد أحس بشىء مما حولى ولا بأحد ممن حولى · ولما جاء الامتحان آخر الأمر ذهبت الى مقر اللجنة ودخلت الى الخيمة المعدة لجلوس التلاميذ وجلست على المقعد الذى عليه رقم جلوسى وأنا فى حال تشبه حالة الحالم · لم ألتفت الى وجه من الوجوه التى حولى ، ولا الى صوت من الأصوات التى كانت ترن فى أذنى ، بل كنت لا آكاد أفطن الى أوراق الأسئلة التى كانت توضع أمامى ، كأن عينا أخرى هى التى كانت تبصر لى،وكأن ارادة أخرى هى التى كانت تحركنى،وكأن ذهنا آخر هو الذى كان يفكر لى · ولست أبالغ اذا قلت انى فى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الأسطر لا آكاد أذكر شيئا مما رأيت ولا مما سمعت فى تلك الأيام التى لم يبق منها فى ذاكرتى سوى صور حائلة تقرب من صور الأحلام البعيدة ·

وكان صاحبى عبد الحميد يسألني فى كل يوم عن اجابتى ، فأحاول أن أعيدها عليه فلا يتهيأ لى تذكر شىء منها ، حتى خيل اليه أنى أتعمد اخفاءها خوفا من اطلاعه على أخطائى · ولما مضت أيام الامتحان اعترتنى حالة شديدة من الهم والغم والسخط على نفسى وندمت على الحمـاقة التى دفعتنى اليها فكرة سخيفة ، ومر على شهر كامل فى هذا القلق ضائقا بنفسى وبمن حولى فكنت أخرج الى الفضاء لأنفس عن كربى فلا أعود الى بيتى الا بعد أن يجهدنى التعب حتى أسرع الى النوم ·

وكنت في يوم من تلك الأيام عائدا من رحلة طويلة في الريف حول المدينة ، وعرجت على قهوة لأستريح قليلا قبل الذهاب الى بيتى فاقبل صبى من باعة الصحف يصيح « نمر التلامذة ! » فاشتريت منه صحيفة وانا متلهف . وأخذت أجيل بصرى في الأرقام ولكن عينى سبحت فى الأعمدة المرصوصة ولم اتذكر رقم جلوسى . ورأيت أرقام المتقدمين من المنازل في دمنهور فلم أجد الا رقما واحدا وهو ٢٨٥٥ . أكان هذا رقمى ؟ أكان في رقمى عدد مكرر ؟

وكان قلبى يخفق كالمجنون الثائر مع أنى طالما وطنته على أنى راسب . وأخذت أسأل نفسى أين ذهب رقم جلوسى . ألا يكون فى جيبى ؟ ووضعت يدى في جيوبى واحدا بعد واحد ، ولكنى لم أجد الورقة في جيب منها . وأخرجت محفظتى لعل الورقة تكون فيها . ها هى ذى ! انها هى بعينها وفيها العدد المكرر . وخفق قلبى أكثر جنونا ، وخيل الى أن أقوم فاقول لمن فى القهوة جميعا انى نجحت . وخيل الى أن الناس جميعا ينظرون نحوى ويعرفون أنى أريد أن أصيح بهم معلنا اليهم نجاحى . وقمت واقفا ولولا خوفى من الأنظار لجريت بأسرع ما أستطيع من السرعة حتى أصل الى أمى وأختى لأخبرهما بالنبأ السعيد ، ثم الى بيت صاحبى عبد الحميد عباد لأحمل اليه بشرى نجاحى . وسرت مسرعا والجرائد الثلاث ترف فى يدى لم أجد وقتا لأطويها فى رزمة منتظمة . ولو أطلقت لنفسى العنان لأخذت أضحك وأضحك كما يفعل الغريق بعد أن يصل الى البر سالما ، ولكنى أن كنت لم أضحك فان قلبى كان يفعل نيابة عنى كأنه أصيب بنوبة هستيرية . ومررت على منزل صاحبى فى طريقى وأظن أنى قطعت المسافة بين القهوة وبين بيته فى أقل من خمس دقائق مع أنه كان فى العادة يبعد بما لا يقل عن عشر . وطرقت الباب فنزلت الى الخادم تقول لى انه لم يكن هناك . فقلت لها « قولى له اذا عاد انى نجحت » ثم أسرعت منصرفا ولم أقل لها من أنا .

واتجهت الى منزلى لأحمل النبأ الى أمى واختى،وتذكرت عند ذلك فقط أن أختى منيرة هى الأخرى تنتظر النتيجة . فوقفت فى مكانى ورفعت الجريدة أمام بصرى تحت مصباح الشارع لأبحث عن رقم أختى ، وكان شعورى بالخجل من نفسى عظيما لأنى لم اهتم بتذكر رقم جلوسها . وزاغ بصرى مرة أخرى فى الأرقام ــ لجنة دمنهور ــ مدرسة البنات ــ ولكنها كانت أرقاما كثيرة . فطويت الصحيفة وسرت فاترا حتى وصلت الى بيتى ولم أدر ماذا أفعل . ولمحت منيرة الجريدة فى يدى ورأت الأرقام فوثبت الى وخطفتها وأخذت تفحص الأعمدة المرصوصة وأنا أنتظر فى لهفة ، ثم رأيتها تلقى الجريدة من يدها وتذهب صامتة ووجهها ينم عن حزنها . فانقلب ما كنت أحسه من الفرح المفرط الى وجوم مفرط ، ورثاء

ومواساة وذهبت وراءها الى الغرفة لأسرى عنها · وجاءت أمى بعد قليل فشاركتنى فى محاولتى حتى عادت منيرة الى هدوئها وضاعت على الفرصة فى مفاجأة مسرحية كنت أطمع فيها لو كنت أعلنت نجاحى لأمى وأختى بغير أن تكون عندهما فكرة عن تقدمى للامتحان ·

ولما مرت هذه الهزة التى اعترضتنى أخذت أفكر فى المستقبل،ووجدته كما كان ولم يفدنى النجاح شيئا فى ازاله الغيوم التى كانت تلفه من كل جانب · فهل أستطيع أن ألتحق بالجامعة ؟ وكيف أحصل على زرقى ورزق أهلى ؟ وما فائدة النجاح اذا لم ألتحق بالجامعة ؟ فهل اقنع بهذه الشهادة على أنها حلية تزين صدرى عند ذهابى الى الأسواق مع حمادة لنشترى القطن من الفلاحين المساكين ؟ ومهما يكن من الأمر فانى قضيت ما بقى من شهور الصيف فى القراءة والكتابة ، وأقبل شهر أكتوبر فذكرنى بالأسواق وحمادة الأصفر وما تكلفنا به ظروف الحياة من تحمل ما نكره فى سبيل العيش · لم أشعر بأن التجارة طريقى فى الحياة ولولا حاجتى الى الرزق لما رضيت أن أعود الى الأسواق أبدا · وهل كنت أنا الذى أشتغل بالتجارة حقا ؟ لم يكن لى منها سوى أن أذهب مع حمادة وأحمل النقود فى جيبى لأدفع أثمان الأقطان منها · كنت فى مبدأ الأمر أحسب أنها مغامرة مثيرة فوجدت أنها بالنسبة الى لا تزيد على سخرة من أجل القوت ·

وفى صباح يوم من الأيام نزلت من منزلى لا أدرى أين أذهب،فاتجهت نحو شاطىء الترعة لأملأ صدرى من هواء الخريف ·

وسمعت فى الطريق صوتا ينادينى من ورائى وكان صوتا أعرفه · وتبسمت بالرغم من ضـــيقى عندما رأيت أمامى محمد الشرنوبى زميلى القديم الذى كنا نسميه « الفلاح » فيما بيننا ·

وقال لى بابتسامته العريضة : أين أنت يا شيخ ؟

فقلت : وأين أنت يا أيها الفلاح ·

فقال : فى الغيط طبعا ، كما أنك فى السوق ·

فقلت باسما : ومن قال لك ؟

فقال : وهل يجهل أحد « تجارة الأمانة » ؟ تعال بالله معى ونجنى من هؤلاء التجار الذين يريدون سرقتى ·

وقلت مبادرا : تحت أمرك يا حاج شرنوبى ·

وقلت فى نفسى « هذا شىء آخر · لا بأس أن أذهب مع صاحبى هذا لأشترى ما عنده ، فهذا خير من الجلوس على جوانب الطرق · ولكن

ما أدرانى لعل القطن الذى عنده ردىء وهو يبحث عن تاجر ساذج ليبيعه له » ٠

وأخذنى صاحبى من ذراعى متجها بى نحو المحطة ، واخذت أحدث نفسى صامتا ٠ انها حماقة لا مثيل لها ٠ وماذا أعرف عن تجارة الأقطان ، وما أدرانى كم قنطارا عنده ؟

وقلت له فى هدوء :

ـ أرجوك أن تأذن لى أن أذهب الى بيتى أولا ٠ الساعة الآن العاشرة وأظن القطار لا يأتى الا فى الساعة الثانية عشرة ٠ ألست دائما فى ايتاى البارود ؟

فقال : لم تنس بعد يا سيد أفندى ؟ سأنتظرك هنا ٠ وكنا أمام قهوة مظهر ، فواعدته أن أعود اليه قبل مضى ساعة ، وأسرعت منطلقا الى شارع « أبو الريش » لعلى أعثر على حمادة الأصفر ، وكنت لم أصادفه فى هذه الأشهر الأخيرة ٠ وبعد دورة طويلة عثرت عليه فى خمارة بزقاق مظلم دلنى عليها صبى القهوة التى تعودنا أن نجلس فيها ٠ وجررته معى فى شىء من القسر وذهبت به الى البيت لآخذ ما هناك من النقود ثم ذهبنا الى القهوة لنلقى محمد الشرنوبى ٠

وكنت فى أثناء السفر الى ايتاى البارود أحدث نفسى فى حيرة عما أنا مقدم عليه ، وامتلأت رهبة ٠ ولما وصلنا الى عزبة الشرنوبى اجتمع علينا الفلاحون وشاركوا زميلى القديم فى خدمتنا والترحيب بنا حتى نسيت قلقى وداخلنى شعور بارتياح ممزوج بالزهو ٠ وذهبنا الى مخزن القطن وكان فيه خمسون قنطارا كاملة ٠

وهمس لى حمادة :

ـ قطن عال ولكنه وسخ قليلا ٠ خمسون قنطارا يا سيد أفندى !

فقلت هامسا : كم يساوى ؟

فقال : لا أقل من اثنى عشر جنيها ٠ لقطة ؟

ففكرت فى نفسى ماذا أصنع ؟ وهل يصدق ظن حمادة الأصفر ؟ الا يكون مغاليا فى الثمن ؟ ألا ينزل سعره فى مدة يوم أو يومين قبل أن نحمله لبيعه فى دمنهور ؟

ولكنى ملكت نفسى ولم أظهر ترددا ٠

ولما أتى الليل أعد لنا صاحبى فراشا فى حجرة عليا فوق المخزن وذبح لنا جديا سمينا وقضينا فى الدوار مدة طويلة فى سمر قبل أن

نذهب الى غرفة النوم · ولكننا لم نذق للنوم طعما واضطررنا أنا وحمادة الى قضاء ما بقى من الليلة فى الحديث لأن لسعات البعوض والبراغيث لم تدع لنا فرصة للرقاد · وكان مما زادنا اضطرارا الى الأحاديث أن المطر بدأ يهطل بعد نصف الليل فكان لابد لنا أن نجلس فى الركن الذى لا يتسرب الماء اليه ونستند بظهرينا الى الجدار · وكان حديث حمادة مسليا برغم التعب ومضـــايقة اللسعات ، وكان كل الحديث عن أهل المدينة · ولست أدرى كيف عرف حمادة كل هذه الأسرار التى أخذ يحكيها مع أنى لا أعرف منها شيئا وأنا أعيش معه فى المدينة نفسها · وكان ينتقل من حديث الى آخر ذاكرا من عيوب عظماء المدينة ما لا يكاد يصدق · وقد أخذت ذلك كله على أنه قصص من نسيج الخيال أو من رغبــة التشنيع وهى طبيعة تلجأ اليهــا النفوس المحطمة · وهل كنت لأصدق أن السيد أحمد جلال يقترن سرا بامرأة ساقطة ، أو أن محمد باشا خلف يعيش من ثروة امرأته التى تضربه بحذائها ؟

ومهما يكن من الأمر فقد مرت الليلة وبادرنا منذ الصباح الباكر لنستعد للعمل · ولم أتردد فى الشراء كما نصحنى حمادة ودفعت لصاحبى كل ما كان معى وهو المائتا جنيه ، وقلت له فى بساطة انى أدفع له ما بقى من الثمن اذا استلمت البضاعة فى دمنهور ·

ولما خرجنا من المزرعة متجهين الى المحطة همس حمادة فى أذنى :

ــ مائة جنيه يا عم !

فقلت : ماذا تقصد ؟

فأجاب : هذا القطن لا يساوى أقل من اثنى عشر جنيها وقد رضى هذا المغفل بأن يبيعه بعشرة · مائة جنيه يا عم ، يلك !

وسحب يدى فقبض عليها قائلا : مبروك ، والله زمان يا بو زهير !

ولم أحب أن أتورط فى الآمال السابقة لأوانها فلم أقل شيئا وأخذ حمــادة يحــدثنى عن آخر أخبار السياسة التى كنت لا أعبأ بها كثيرا ، فالانتخابات على وشك الابتداء والسيد أحمد جلال يستعد لمواجهة خصمه محمد باشا خلف ، وستكون معركة طاحنة لأن رئيس الوزارة المنتظر قريب محمد باشا · وجمعية شباب دمنهور تستعد للاجتماع مرة أخرى لأول مرة منذ الانتخابات الماضية وستكون أســـعار المظاهرات وأثمان الأصوات أعلى من الأسعار السابقة ·

ولما وصلنا الى دمنهور لم أدر الى أين أذهب بهذه الصفقة الكبيرة · كنت أبيع ما أشترى من الأقطان فى كل مرة ، وهى لا تزيد على عشرة

قناطير أو خمسة عشر قنطارا ، ولكن خمسين قنطارا تحتاج الى العناية . فجنيه واحد أخسره فى القنطار يؤدى الى ضياع ربع ما جمعته فى خبطة واحدة . وكان الأفضل فى نظرى أن أسرع الى التخلص من هذا الحمل الثقيل قبل أن اقع فى ورطة ، فالأسعار لا تثبت على حال ، واليوم أقرب الى الاطمئنان من الغد . واتجه ذهنى أول شىء الى السيد أحمد جلال فقصدت اليه من توى بغير أن أتردد .

ودخلت عليه فى مكتبه وكان لقاؤه سمحا كما عودنى دائما كأن لم يحدث بيننا شىء يعكر الصفاء . وقال لى وهو يشير الى بالجلوس :

ـ أين أنت يا سيد أفندى ؟ ما هذه الغيبة ؟

فأجبت فى هدوء أصحاب الأعمال :

ـ تحت الأنظار يا سيدى !

فقال مبتسما : كنت أظن أنك لا تتركنا هكذا .

فأجبت فى زهو : أشكرك . ولكنها المشاغل .

وبدأنا نتحدث قليلا ونتساءل عن الأحوال كما جرت العادة . وتعمدت أن أسأله عن صحة الأسرة والآنسة الكريمة . وقلت له مجاملا فى آخر حديثى : أنا مدين لك بكل ما وصلت اليه .

ونظرت الى وجهه فاحصا لأرى أثر كلمتى .

ولا شك أن كلمتى استرعت سمعه فانه رفع حاجبيه لمدة لحظة قصيرة ، ثم أسرع الى تملك نفسه وعاد وجهه هادئا باسما .

فمضيت أقول متعمدا :

ـ جعلتك مثالا لى وعزمت على أن أبدأ حياة جديدة كما بدأت أنت . كان عندى عشرون جنيها وعزمت على الاتجار بها . وقد جئت اليك اليوم بخمسين قنطارا من القطن الجيد .

وقدمت اليه العينة التى كانت معى .

فأخذها السيد وجعل يقلبها بأصابعه ويفحص تيلتها . وكانت ملامح وجهه تدل على الاهتمام الشديد .

وقال فى نغمة تشجيع : حسن جدا . قطن طيب ولكن فيه بعض الوسخ . بكم اشتريته ؟

فتبسمت فى سرى ولم أجب بل سألته : كم يساوى ؟

فضحك عند ذلك بغير تحفظ قائلا : لقد أصبحت تاجرا ماهرا . حسن جدا يا سيد أفندى . هكذا يكون التاجر الحكيم الذى لا يكشف لأحد عن أوراقه . ولهذا سأعاملك معاملة الند للند ، تاجر مع تاجر بغير تحفظ ولا مجاملة .

فقلت فى لهجة الند : لا أطلب غير هذا .

ولمعت عيناه لمعة لم أعرف معناها عندما قال : هذا القطن يساوى خمسة عشر جنيها للقنطار .

وفى لمح البصر حسبت مقدار ربحى - مائتين وخمسين جنيها . وهزتنى موجة من السرور .

وتبسم السيد أحمد بسمة فى لون من الدهاء قائلا :

- هذه أسعار اليوم الى هذه الساعة كما أعرف ، ومن يدرى ؟ لست أعرف اذا كان هذا السعر يزيد أو ينقص بعد ساعة واحدة . لك الخيار طبعا فى أن تبيع الآن أو فى الغد .

فقلت متكلفا الهدوء : لا مانع من البيع الآن .

فقال فى بساطة : اشتريت يا سيد أفندى . والقطن كله من نفس العينة . هذا مؤكد طبعا !

فقلت : هذا مؤكد .

وواعدته أن أحضر اليه غدا فى الصباح بالبضاعة ، وكنت متفقا مع الشرنوبى على أن يصل القطن الى دمنهور قبل طلوع الشمس . وخرجت من المكتب بعد أن صافحت السيد أحمد جلال رافعا رأسى واتجهت الى القهوة التى واعدت حمادة أن ألقاه فيها وأنا أكاد أطير من الفرح . ولكنى لم أجد حمادة هناك فشربت فنجانا من القهوة وجعلت أحدث نفسى مستعيدا كلمات السيد أحمد جلال وحركاته وملامح وجهه . ماذا قصد بقوله معاملة الند للند ؟ وماذا كان يظن من قبل ؟ ولماذا قبل أن يشترى القطن فى هذه الليلة اذا كان يخشى أن يهبط السعر بعد ساعة ؟ وتذكرت قول مصطفى عجوة عنه انه مثل بئر عميقة لا يعرف أحد قرارها . وبدأت أشعر بشىء من القلق . وانتظرت ساعة طويلة ولكن حمادة لم يحضر . وكنت متعبا بعد جهد اليوم وبعد سهر الليلة الماضية فقمت ذاهبا الى بيتى ولم ألبث أن نمت نوما عميقا .

وبكرت فى الصباح خارجا الى ميدان المحطة كما واعدت الشرنوبى ، وكانت السيارات هناك محملة . وذهبنا الى المحلج ولكن السيد لم يكن

هناك بعد . فجلسنا ننتظر في المكتب وكان به بعض مجلات وصحف أخذنا نتصفحها بغير اهتمام وكانت عناوينها الكبيرة كالعادة تغني عن قراءة ما تحتها . ثم وجدت قصة في جريدة « بريد الأحرار » وعجبت كيف يجرؤ أصحاب الصحف على نشر مثل هذا السخف ، وكيف يرضى الناس أن يقرأوه . كانت قصة فنى مدله بغانية متزوجة تعبث به كما تعبث بزوجها . مرحى ! ورميت بالجريدة حانقا ، ولكني عدت فأخذتها وأخذت أعيد قراءتها متأملا أسلوبها . كان حقا أسلوبا بارعا خفيفا سهلا يحمل على القراءة بما فيه من اغراء . ولو تأتى هذا الأسلوب البارع لرأس ملأى وقلب كبير ونظرة عميقة في شئون الحياة لكان أدب هذا الشباب الناشىء جديرا بكل اعجاب . انه أسلوب تخلص من التكلف والغموض والحذلقة التي كانت تجعل من الأدب لغزا يحتاج الى الحل قبل أن يفهم . ولكن أدباء الشباب لا يريدون أن يرتفعوا بالحياة لأنها تغرقهم وتجرفهم معها ، والأديب لا ينبغي له أن يغرق في الحياة ولا أن ينجرف معها . هو يعيش فيها ولكنه يسبح فيها ويعرف اتجاهه . هكذا كنت أفكر عندما دخل السيد أحمد جلال وقطع على التفكير بتحيته السمحة .

وعندما سلم على الشرنوبي تبسم قائلا :

ـ هذا صاحب القطن ؟

وخيل الى أن بسمته تحمل معنى رقيقا من السخرية ولم أفطن الا في تلك اللحظة الى الخطأ الذي ارتكبته عندما جئت بالشرنوبي معي . أليس معنى هذا أنه لم يقبض مني ثمن قطنه بعد ؟ أليس معنى هذا أنني لم أكن بعد تاجرا يشتري الخمسين قنطارا ويدفع ثمنها مقدما ؟ واعتراني شيء من الارتباك والخجل ولكني جاهدت أن أكون طبيعيا .

وأتم السيد أحمد جلال ضربته بأن فتح الخزانة وأخرج منها ست ورقات من ذوات المائة جنيه ودسها في يدي هامسا :

ـ تحت الحساب يا سيد أفندي .

وأحسست الحرارة في أذني ووجهي ، واستأذنت خارجا مع صاحبي وقلت للسيد أحمد اني عائد بعد ساعة .

وعدت الى المحلج بعد أن شيعت صاحبي الى المحطة فوجدت السيد أحمد مشغولا مع عملائه ، فلم يلتفت الى الا بنظرة باسمة قصيرة ، وجلست في ركن من الحجرة حتى يفرغ . وانصرفت بذهني أتأمل طريقته في المعاملة والحديث ، كأني أقرأ درسا جديدا ، وعدت أسأل نفسي أي فرق بين هذا الرجل وبين حمادة ؟ ما الفرق بين الذهب والنحاس وكلاهما

معدن ؟ وجاء دورى بعد حين فمد السيد يده نحوى بوثيقة بين أصبعيه السبابة والوسطى قائلا :

ـ كم ألباقى ؟

وقرات الورقة وكان وزن القطن مكتوبا عليها ، ثمانية وأربعون قنطارا ونصف .

فصحت صيحة مكتومة : هى خمسون قنطارا .

فقال هادئا : هذا هو الوزن الرسمى .

ولولا أنى دفعت الى الشرنوبى بقية ثمن قطنه لما ترددت فى استرجاع القطن لأنى كنت واثقا أن وزنه لا يقل عن خمسين قنطارا وافية .

وقال السيد أحمد وهو يفتح الخزانة .

ـ يبقى لك مائة وسبعة وعشرون جنيها ونصف . أليس كذلك ؟

فلم أجبه ولكن ذلك لم يمنعه من عد النقود ووضعها أمامى .

وأخذت النقود صامتا وحييته تحية هادئة ، وانصرفت وأنا أقول لنفسى « كيف يحدث هذا ؟ » . وذهبت عائدا الى القهوة لعلى ألقى حماده حتى أعطيه نصيبه من الربح ، وكنت من قبل عازما على أن أعطيه عشرة فى المائة من الربح فلم أرض أن أقللها عن خمسة وعشرين جنيها .

وكان فكرى مشغولا طول الوقت بنقص وزن القطن ، لا من أجل الجنيهات التى فقدتهـا بل من أجل المعنى الذى وراء ذلك النقص . كنت واثقا من أن وزن القطن خمسون قنطارا وقد وزنته بنفسى وهذه صناعتى . ألا يكون مصطفى عجوة هو الذى وزنها ؟ أيمكن أن يكون السيد أحمد عالما بأن موازينه ظالمة ؟ وتذكرت الحديث القديم الذى كان بينى وبين مصطفى وكان حنقى شديدا . ولكننى مع هذا أرضيت نفسى عما أصبت من الربح فانى لم أحلم فى يوم من الأيام أن أربح مائتى جنيه فى ليلة واحدة .

واستقبلنى حمادة فى القهوة فاتحا ذراعيه ليضمنى الى صدره قائلا :

ـ مبروك يا سيد أفندى ؟

وكان صوته مسموعا فى آخر القهوة .

ولم يكن من العجيب أن يهنئنى على الربح العظيم فان خمسة جنيهات فى القنطار الواحد فى ليلة واحدة رقم قياسى فى التجارة . وقلت له :

ـ مبروك عليك أيضا !

ومددت يدى الى جيبى لأخرج النقود وعزمت فى لحظتى على أن أعطيه كل الكسور فوق المائتين ٠

فصاح بى :

ـ هل بعت ؟

فقلت له : ودفعتُ باقى الثمن ٠

فصاح : بكم ؟

فقلت مباهيا : بخمسة عشر جنيها ٠

فصاح مذعورا : بكم ؟ من قال لك هذا السعر ؟ من هذا اللص الذى اشترى منك ؟ قل لى من هو حتى أخزق عينيه ٠

فقلت فى دهشة : ولم ؟

فقال : لص ! حرامى ! ابن كلب !

وأخرج من جيبه جريدة الصباح وفتحها فى لهفة وأشار بيده الى عنوان كبير قائلا :

ـ انظر ٠ هذا هو السعر ٠ تعال نذهب اليه وأنا أعرف كيف أقول له يا لص !

فنظرت الى الصحيفة فهالنى ما رأيت ٠ قرأت عنوانا ضخما : « ارتفاع مفاجىء فى أسعار القطن » ومن تحته عنوان آخر « عشرون جنيها للقنطار » ٠ وتسمرت فى مكانى أنظر الى الصحيفة مبهوتا وتذكرت أن هذه الصحيفة نفسها كانت فى يدى فى الصباح وأنا فى مكتب السيد ، ولكنى لم أقرأ صفحة التجارة ٠

وقلت لنفسى : لا شك أنه يعلم هذا ٠

وأعدت نظرى على الصحيفة فوجدت أن هذه الأسعار كانت آخر الأسعار بالأمس ٠

وشعرت بشىء كالدوار فجلست صامتا وتذكرت ابتسامة السيد أحمد ولمعان عينيه وقوله أنه سيعاملنى معاملة الند للند ٠ اذن كانت مبارزة بين تاجر وتاجر ، أحدهما قديم خبير بألاعيب التجارة يريد أن يصرع تاجرا صغيرا ليبرهن له على مقدار ضعفه ٠

وكان حمادة فى أثناء ذلك لا ينقطع عن السب والتهديد وقام بعد قليل فجذبنى من ذراعى قائلا :

ـ قم بنا نذهب الى ذلك اللص · من هو ؟

فقلت بصوت ضعيف : السيد أحمد جلال ·

وقدمت له ورقة الوزن فصاح بغير تحفظ : نهاره أسود · قم معى لترى كيف أخزق عينيه · مالك لا تتحرك ؟ أتخاف أن يأكلك ؟ أحقا بعته بخمسة عشر جنيها ؟ وأقل من خمسين قنطارا ؟

فقلت وأنا أشعر بجفاف حلقى : لا فائدة !

فقال فى مرارة وعنف : حمـار ، حمـار والله العظيم ! أتريد أن تسكت ·

فقلت : وما الحيلة يا حمادة · انتهى الأمر وقبضت الثمن وتصرفت فيه ·

فقال فى نغمة يائسة : هل تريد أن تكون تاجرا ؟ لم أجد فى التجار أخيب منك الا أنا · النهاية يا عم · تعيش وتأخذ غيرها · هى وقعة تعلمك المشى يا ولدى · النهاية ! هى بيعة بثمنها · هات يا عم ·

وفرك اصبعية كعادته يطلب النقود ·

فاعطيته سبعة وعشرين جنيها ونصف وكان ينظر الى الأوراق التى اقدمها اليه واحدة واحدة ولمعت عيناه فى جشع وقال وهو يدس النقود فى جيبه ·

ـ النهاية يا عم ! هيصة !

ووضع يده فى فمه ولوى لسانه وصفر صفرة عالية استرعت أسماع الجالسين فى القهوة ، فالتفتوا الينا وانفجروا بضحكة عالية · وخرج حمادة وهو يضحك قائلا :

ـ عشت يا بو زهير ·

فقمت ذاهبا الى بيتى وكأن فى رأسى رحى تدور ، وكانت أمى وأختى فى انتظارى للغداء ، وكانت صفقة القطن حديث المائدة بما أحاط بها من ربح محقق وربح ضائع ، ولكن سرور أمى كان عظيما وقالت كعادتها : « كفاية وبركة يابنى ! » ·

- ٨ -

لم يقع بصرى بعد ذلك اليوم على حمادة الأصفر كأنه اختفى من المدينة ، ولم أعثر عليه مع محاولاتى الكثيرة فى البحث عنه فى القهاوى والأزقة المظلمة . ولم أجرؤ على أن أذهب وحدى الى الأسواق فانى كنت أشعر أنى لن أستطيع شيئا الا اذا كان حمادة معى ، فهو الذى يختار المكان الذى نذهب اليه ، وهو الذى يفرز الأقطان ويقدر أثمانها فى خبرة ومهارة لم تخطىء فى مرة من المرات . ولكنى مع هذا لم أكن قلقا لأن صفقة الشرنوبى كانت تعادل عشر صفقات متفرقة مما اعتدت أن أعقدها فى أسواق القرى .

وكانت القراءة تشغل جانبا كبيرا من أوقاتى ، وكتبت بضع مقالات لجريدة النبراس ، لأن صاحبها زارنى مرارا وطلب منى المساعدة على خدمة المدينة فى أيام الانتخابات . ولكنى مع هذا كنت أحيانا أحس ضيقا يقرب بى من الثورة على نفسى وعلى القيود الكثيرة التى تقيدنى ، والسدود المنيعة التى تعترض سبيلى . فماذا صنعت بهذه الشهادة التى أشقيت نفسى بالتفكير فيها ؟ وماذا أستطيع أن أفعل فى مساعدة أختى بعد أن نجحت فى الدور الثانى ؟ لا أستطيع أن أساعدهـا على الاستمرار فى الدراسة ، ولا تلوح لى بارقة أمل فى أن أخرج من الدائرة المقدورة التى أحاطت بها الأقدار حياتى .

وأما التجارة فهبنى استطعت أن أجمع فى كل موسم بضع مئات من الجنيهات ، فماذا تجدى على هذه المئات ؟ هل أجرؤ بها أن أذهب الى السيد أحمد جلال قائلا انى جئت اليك خاطبا ؟

وجاء الى حمادة فى منزلى بعد انقطاع شهر كامل ، وكان وجهه أشد صفرة مما كان ، وعيناه ذابلتين وصارت الزرقة التى حولهما الى ما يقرب من السواد . ولم يبتسم عندما لقينى ولمحت على وجهه ما ينم عن الحزن والحنق .

وقلت له : أين كنت ؟

فأجاب فى صوت خافت : فى داهية !

فقلت فى اهتمام : ما الخبر ؟

فقال حانقا : الخبر أنى حمار لا يساوى ثمن طعامه . الخبر أنى وغد . أتذكر عندما قلت لى هذه الكلمة ونحن صغار ؟ ما أزال أذكرها الى اليوم وأعيدها على نفسى كلما تبين لى أننى وغد حقا . اصفعنى اذا شئت أو ابصق فى وجهى أو اطردنى من هنا فانى أستحق كل هذا . اطردنى يا أخى !

فضحكت قائلا : نؤجل هذا .

فقال حزينـــا : لست أمزح ولا أتفكه بل ان قلبى يدمى ونفسى تتحرق . أنا حمار حقا لأنى ظننت أنها امرأة ، وظننت أنى انسان يمكن أن تحبه امرأة .

وكانت هذه أول مرة أسمعه يتحدث عن النساء .

وقلت له : ما كنت أعرف أن للمرأة شأنا معك .

فقال متحسرا : بلوى ! أعترف لك بأنى أغبى الخلق لأنى أعرف صورة وجهى وشكل جسمى ومع ذلك أقاوح . كل امرأة رأيتهـا كانت تسخر منى ومع هذا أعود الى غيرها . ولكن هذه اللعينة التى رأيتها فى السوق كانت شيطانة . جعلتنى أنسى كل شىء وأعتقـد أنها تحبنى . أتصور هذا ؟ النهاية . لم أكن فى هذه المرة الا كمـا كنت دائمـا قليل العقل قليل النظر أو بالاختصار كنت حمارا .

فقلت فى ضجر : ليس هذا جديدا عندى . مالى وكل هذا ؟

فقال : النهاية ، ذهبت الى (أبو المطامير) لأشترى صفقة قطن بالنقود التى أخذتها منك . أردت أن أقلدك وأجرب حظى ولم أعلم أنى مشئوم مؤبد . الم أقل لك لا تحاول اغرائى . النهاية ، ساقنى حظى الأسود الى اعرابية تبيع عشرة أرطال من القطن . فقلت استفتح بها . يا للداهية السوداء يا سيد أفندى ، كان وجهها مثل القمر وعيناها مثل عينى الغزال وضحكتها تطير العقل . أتعرف ماذا حدث ؟ قل لى رأيك بالصراحة ولا تخجل من أن تقول لى يا حمار ! أكبر حمار خلقه الله .

فضحكت برغمى وقلت له : لست الوحيد .

فصاح قائلا : أبدا . لا يمكن . أتصدق أن اذهب لأشترى القطن فتجعلنى الشيطانة اغير فكرى وأشاركها فى تجارة الدجاج ؟ وذهبت معها الى القرية لنشترى الدجاج معا ورضيت أن أقيم فى عشة حقيرة وأنام على الأرض لأكون قريبا من شريكتى . وعادت الى فى اليوم التالى تلبس شالا من الحرير وقالت ان النقود ضاعت منها ، وأخذت تبكى ، والمصيبة أنى صدقتها وأخذت أسرى عنها . واستمرت بعد ذلك تعود الى كل يوم

بقصبة جديدة وبغير دجاج حتى فرغ ما فى جيبى · ولما عرفت انى أفلست انقطعت عنى فذهبت أبحث عنها · أتعرف أين وجدتها ؟ كانت اللعينة واقفة عند دكان بقال القرية تضاحكه بغير خجل · ولما سألتها ماذا تفعل هناك قالت فى وقاحة · « وأنت مالك » وجعلت تسخر منى · قل انى مجنون ، قل انى وغد · قل انى أى شىء واجعلنى أستريح ·

ثم حرك أصبعيه يطلب النقود ·

، ولا أستطيع أن أصف الاشمئزاز الذى غمرنى عند ذلك ، فلو رأيت أمامى حشرة قذرة لكان أهون على من رؤية هذا الانسان المحطم ·

وأسرعت باعطائه جنيها لأصرفه عنى ووقفت أنظر فى أعقابه بشعور من يرى خنزيرا يخرج من بركة طين ·

وداخلنى سخط شديد لا عليه وحده بل على نفسى أيضا ، فكيف عميت عن هذا الرجل ورضيت بأن أتخذه رفيقا فى سبيل الربح من التجارة ؟ وكيف سمحت لنفسى أن أقرن نفسى به وأنا كبير عاقل ، وهو الذى نفرت من صحبته وأنا صبى جاهل ·

ونزلت الى المدينة سالكا طريقى المعتاد حتى بلغت جانب الترعة وكان الجو دافئا يتنفس بروائح الخريف ·

وكانت الساعة عند ذلك الثالثة بعد الظهر فعزمت على أن أجول بين الحقول بقية النهار ، وكان معى كتاب جديد من الكتب التى ظهرت بعد الحرب وعنوانه بالانجليزية معناه « المدينة الفاضلة » ، وهو يتحدث عن المآسى التى أصابت المدنية الأوروبية من فساد الأحكام واضطراب النظم ، وفساد القائمين على تلك الأحكام والنظم · الحال واحدة فى كل مكان مع فارق واحد وهو أن الناس هناك يكتبون عن عيوبهم ليلتمسوا الدواء لها ·

وكانت أشعة الشمس الخافتة ترنو كالمريضة الى العالم الذى تتمسك بالبقاء فيه ، وأوراق الشجر تلمع من أثر قطرات خفيفة تتساقط من غمامة عابرة ·

بقيت هناك الى ساعة الغروب ثم عدت الى المدينة وكانت رائحة الهواء رطبة تفوح بعبق عطن لا أستطيع وصفه لكنه يثقل على الصدر · ولما وصلت الى شارع المديرية سمعت ضجة بعيدة فى ميدان المحطة ، فاتجهت الى هناك مسرعا،وكان الميدان يموج بجموع كبيرة من شبان وأطفال يلوحون بأيديهم ويتواثبون فى اضطراب · وعلا صوت هتاف من وسط الميدان فذهبت الى قريب من سور المحطة لأعرف ما هناك،وضحكت ضحكة مرة عندما تبينت أنها مظاهرة سياسية · وكان الهتاف يتعاقب بين حياة السيد أحمد جلال وبين سقوط محمد باشا خلف ·

ورايت عن بعد شـــابا محمولا على الأكتاف يهز يديه فى عنف ويصيح بأعلى صوته متأنقا فى ندائه يوقعه توقيعـا منظما كأنه منشد محترف : يحيى السيد أحمد جلال ، يحيى حاتم دمنهور ! يحيى المخلص الأمين ، وكان يفصـــل بين كل حيـــاة وأخرى بهتاف آخر من السقوط للمنافس البائس · وكدت أنصرف من الملال لولا أن سمعت صفيرا عاليا يشبه صفير حمادة الأصفر · أيكون هو ذلك الشاب المحمول على الأعناق ؟ ولم يخب ظنى عندما شققت الصفوف واقتربت منه فانه كان عند ذلك ملتفتا فى اتجـاهى ، وأخـــذ يلقى على الجمع المحتشد حوله حـــداء والجمع يردد وراءه اسم السيد أحمد جلال ـ المحسن الكريم ـ السيد جلال ـ الوطنى الكبير ـ السيد أحمد جلال وهكذا حتى أتم نحو عشرين حداء والجموع تردد اسم السيد من ورائه ·

وضحكت برغمى مع شدة حنقى ، فان حمادة كان حقا بارعا فى تمثيل دوره · ولما فرغ من حدائه رفع يده الى فمه فصفر صفيرا عاليا انطلقت بعده ضحكة من الجمع الكبير ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها · ثم نزل من فوق الأكتاف وأخذ المتظاهرون ينصرفون فى اتجاهات شتى ، وبقيت أنا فى مكانى مستغرقا فى دهشتى · واقترب منى حمادة بعد أن هدأ الزحام ونادانى قائلا : ماذا تصنع هنا يا سيد أفندى ؟

فقلت ضاحكا : أتفرج عليك ·

فمد يده نحوى مسلما وقال :

ـ وماذا تظن يا عم · أنموت من الجوع أم ننتحر ؟ هات نقودا أصفر لك وأصفق وأهتف · اتظن انى أبله ؟ خمسة جنيهات كاملة من أجل شغلة ساعة ·

فقلت : فقط ؟

فقال : تجربة أولى · ولا شك ان التجربة الثانية اغلى · هل سررت من طريقتى ؟

فقلت ضاحكا : جدا · مهرج من الطبقة الأولى دائما ·

فضحك حتى بدت أسنانه الصفراء وقال :

ـ أنا والله معجب بك يا سيد أفندى · أتعرف ماذا يعجبنى فيك ؟ أعرفك من الصغر وكنت دائما هكذا ، لا يعجبك أحد ولا يهمك أحد · أفلاطون !

واقترب مني يريد أن يضع ذراعه حول عنقي للدلالة على اعجابه . فشممت رائحة الخمر تفوح منه ـ رائحة خمر رخيصة ـ جعلتني أبعده عني كارها .

فقال : ألم أقل لك ؟ النهاية يا عم . لماذا لم تذهب الى السيد أحمد جلال ؟

فقلت : وماذا أصنع عنده ؟

فقال : أتنكر مني ؟ ألم يبعث اليك مصطفى عجوة ؟ والمائة جنيه يا عم سيد ؟

فقلت في حنق : أي مائة ؟

فقال : هل تظن أني طامع فيك وأريد مقاسمتك ؟

فقلت غاضبا : هذا كذب . أتقول ان السيد أحمد أرسل الى مائة جنيه ؟ ولماذا ؟

فقال : ولماذا تغضب يا أخي . كل منا له أجرته . أنا خمسة وأنت مائة . هذا أقل ما يلزم . النهاية يا عم أنا تحت الأمر ، واذا احتجت الى شيء فانا في خدمتك ، سكرتير ، محصل ، وكيل ، كما تشاء . أي خدمة .

فقلت في دفعة : ما هذه الألغاز يا حمادة ؟

فقال : اسمع يا عم : جيبي عامر وريقي ناشف وجوفي خال . ها . ها . ها .

وانصرف عني فجاة بغير أن أعرف معنى أقواله ، ولكني لم أقف طويلا عند هرائه المخمور .

وكنت لم أطعم شيئا منذ الصباح فعرجت على مطعم يبيع الفول المدمس وأكلت بشهية عظيمة ، ثم شربت فنجانا من الشاي في قهوة مجاورة له ، وجلست استعرض مناظر يومي منذ جاءني حمادة الأصفر في منزلي . وعاد الى شعور الضيق الذي كان يملأ صدري . وعاودني سؤالي القديم بتردد في الحاح : ماذا اقصد في هذه الحياة ؟ وبدت لي حياة فارغة لا يملؤها شيء ، بل تطفو وهي جوفاء مع دفعات التيار الذي يتقاذف بها . لم أفلح عاملا ولا تاجرا كما لم أفلح طالبا ، واتجهت كالحائر قبل المشرق والمغرب ، واصطدمت في كل مرة في آخر سيري بنهاية الطريق فعرفت أني أسير في عطفة مسدودة .

وقمت من القهوة أسير في الطريق لا أقصد الى وجهة ، فدخلت شارع المديرية ثم شارع السوق ووصلت آخر الأمر الى شارع

(أبو الريش) وكانت الطريق المؤدية الى محلج السيد أحمد جلال تتلألأ بأنوار المصابيح القوية ، وباب المحلج يبدو من بعيد مثل قصر مزخرف بباقات من الأضواء الملونة . فعرجت الى يسارى ودخلت الى السرادق الكبير الذى كان فى رحبة المحلج ، وكان السيد أحمد جلال جالسا فى الصدر فلما وقع بصره على نادانى فى مودة :

ـ تفضل يا سيد أفندى !

وقام لاستقبالى ، فاتجهت الأنظار نحوى وقام من هناك وقوفا مع السيد أحمد . فسلمت بتحية عامة بعد أن صافحت السيد ، واستأنف الجالسون الحديث فقال السيد أحمد :

ـ نحن نتحدث عن هؤلاء الذين يستعينون بالحكومة علينا يا سيد أفندى ، مع أنهم يقولون ان الانتخابات حرة .

فصاح مصطفى عجوة : دعهم يفعلون ما يشاءون فنحن الأقوياء . الشعب يفرق أصواتهم .

ونظر الى وكان وجهه أزرق محتقنا من التحمس . فوضعت يدى على وجهى لأدارى ابتسامتى . والتفت السيد نحوى قائلا :

ـ وما رأيك يا سيد أفندى ؟

فقلت : فى أى شيء ؟

فقال : كنا نتكلم فى انشاء جريدة .

فبادر مصطفى قائلا : فكرة عظيمة .

ولم يكن فى الفكرة ما يمنعنى من أن أقول انها عظيمة ، ولكنى عندما سمعت صوت مصطفى عجوة شعرت برغبة شديدة فى المخالفة،ولم أجب عن السؤال لأن أصواتا أخرى تسابقت الى الاجابة .

فقال الشيخ القرش : فكرة مدهشة بغير شك .

وقال الوزان الذى حل محلى ـ واسمه الشيخ مسلم : مشروع وطنى.

وقام مصطفى عجوة صائحا : يحيا السيد أحمد جلال .

فصفق الحاضرون وصاحوا يرددون الهتاف والتفت السيد أحمد نحوى قائلا :

ـ هل توافق على الفكرة ؟

فقلت فى هدوء : المهم هو تحديد الغرض منها .

فقال مظهرا الارتياح : عظيم ·

والتفت الى من حوله قائلا : حسن جدا · الآن اتفقنا · أتوافقون على اقتراح الشيخ القرش ؟

ونظر الى قائلا : ما رأيك فى أن يكون اسم الجريدة « الواعظ » ؟

فقلت : يمكننا أن نجد الاسم المناسب فى كل وقت ·

فصاح الشيخ القرش : الاسم أولا · الاسم هو العنوان ·

وصاح مصطفى عجوة معززا : نعم العنوان ·

فقال أحد الجلوس : الواعظ يا مولانا يصلح لجريدة دينية · المنار أحسن ·

فقام الشيخ القرش واقفا وقال فى غضب : الواعظ يدل على المعنى واضحا ، فيه كل المعانى ·

فصاح شيخ آخر : نسميها المشكاة ·

وضحك الحاضرون عندما قال السيد أحمد فى سخرية :

ـ المشكاة ؟

وقال الشيخ : قال الله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » ·

وتعالى صوت قائلا : لماذا لا نقول المصباح · هذا أسهل ·

وقالت أصوات أخرى : نعم المصباح المصباح ·

فصاح الشيخ القرش فى غضب : أى مصباح ؟ هذه كلمة مبتذلة · اذا كان ولابد فليكن « النبراس » ·

وصاح مصطفى عجوة : النبراس اسم جريدة هنا ولا يجوز أن نأخذ نحن هذا الاسم ·

فقال القرش : نسميها النبراس الجديد يا أخى ·

فانفجرت ضحكة عالية من الجميع كان لها أثر فى تخفيف حرارة المعركة ، وقلت للسيد أحمد جلال :

ـ أظن أنه من الحكمة تأجيل اختيار الاسم الآن :

فقال السيد : هذا رأى حسن ·

ثم قام قائلا : تعال معى يا سيد أفندى ٠ عن اذنكم ، اسمحوا لى أن أذهب مع سيد أفندى لنعد المشروع ، وخرج من السرادق ، وسرت وراءه شاعرا بأهميتى ، ولما دخلنا الى المكتب أشار السيد الى مقعد قريب منه فجلست وجلس هو على المكتب وبدأ قائلا :

ـ أنا ممنون جدا يا سيد أفندى من هذه الزيارة،وأشكرك بنوع خاص على اجابة دعوتى ٠

فقلت فى دهشة : لم تصلنى منك دعوة ٠

فرفع حاجبيه قائلا : ألم يذهب مصطفى اليك ؟

فقلت : لا ٠

فقال مستمرا : على كل حال هذا أملى فيك يا سيد أفندى ٠ أنت مثل ولدى ، والظروف هى التى تجعلنا نعرف الصديق٠لا شك أنك تعرف أن هذه الأوقات عصيبة وخصوصا لأن منافسى محمد باشا قريب رئيس الوزارة ٠

ومع أنهم يقولون ان الانتخابات حرة فان المصلحة الوطنية تجعلنا نجاهد فى سبيل تحقيق رغبة الشعب ٠ وأنت تعرف يا سيد أفندى أنى دائما أحب لك الخير ٠

فشكرته على قوله وانتظرت حتى يقول ما يريد ٠ فاستمر قائلا :

ـ نريد أن ننشىء جريدة وطنية كما سمعتنا نتحدث ، لننطق بصوت الشعب ٠ الجريدة مجهزة بكل ما يلزم ٠ المطبعة تحت يدى وهى مطبعة العجمى رئيس شباب دمنهور ، والورق موجود ٠

فهززت رأسى منتظرا ٠

واستمر السيد يقول : وستكون كمية الورق كبيرة وبالتسعيرة ، وأما الأجر الشهرى فلن يكون محل خلاف ٠ وعلى فكرة يمكنك أن تأخذ الورق الباقى من المقرر لتتصرف فيه ٠ هذه فرصة عظيمة يا سيد أفندى ٠ وطن الورق فى السوق يساوى أربعمائة جنيه كما تعرف ٠

وكنت أنصت اليه وأسأل نفسى « ماذا يقصد ؟ »

وختم السيد حديثه قائلا :

ـ هـذه فرصة عظيمـة يا سيد أفندى ، والقطار السريع لا ينتظر الا قليلا ثم لا يقف لأحد بعد ذلك ٠

وقلت فى نفسى : القطار السريع مرة أخرى ؟

ولمحت السيد يخرج من جيبه ظرفا سمينا ويضعه أمامى قائلا :

ـ هذا مبلغ صغير يا سيد أفندى ، مقدمه ليس الا ٠

ولست أدرى ماذا حدث لى عندما سمعت قوله ، فانى رفعت رأسى قائلا وقلبى يتحفز :

ـ الا نضع برنامج الجريدة أولا ؟

فاجاب مسرعا : هذا شىء واضح لا يحتاج الى اضاعة وقت ٠ أليس كذلك ؟ ونحن فى حاجة الى كل وقتنا ٠ المهم أن نكسب المعركة ٠

فقلت متمالكا شعورى : فى سبيل أى شىء ؟ ماذا نقصد من وراء المعركة ؟ هذا ما أسأل عنه ٠

فقال فى دهشة : هى المعركة الانتخابية ٠

فقلت : ولكنى أسأل عن الجريدة ٠ أليست للنطق بلسان الشعب ؟

فقال بسرعة : طبعا ٠

فقلت فى عناد : اذن فماذا نقول على لسان الشعب ٠ اننا نريد أن يلتف الناس حولك عن اخلاص ويشعروا بأنك تنطق بلسانهم حقا ٠ ومن المصلحة أن نرسم ما تقوله للشعب حتى يعرف المبادىء التى ينتخبك من أجلها ؟

فقال فى فتور : مثل ماذا ؟

فقلت : الشعب طبعا يريد أن يعيش ويشبع ويلبس ويسكن ٠ ويريد أن يتعلم ويتداوى ويحس أن الحكومة تخدمه ولا تسلبه ٠ يريد من البرلمان أن يجتمع للنظر فى مصلحته لا فى مصلحة أعضائه ٠ ويريد أن يكون أعضاء البرلمان خداما له لا سادة يستغلون ثقته ٠ هذا ما أظن أنه صوت الشعب وهذا ما يصح أن تبايع عليه الشعب ٠

وكان السيد ينظر الى بوجه ينطق بالضجر،ولأول مرة لاحظت عليه أنه ينظر الى وجهى نظرة ثابتة غاضبة ٠

ثم قال فى استياء : قل لى يا سيد أفندى بالصراحة ٠ هل صحيح أنك تريد الانضمام الى محمد باشا خلف ؟ هذا ما قيل لى ولكنى أستبعده ٠

وبدأت أفهم الموقف على حقيقته ٠ فقد سمع أنى سأعمل داعية لمحمد باشا منافسه فأراد أن يشترينى أولا ٠ وضحكت من الفكرة لأنها كانت مفاجأة ٠

فقال غاضبا : ماذا يضحكك يا سيد أفندى ٠

فقلت له : أنا آسف ٠ لم أقصد شيئا سوى أنه لم يخطر ببالى أن اقوم بالدعاية لأحد ، ولست ممن يصلحون لمثل هذه الخدمة ٠

فقال فى شىء من الحدة : قل لى رأيك بالصراحة ، وأنت حر طبعا ٠

فقلت : ليس قولى غامضا يا سيدى ، لست أصلح للدعاية الا للمبدأ الذى أومن به ٠

فقال فى فتور : أتتهم مبدئى ؟

فقلت ثابتا : لم أعرفه بعد يا سيدى ٠

فقال فى أنفة : هذه مناقشة لا فائدة منها ، والوقت ضيق لا يحتمل مثل هذا ٠ قل لى فى بساطة أنك تقبل أو ترفض ٠

فصعد الدم الى رأسى وقلت :

ـ ماذا أقبل وماذا أرفض يا سيدى ؟ انك لم تعرض على فكرة ٠ كل ما عرضته هو هذا الظرف الذى أمامى والورق الذى يمكن أن أبيعه فى السوق السوداء ٠

فقام قائلا : أنت تتعدى طورك يا سيد أفندى ٠ أنت تكلم السيد أحمد جلال ٠

فقمت كذلك قائلا :

ـ وأنت أيضا تكلم سيد زهير ٠

فصاح منفلتا من زمامه : هذه وقاحة !

وفى لحظة انفلت الزمام من يدى أيضا وقلت :

ـ بل الوقاحة أن تشتمنى ٠

فاستشاط غضبا وقال : اخرس ٠ أنت محتاج الى أن أؤدبك حتى تعرف كيف تكلمنى ٠

وتنبهت عند ذلك الى أى حد انفلت الزمام منا جميعا ، والى العاصفة التى هبت على غير انتظار ٠

أهكذا يصل الأمر بينى وبين السيد أحمد جلال ؟ هذا الرجل الذى لم أره مرة فى حياتى يغضب ؟ أهى حمى الانتخاب أم هناك سبب آخر جعله يظهر فى هذه الصورة التى لم أعرفها فيه طوال هذه السنوات ؟

وأردت أن أتدارك الأمر فسكت مطرقا ولم أجب على كلمته الأخيرة ، ولكنه تمادى قائلا :

ـ ساعرف كيف إسحق غرورك هذا · سأحطمك ·

فوجدت نفسي اضحك ضحكة عالية ·

وزاد غضبه فقال : سأعرف كيف أحطمك وستندم قريبا ·

فقلت في سخرية : وكيف تحطمني ؟ هل أنت اله أيها السيد ؟ ثم لماذا تريد أن تحطمني ؟ ألأني لا أسخر نفسي لك ؟ ألأني أرفض أن تشترى ضميرى ؟ اذن فاسمع أيها السيد·افعل ما تقدر عليه فلست أعبأ بتهديدك · افعل ما تقدر عليه فلست أرهب سطوتك · أنت لا تملك من أمرى شيئا لأنى غير محتاج اليك فى شىء · أنت لا تزيد فى نظرى على صندوق مملوء بالذهب فى قاع المحيط ·

وتركته مبادرا قبل أن يجيبنى ، وكان ينظر نحوى هائجا ينتفض من الغيظ ·

ولما صرت فى فناء المحلج واستقبلت الهواء البارد أحسست أن جسمى كله يشتعل حرارة · وخرجت متباعدا عن المكان الذى فيه السرادق حتى لا يرانى أحد·وكان قلبى يغلى غيظا ، ولكنه كان فى الوقت عينه حزينا آسفا على هذه العاصفة التى ثارت فجأة ·

كانت الساعة العاشرة من المساء عندما خرجت من محلج السيد أحمد جلال وسرت فى الطريق المؤدية الى جسر الترعة ، وأنا موزع بين الرضا والأسف والقلق · أما الرضا فلأنى كنت أحس بوجودى منذ وقفت أمام السيد الكبير وجبهته برأيى ورددت عليه اهانته وتحديت سلطانه عندما هددنى بأن يسحقنى ويحطمنى · وأما الأسف والقلق فلأنى كنت أفضل لو لم أصطدم بالسيد أحمد مثل هذا الاصطدام الذى لم يدع سبيلا بيننا الى الأمل فى حفظ مظاهر المودة والمسالمة · فانى عندما خرجت من خدمته من قبل لم أقطع ما بينى وبينه قطعا يحول دون الرجوع الى مصافاته ، ولهذا لم أتردد فى أن أذهب اليه لأبيع له قطن الشرنوبى ، ولم يتردد هو فى أن يبعث الى لأكون معه فى أيام الانتخابات · ولكن تلك المصادمة الأخيرة جعلت موقف كل منا نحو الآخر لا يقل عن موقف العداوة الصريحة · وما كنت أحرص على شىء مثل حرصى على حفظ مظاهر المودة بينه وبينى على الأقل · وقد تحرج الموقف بيننا فجأة ولم يكن ليخطر ببالى أن ذهابى اليه فى تلك الليلة يؤدى الى مثل تلك المغاضبة ·

سرت في الظلام اراجع نفسى وأجادلها ، والدوافع المتعارضه تتقاذف بى ، حتى اقتربت من عطفة من العطفات الصغيرة التى تنتهى الى الجسر ، فلمحت عندها جمعا كبيرا من رجال ونساء وأطفال تعلوا أصواتهم في سكون الليل ، ولا يظهر منهم في الظلام الا أشباح تتحرك في الأشعة الخافتة من مصباح ضئيل عند رأس العطفة ، ولم أجد بقربى عطفة أخرى أستطيع أن أنفذ منها الى المدينة حتى أتفادى المسير بين ذلك الجمع ، فلم أجد حيلة سوى أن أتقدم وأشق طريقى • وكان الناس يتزاحمون ويتواثبون ويصفقون في زياط ويثيرون الغبار القذر بأقدامهم حتى ضاقت أنفاسي من روائحه ، فأسرعت في السير كاتما نفسى حتى اجتزت بهم وبدأت أملأ صدرى من الهواء الخالص عندما بعدت عنهم • ولكنى سمعت من خلفى صيحات مذعورة تنادى « الاسعاف » ، وأصوات أخرى تصيح « لقد مات » فتوقفت عن سيرى ثم اندفعت بغير تفكير عائدا الى موضع الزحام لأسأل من هناك عما حدث ، وكان أول ما خطر لى أن هناك غريقا يحتاج الى اسعاف • وتدسست بين الجمع حتى وصلت الى قلب الحلقة فاذا أنا أمام شخص حمادة الأصفر ملقى فوق كومة من التراب لا يعى شيئا ، ومن حوله بركة قذرة من المواد العفنة التى طردها من جوفه • وشعرت بوخزة مؤلمة في رأسى كأن مسمارا دق في أعلى صدغى ، وملت عليه في قلق لاستمع الى دقات قلبه ، وأنا متقزز من الرائحة الكريهة المنبعثة منه ومن الكومة التى حوله • وكان جسمه رخوا تغطيه رطوبة لزجة وقلبه يدق ضعيفا ، فلم أدر ماذا أفعل • فما كنت أقدر على أن أتركه هناك وأمضى في سبيلى ، وما كنت كذلك اقدر على البقاء في ذلك المكان القذر لأشارك المتزاحمين حوله في الصياح عبثا لطلب الاسعاف • فأخرجت منديلين من جيوبى وأخذت أمسح وجهه • ورقبته ويديه مما علق بهما من القذر ، وألقيت بهما الى جانب وصحت في الجمع قائلا :

ـ هيا بنا أيها الرفاق نحمله الى جهة نجد فيها الاسعاف •

ولكن الواقفين نظروا نحوى في تردد ونظر بعضهم الى بعض فقلت لهم :

ـ أليس هنا صيدلية قريبة ؟

فقال أحدهم : في السوق •

فقلت متوسلا : أرجو أن تساعدونى على نقله الى مكان قريب نطلب منه الاسعاف •

فاستجاب ثلاثة من الشبان الى ندائى ومالوا في صمت الى الجثة الهامدة ورفعوها معى • واتجهنا الى ناحية (أبو الريش) وهى الأقرب

الى العمران · ولما سرنا نحو مائتى متر بلغنا الباب الخلفى لمحلج السيد أحمد جلال فصاح الشبان فى نفس واحد : هنا !

وعرجوا الى الباب ليلقوا فيه حملهم قبل أن أجد وقتا لمناقشتهم · وهناك ظهر وجه حمادة فى ضوء المصابيح الكهربائية القوية أبيض مثل وجه الموتى · وهب البواب ومعه ثلاثة من العمال يمنعوننا من الدخول ، ولم يجدنى نفعا أن قلت لهم انه « حمادة الأصفر » · وتلفت حولى لأرى موضعا نضع عليه الجسد الذى نحمله فوجدت دكة البواب فطرحناه عليها · وصاح البواب بنا غاضبا ولكنى لم التفت الى أقواله وأخذت أمسح العرق الذى كان يتصبب منى ، وأخذ الشبان الثلاثة يتشاورون بالنظرات فيما يفعلون وصاح أحد العمال بنا « امشوا من هنا » ·

فصحت به : أما تراه يا رجل ؟ نريد أن نطلب الاسعاف ·

فقال مهددا : خذه من هنا وانصرف ·

فصحت به فى غيظ لقد كان فى المغرب يهتف للسيد أحمد ·

فصاح مرة أخرى فى لهجة أعنف : قلت لكم امشوا من هنا · واقترب البواب والعاملان الآخران ليجعلاها معركة · ولكن حمادة تقلب فى تلك اللحظة واختلج جسمه خلجات شديدة،وأخذ يطرد بعض ما تبقى فى جوفه من الفضلات العفنة ، فبعد البواب والعمال صائحين شاتمين ، ولم نجد بدا من حمله والذهاب به عندما جاء البواب وأصحابه يعيدان الكرة علينا ، فصحت بهم :

ـ قولوا للسيد ان هذه البركة العفنة هى بضاعته ردت اليه · هى الجنيهات الخمسة التى أخذها حمادة ثمنا للهتاف فى المظاهرة ·

وحملنا حمادة وسرنا به فى الظلام على الشاطىء الموحش ، واخذ الشبان يبرطمون غضبا · واقتربنا من مخزن قطع سيارات قديمة فاسرع الشبان اليه وألقوا بالجثة عند بابه وعادوا أدراجهم مسرعين ·

وجاء صاحب المخزن ينظر الى فى استنكار فقلت له مستعطفا :

ـ بعض الماء من فضلك ·

وملت على حمادة أدلك يديه،واستمعت الى دقات قلبه مرة أخرى وسمعت صاحب المخزن يدمدم قائلا :

ـ ما هذه الداهية ؟

فقلت له : هذا بائس مسكين وجدته مغمى عليه فى الطريق ·

ويظهر أن الرجـل احس شيئا من الرحمة ، فأتى بكوز من المـاء فرششت منه على وجه الصريع،وكانت دهشتى عظيمة عندما رأيته يتحرك. فناديته مسرورا ولكنه أخذ يطرد من جوفه فضلات أخرى ، فبعدت عنه كما بعد عنه صاحب المخزن مشمئزا وهو يلعن قائلا :

- من يمسح هذا ؟

فاخرجت له ورقة من ذوات نصف الريال وقلت له .

- أنا آسف لازعاجك وأرجو أن تدعو من يساعدك على تنظيفه .

فأخذ الرجل النقود صامتا ونظرت الى وجهه فوجدته ينطق غضبا وغيظا .

فناديت في حنق : حمادة !

فتحرك وأراد القيام ولكنه لم يقدر . فأسرعت اليه لأساعده ، وكان جسمه لا يكاد يتماسـك ، ثم استطاع آخر الأمر أن يقوم مستندا على كتفي وقال بصوت ضعيف :

- سيد أفندى ؟

فقلت : أتقوى على السير ؟

فهز رأسه ولم يجب ، وسار يجر رجليه وأنا أكاد أحمله.ووجدت صعوبة كبرى فى أخـذ أنفاسى ، لأن رائحته الكريهة كانت تنفـذ الى خياشيمى .

وكان من حسن الحظ أن مرت بى عـربة نقل مما تحمـل القطن ، فصحت أنادى السائق أن يقف ليساعدنا ، ولم يخيب الرجل رجائى فوقف وجاء يساعدني.وسألت حمادة أين يقيم فأجاب فى صوت ضعيف ساخر : لا أعرف .

فقلت لصاحب العربة : على طول .

وعزمت على أن أذهب بذلك العبء المخزى الى أقرب قهوة وأتركه بها ما دام قد أفاق . ووصلنا بعد قليل الى قهوة صغيرة فأجلسته بها وبعدت عنه قليلا لأملأ صدرى من الهواء ، وفى نفسى مشاعر شتى من الرثاء والاشمئزاز والعطف والنفور . وجـاء خادم القهـوة فطلبت له فنجانا من الشاى وقطعة من الليمون ووقفت حتى رأيته يشرب . وكان وجهه ما يزال مثل وجه الميت وعيناه غائرتين وشدقاه منطبقين وجلد وجهه مكرشا وعليه خطوط زرقاء عميقة . وتبسم لى شاكرا فبرزت أسنانه كأنها فى جمجمة رمة بالية .

وقال بصوته الحاد :

ـ لا شك أني سببت لك تعبا شديدا · أنا منحوس كما قلت لك يا سيد افندى ، ولكنى لم أقل لك اتعب نفسك · ما كان يضرنى شيء لو بقيت فى الطريق حتى افيق · هكذا أفعل كلما سقطت ، وهذا ما استحق · لا تؤاخذنى فانى لا أحب أن يرحمنى أحد · أكنت تسألنى أين أسكن ؟

ثم ضحك ضحكة عصبية واستمر يقول :

ـ أين تقيم الكلاب الضالة ؟ أين تقيم الحشرات ؟ أقيم مثلها حيث اجد جحرا يظلنى · فى هذه المواخير التى أجد فيها مأوى · أراك تدير وجهك عنى · لست أخشى أن تحتقرنى ولا اطلب منك ألا تحتقرنى · افعل ما شئت فلست أقدر أن أحتقرك أنا الآخر · تفضل أنت يا سيد افندى · هل دفعت ثمن الشاى ؟ هات لى قرشين أولا ·

وفرك أصبعيه كالعادة ·

فقلت متعجبا : كان معك خمسة جنيهات غير الجنيه الذى أخذته منى ·

فضحك مرة أخرى قائلا :

ـ كانت فى جيبى ··· وأخذتها المرأة طبعا · هى حقيرة مثلى · ونحن نتعامل فى صراحة ، هى تسرقنى وأنا أسرقها · هى تقول لى يا وغد وأنا أقول لها يا ساقطة · ولكنها مع هذا تؤوينى ولا يجرؤ أحد آخر على ايوائى· كانت المرأة الأخرى حقيرة مثلها ولكنها وجدت من يخطفها منى فأقفلت بابها فى وجهى · ها ها ها ها ·

أتعرف من هى ؟ زينب التركية ؟ زينب الشقراء · أتعرف من هو صاحبها · هو السيد أحمد · الرجل العظيم الذى كنت أصفق له وأصفر وأهتف · كان ذلك منذ سنوات طويلة · رآها مرة عندما بعثتها اليه تطلب بعض النقود ، لأنى كنت مريضا · وهى بغير شك جميلة يا سيد أفندى· فأسعفنى ببعض النقود ولكنه خطفها منى · أتفهم ؟ وبعد أسبوع واحد طردتنى من بيتها ها ها ها · النهاية يا عم سيد · عمر الشقى بقى · لم أمت عند ذلك وقلت لها فى داهية ، وذهبت الى زينب الأخرى ـ زينب الفلاحة ـ التى أعيش عندها · وهى تعاملنى وأعاملها كما يعامل الكلاب بعضها بعضا · أليس معك نقود يابو زهير ؟

فأخرجت من جيبى ورقة بخمسين قرشا وقذفتها أمامه ودفعت الى خادم القهوة ثمن الشاى ، وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل ·

فقلت لحمادة : أظنك تقدر على السير وحدك · ألا تحاول أن تكون رجلا ؟

فضحك قائلا : ومن قال لك انى أريد أن أكون رجلا ؟ اذهب اذا شئت ودعنى · أنا حشرة · أنا كلب ضال · دعنى أسرع · دعنى أجرى · طريق عفنة مظلمة كلها خوف وقذارة · خوف بالليل والنهار وخوف من أمامى ومن خلفى ، قلبى وعينى وسمعى كلها مخاوف · الأمس مخيف والغد مخيف والحاضر فزع ، وأنا أجرى وأجرى أطلب النجاة ولكنى أتعثر وأقع وأتخبط،والطريق مظلم والأوحال تجعلنى أنزلق ، ومن ورائى أشباح كثيرة تطاردنى ، فأسرع لكى أتخلص ـ أتخلص من هذه الحياة ومن الأشباح التى تطاردنى فيها · ولكنى لا أرى أمامى طريقا للهرب · أتعرف الخوف يا سيد أفندى ؟ هو الذى يجعلنى أهرب ولكنى عندما أحاول الهرب لا أجد مكانا أهرب اليه ، فأهرب من نفسى · أريد النسيان لأهرب ، أريد المرأة لأهرب · أريد الخمر لأهرب · اذهب عنى أنت ودعنى ·

وامتلأ قلبى غما مما سمعت ، وكان منظره وهو يتكلم يشبه منظر المجنون الثائر · فانصرفت من أمامه حزينا أسائل نفسى هل يستطيع أحد أن ينقذ ذلك المسكين ؟ وعدت الى المدينة وأقوال حمادة البائس اليائس تتردد فى ذهنى · وكانت الطرق خالية موحشة والدكاكين مغلقة ولكن الجو كان رطبا لطيفا · ولما وصلت الى كوبرى السكة الحديد اتجهت فى الطريق المؤدى الى شبرا وهو طريق مظلم زاده السكون رهبة لولا رجل مخمور آخر يسير متطوحا ويغنى « الفجر أهو لاح قوموا يا تجار النوم » ! هو الآخر يحاول الهرب والنسيان ولكنه يغنى ، وتركته ورائى لأنه كان يقدم خطوة ويتأخر خطوة · كم بين الناس من هؤلاء المساكين الذين يحطمهم الخوف ! أيستطيع أحد أن يمد اليهم يد المساعدة ؟

وبلغت منزلى وكانت أمى وأختى تنتظران فى قلق من غيابى ، وحاولت أن أظهر لهما هادئا ، بل حاولت أن أكون مرحا · ولكنى استأذنت لأذهب الى غرفتى ، وما كدت أدخلها حتى وجدت نفسى أبكى بكاء مرا ·

وكان ذهنى يضطرم بشعور مختلط من الحزن والغم والرثاء والعجز والضآلة · كانت صورة حمادة تمر فى خيالى فى أوضاع شتى بين تاجر الأسواق المرح وبين قائد المظاهرة المهرج وبين السكير البائس المحطم ·

وأخذت قلمى وجعلت أكتب ولا أدرى ماذا أريد أن أكتب ، ولكن الأشباح التى كان حمادة يتحدث عنها صارت تطاردنى وأنا أكتب ، وكان قلمى يسرع كأنه يريد أن يجد هو الآخر سبيلا الى الهرب ·

ولما تعبت من الكتابة وضعت يدى على رأسى فوجدته يتقد حرارة ، ولكنى لم أتوقف عن الكتابـة ، وكلما فرغت من ورقـة ألقيت بها على الأرض فتطير وتقع حيث تشاء · ولم أشعر بمضى الوقت وكنت لا أكاد أعى ما أكتب · وكلت يدى من الكتابة ولكنى لم أتوقف حتى فرغت من القصـة · ولست أدرى أكان فراغى منها هو الذى جعلنى أحس الاعياء أم أن الاعياء هو الذى جعلنى أفرغ منها · وقمت أترنح حتى استلقيت على سريرى بملابسى ، وكان رأسى يدور ويهتز كأن فى داخله عاصفة ، وكانت عضـلات جسـمى تنبض كما ترف العين · وأحسست فى آخر وعيى طرقا على الباب ولم أعرف من الطارق ، وكان آخر ما أذكر أنى رأيت وأنا مغمض عينى كأن شريطا أغبر اللون يمر أمام بصرى فى سرعة·

فتحت عينى على أثر لمسة فوق جبينى ورأيت أمى جالسة الى جانبى وهى تضع منديلا مبللا على رأسى ، وشممت رائحة (كولونيا) ٠ وكانت أختى منيرة واقفة على بعد خطوة منها جاعلة ذراعيها على صدرها وتنظر نحوى فى لهفة وعلى وجهها ابتسامة حزينة ٠ ولمحت شخصا آخر يقف فى الناحية الأخرى من المنضدة التى وسط الغرفة،وسمعته يقول « صباح الخير يا سيد » ، وكان صوت عبد الحميد عياد ٠ فهمست بصوت خافت « ماذا جرى ؟ » ٠

وقالت أمى فى ابتسامة ضئيلة : كيف أنت يا سيد ؟ وكانت الدموع تملأ عينيها ٠

وأردت أن أتحرك لأجلس ولكن وسطى ومفاصلى وعيناى آلمتنى فعدلت عن الحركة وبدأت أسعل سعالا شديدا ٠ فذهبت منيرة الى المنضدة وملأت ملعقة من زجاجة هناك وجاءت الى لأشربها ، وقالت وهى تتظاهر بالمرح : « أخرج هذا البرد الذى ملأ جسمك » ٠

فاستسلمت لها وشربت الدواء ، فمدت منيرة يدها الى بمقياس الحرارة ، ففتحت فمى هادئا كأنى طفل مطيع ٠ وعدت أسأل سؤالى عندما أخرجت منيرة مقياس الحرارة من فمى فقلت : ماذا جرى ؟

فقال عبد الحميد : المسألة بسيطة ٠ كنت غائبا عن الوعى منذ يومين ، ثم بدأت تفيق الآن ٠ وكانت حرارتك أربعين درجة فصارت الآن سبعة وثلاثين ٠

ولم يدهشنى هذا الخبر كأنى كنت أعرفه من قبل ، وبدأت أتذكر أنى كنت أكتب قصة ٠ فحركت رأسى لأنظر الى أرض الغرفة قائلا : ألم تكن هنا أوراق ؟

فقال عبد الحميد فى مرح : عظيمة يا أستاذ سيد ٠ ولماذا لا تكتب على كل ورقة رقمها ؟ وجدت صعوبة كبيرة فى ترتيب الأوراق قبل أن أقرأها ٠

فقلت فى اهتمام : وأين هى ؟

فقالت أمي : لا تجهد نفسك يا ابني ٠

وقالت منيرة : سأحضرها لك اذا شربت المرقة التي أعددتها لك .

وخرجت مسرعة فلم تسمع جوابي عندما قلت :

ـ لا أريد شيئا ٠

وقال عبد الحميد : لم أعرف أنك أستاذ في القصة ٠

فقلت في سرور : هل قرأتها ؟

فقال : رائعـــة ٠

فأردت أن أتكلم ، ولكن السعال منعني وكان شديدا يكاد يمزق صـــدري ٠

ودخلت منيرة تحمل صينية صغيرة وضعتها على المنضدة وقربتها من السرير قائلة : كن ولدا طيبـا ٠

وجلست جنبي على السرير وأخـذت رأسي فوق ذراعهـــا وجعلت تسقيني ملعقة بعـد أخرى وكان عبد الحميد يتحدث عن القصـــة في حماسة ٠ ثم قال :

ـ انها تفيض حياة يا أستاذ سيد وأشخاصها يشعون حرارة ٠ أهنئك ٠ أهنئك بكل قلبي ولو جمعت ما كتبت من هذا النوع لكان كتابا بديعـــا ٠

فأزحت الملعقة التي كانت في يد منيرة وقلت : انها أول قصة ٠

فصاح : مستحيل ، أهذه أول قصـــة ؟

وأخرج الأوراق من جيبه وجعل ينظر فيها ٠

ولم أرض أن أشرب شيئا بعد ذلك من المرقة،فحملت منيرة الصينية وخرجت بها فقلت لعبد الحميد :

ـ أظنك تجاملني ٠

فقال في هدوء : لو أردت المجاملة لما أرسلتها الى بريد الأحرار ٠

فصحت : بريد الأحرار ؟

وعاودني السعال فصاحت أمي : يا ابني لا تجهد نفسك ! ومع كل ألمي من السعال كان قلبي يهتز فرحا وزهوا ٠

وقلت في صوت خافت : أتظن الجريدة تنشرها ؟

فقال عبد الحميد مبتسما : اظنها تنشرها من أجل عنوانها على الأقل ٠

واخذت أتذكر العنوان فلم أذكره وقلت :

ـ لست أذكر عنوانها ٠

فتبسم عبد الحميد قائلا : وضعته أنا « الفيلسوف المحطم » أليس هذا عنوانا يستحق النشر ؟

وعلى فكرة ـ كان الأستاذ على مختار صاحب بريد الأحرار من أقرب اصدقائى فى الدراسة ٠

لا مؤاخذة اذا تركتك الآن يا أستاذ سيد ؟ وسأحضر فى المساء بعد القاء دروسى ٠

واستأذن منصرفا فضغطت على يده شاكرا ولكن يدى كانت ضعيفة ٠ فقلت له :

ـ أشكرك بكل قلبى ٠

ولم أحسب أن ذلك المرض يطول بى خمسة عشر يوما كاملة ، ثم لا يفارقنى الا هزيلا ضعيفا ، فوق ذلك السعال الشديد الذى استمر يضايقنى مدة شهرين ٠ ولكن الضعف والهزال والسعال لم تعكر على السعادة التى غمرتنى عندما عرفت من عبد الحميد أن بريد الأحرار ستنشر قصتى ٠ وبدأت أخرج الى المدينة بعد شهر من بدء مرضى وكانت حركة الانتخابات تجتاحها وتلهبها ، كانت جموع المظاهرات تتدفق وتتصادم كل يوم ، وكانت اللافتات معلقة فى كل مكان ـ فوق الأعمدة وعلى جدران المنازل وعلى أبواب الدكاكين ـ وكانت الأبواق المكبرة للصوت تصيح فى كل ركن ٠ وذهبت عند أول خروجى الى مطبعة العجمى لأعرف ماذا تم فى جريدة السيد أحمد جلال ، وكان العجمى زميلا قديما فى المدرسة ، فوجدت عنده جمعا كبيرا من الموظفين والتلاميذ ووكلاء المحامين ووزانى المحالج يستمعون الى خطبة يلقيها (مهنى أفندى) وكيل الأستاذ زكريا ابراهيم المحامى ٠ وسمعته يتكلم عن ثورة الشباب على « عملاء الانجليز » ٠

ولما رآنى العجمى رحب بى وقدمنى الى الحاضرين على أنى كاتب دمنهور العبقرى ، وأخذ يتحدث عن قصتى « الفيلسوف المحطم » التى نشرتها « بريد الأحرار » فى ذلك الصباح بالذات ٠ فاستقبلنى الجميع بالتصفيق وطلبوا أن يستمعوا الى كلمة منى ، فاضطررت أن أقف خطيبا لأول مرة فى حياتى بعد أن فرغ الأستاذ مهنى من خطابته ٠ وكانت

خطبتى تدور حول الشعب المحطم الذى ينتظر من ياخذ بيده ولا يجد من القائمين على حكمه الا الطغيان والأنانية والمبالغة فى تحطيمه · وأحسست وأنا أخطب أن المعانى تتدفق على لسانى وكنت أجد صدى حماستى فى السامعين الذين قاطعوا كلمتى بالتصفيق العالى ·

ولما سألت العجمى عن الجريدة بعد انصراف الجميع قال لى :

ـ لن نعمل لحساب أحد من هؤلاء يا أستاذ سيد · وقد عزمت على ترشيح نفسى ·

فكان ذلك نبأ سعيدا عندى،ووعدته بأن أجاهد معه بكل ما أستطيع، حتى تضرب دمنهور مثـلا فى انتخاب المخلصين وان كانوا من صفوف الشعب ·

ومنذ ذلك اليوم أقبلت على معركة الانتخـاب فجعلتها معركتى ، وبدأت من ذلك اليوم بوضـع خطـة مع « أنصار الشباب » لنكتسح المرشحين من « المنافقين » ·

وأخذنا نعد اللافتات وكتبنا عليها بخط أيدينا عبارات تسترعى الأنظار مثل « الأعيان أعوان الطغيان » و « متى يسقط البرلمان حكومة ؟ » و « برلمان الأعيـان بنـاء من القش » وأمثـال هذه من عبارات الدعاية الشديدة ·

وكتبت بيدى لافتة وضعتها فى وسط الطريق أمام مطبعة العجمى وعليهـا عبـارة « أيها الشعب ـ أنا الشعب » ، ونسيت فى وسط هذه الحماسة ذكر قصتى وما كنت أعلقه على نشرها من الاهتمام وكنت أقضى يومى كله وجزءا كبيرا من الليـل فى اجتماعات وخطابة وتدبير الخطط واجتذاب الأنصار · واجتمع لنا عدد كبير من شبان المدينة ولكن صاحبى عبد الحميد أصر على الابتعاد عن هذه « المهزلة » وقال عندما فاتحته فى الانضمام الينـا :

ـ لقد شاهدت هذه الملهاة التافهة مرارا حتى مللتها ·

ولكن رفضه الانضمام الينـا لم يزدنى الا اصرارا على عزيمتى ، وبدأت أحس أن ايمانا جديدا بدأ يقوى ويتجدد فى نفسى· هؤلاء المساكين الذين تطحنهم الحياة لا يجدون لسانا ينطق بآلامهم فعلينا أن ننطق نحن من أجلهم · هذه الألوف المؤلفة من الجياع العراة الجهلة لا يجدون من يعطف عليهم ، وعلينـا نحن أن نعمل من أجلهم · وكانت الخطب التى ألقيها تزيد يوما بعد يوم ، والأنصار الذين يحيطون بنا يتضاعفون ساعة بعد ساعة ، واعتقدنا جميعا أن العجمى قد اجتاح منافسيه فى الانتخابات بغير جدال ·

وتواعدنا قبل موعد الانتخاب بأربعة أيام على عقد اجتماع كبير في مسجد التوبة بعد العشاء ، لأننا كنا لا نقدر على اقامة سرادق كبير يتسع للجموع التي اعتادت أن تتوافد على محافلنا ٠

ولما بدأ الاجتماع تعاقب الخطباء واحدا بعد واحد يتحدثون عن الشباب المخلص والأحزاب المزيفة التي ضلت الطريق ، والحرية التي تتطلب الدماء ، والجهاد الوطني من أجل الجلاء ٠ وجاء دوري فأعلن منظم الحفلة اسمي ووصفني بالأديب الكبير والخطيب القدير وأضاف الى ذلك عددا آخر من الصفات جعلني أخجل ، وان كنت في الوقت عينه امتلأت زهوا وثقة بنفسي ٠

وقمت لأتكلم فبدأت بطيئا هادىء الصوت ، ورتلت بعض عبارات موزونة كنت نمقتها وحفظتها، وأضفت اليها ألفاظا رنانة وسجعات مختارة فطرب السامعون لها ، وتعالى تصفيقهم اعجابا واطمأنت نفسي الى ذلك وبدأت أتدفق ٠ فمن شاء أن يكون خطيبا ناجحا فعليه أن يتحقق أولا من الاستيلاء على عواطف سامعيه فيكون بذلك كأنه يعوم على اتجاه تيار الماء ٠

وكان لذلك الاجتماع دوى كبير في المدينة في اليوم التالي وتحدث به النـــاس مرددين ما قيـــل وتجادلوا فيه بمجالسهم ، فمنهم من أنكره ووصفه بالدعوة الى الثورة ، ومنهم من رضى عنه ووصفه بالاصلاح ، ولكن الجميع آمنوا بأن الأمر قد انتهى الى فوز مرشح الشباب محمود العجمي ٠

ولم يبق على يوم الانتخاب الا يومان فاستقر رأينا على أن نضرب الضربة الأخيرة في الليلة المقبلة ، وتواعدنا على الذهاب بعد العشاء الى المسجد وأذعنا في أنحاء المدينة أنه الاجتماع الأخير ، ولم ندخر وسعا في نشر الدعاية بكل ما استطعنا من الوسائل ، حتى لقد استأجرنا ثلاث سيارات تجوب الأحيــاء وفي كل منها مذيــاع لاعلان موعد الاجتماع ومكانه ٠

وبكرت قبل الموعد بنصف ساعة ذاهبا الى المسجد ، وكنت قد أعددت في نفسي حديثــا ناريـــا تخيرت له مقدمة مسجوعــة تأنقت في عباراتها ، وكنت وأنا سائر في الطريق الى المسجد أرددها وأستمع الى جرس ترتيبها لأقدر موقعها من نفوس السامعين اذا بدأتهم بها ٠ ولما وصلت الى منعرج الطريق الى الشارع الضيق الذي فيه المسجد وجدت بعض جنود الشرطة يسدون منفذ الطريق وهم يلبسون الخوذ الحديدية ، ويمسكون في أيديهم العصي الغليظة ٠ وهب الضابط رئيسهم عن كرسيه فسألني عن وجهتي ، فلما أجبتــه قال لي في جفــاء « ان المسجد مغلق »

فأدهشتنى المفاجأة وأخذت أجادله فأمسك بكتفى فى غلظة ودفعنى قائلا « تفضـــل ! » ٠

وهممت أن أدفعه كما دفعنى ، ولكنى تذكرت أن ذلك قد يؤدى الى عقـــد لا ينبغى أن أتورط فيها فى ذلك الوقت ٠ وانصرفت عنـــه فى مظهر التحدى الصامت ٠ ولما بعدت عنه وقفت مترددا أفـكر فى ذلك الطارىء الذى لم نتوقعه ، ولم أدر كيف نســتطيع أن نتدارك الأمر ٠ وتلفت حولى لعلى أرى أحدا من أصحابى وأنا قلق حانق ، فرأيت بعـد بضـــع دقائق أربعة منهم يجرون أقدامهم فى خذلان ويقبلون من ناحيـــة طريق المسجد ، فأسرعت اليهم ليفرغ كل منـــا حنقه الى الآخرين ، وكاد شعورنا بالخيبة يصرفنا الى أن نيأس وننفض أيدينا من الأمر كله ، ثم اتفقنـــا على أن نذهب الى العجمى لنرى رأيه ، ولعلنا نجد عنـــده بعض أصحابنا الآخرين فنتداول الرأى فيما نصنع بعد هذه الصدمة ٠ وكانت أفواه الطرق الى بيته مغلقة بجماعات من رجال الشرطة فاضطررنا الى أن نتفرق أفرادا ونتسلل من الحوارى الضيقة الى البيت ٠ وكان العجمى هنـــاك يغلى حانقا لأنه سبقنا الى المسجد وحدث له مثل ما حدث لنا ٠ واجتمع الينا بعد قليل عدد كبير من أصحابنا وأغلقنا علينـــا الأبواب وأطفأنا الأنوار الا شمعة ضئيلة فى الغرفة التى كنا بها فى آخر البيت ٠

وبعد ساعة من جدال عنيف أجمعنا الرأى على أن نقيم لنا سرادقا كما يقيم الآخرون سرادقات لهم ٠ فان الادارة لن تجد سبيلا علينا ما دامت تبيح ذلك لغيرنا ٠ وتبرعت فى حماستى بخمسة جنيهات واندفع بعض الأصحاب يتبرعون حتى اجتمع لنـــا ما يكفى لاقامة السرادق واستئجار الأثاث والمصابيح ، ولم أعد الى منزلى فى تلك الليلة الا فى ساعة الفجر بعد أن اتفقنا مع الفراش على اقامة سرادقنا فى فضاء واسع فى جنوب المدينـــة ٠

وكان اليوم التالى آخر أيام الدعاية ولابد لنا من أن نضرب فيـــه ضربتنا الأخيرة ، فتفرقنا فى أنحاء المدينة نعلن على الناس نبأ الاجتماع فى السرادق الكبير الذى يحمل اسم « شباب دمنهور » ٠

وقضيت ســـاعتين بعد الظهر فى اعداد خطبتى ثم ألقيتها مرتين لأسمع صوتى وأقدر ما يكون وقعها فى الأسماع ، فلما حانت الســـاعة الموعودة كنت مستعدا مطمئنـــا ٠ وخفق قلبى سرورا عندما ذهبت الى السرادق فوجدته مزدحمـــا بالوف من أهـــل المدينة ، واستقبلنى جمعهم بالتصفيق والهتاف كأنى أصبحت زعيما ٠

وقدمني الأصحاب لأتكلم أولا وصعدت متمهلا وأخذت أخطب هادئا واثقا من عطف الأسماع ، فما هي الا دقائق قليلة حتي كنت أشعر بأنى أسبح مع التيار · وعلا صوتى شيئا فشيئا واتقدت حماستى حتى لم أجد داعيا الى قراءة خطبتي ، فوضعت الأوراق وتدفقت فى الحديث ، وتحركت وكانت المعاني والصور تتمثل لى وتستولى على انتباهى حتى كدت لا أبصر شيئا مما تقع عليه عينى ، فلم أتنبه الى شيء الا عندما لمحت فجأة أن هناك حركة فى الصفوف المتزاحمة فى السرادق · وسمعت أصواتا تتعالى عند المدخل ، فتوقفت قليلا لأرى ما تلك الحركة الطارئة فاذا الصفوف المتراصة تتحرك ثم تسرى الحركة فيما يليها وما هى الا دقيقة قصيرة حتى صار السرادق كله الى فوضى شاملة ، وبدأ البعض يتماسك بالبعض عند المدخل، وتعالت الكراسى وهبطت واهتزت المصابيح وانطفأ أكثرها ، وتدافع الناس خارجين الى الطريق من كل جانب ، فلم أفهم من كل ما حدث الا أن الاجتماع قد فشل وحلت محله معركة ·

وأسرعت الى مدخل السرادق متحفزا للعراك ، والغضب يكاد ينفجر بصدرى ، فلما بلغت مكان المعركة رأيت بعض أصحابى مشتبكين فى صراع عنيف، فاندفعت معهم أضرب بيدى وقدمى، وأصابتنى لكمات كثيرة لم أعبأ بما نالنى منها ، ولم أقف لأفكر فى جدوى ذلك العراك بعد أن ضاع علينا كل تدبيرنا · وفيما أنا منصرف بكل جوارحى الى المعركة رأيت جمعا كبيرا يهبط علينا من أقصى الطريق وفى أيديهم هراوات يلوحون بها فى الهواء ويصيحون « يلا من هنا ! » فتركت أنا وأصحابى من كان فى أيدينا من الخصوم ، ووقفت مبهوتا لا أكاد أصدق عينى عندما رأيت فى طليعة العصابة شخص حمادة الأصفر يحمل فى يده هراوة أطول من قامته ، ويشير بها نحوى قائلا : « يلا من هنا ! » · فأعمانى الغيظ عن كل حكمة واندفعت نحوه آخذا بتلابيبه قائلا : « أنت تقول لى هذا ؟ » وأحاط بى أصحابه ووجوههم تنطق بالشر ، فتخلص حمادة من يدى وارتد الى الوراء · قائلا فى وقاحة :

« لا تمد يدك الى ، يلا من هنا ، قلت لك » فقلت فى حقد : « أيها النذل ، أيها العبد ! » ·

فضحك ضحكة عالية حتى بدت أسنانه ونظر الى أصحابه الذين اندفعوا نحوى وصاح بهم .

ـ دعوه يا جماعة · ارفع يدك أنت وهو !

ثم اتجه الى قائلا :

ـ مالك أنت ؟ أنا نذل وكلب ابن كلب · مالك أنت ؟ « يلا من هنا ! » ·

ثم وضع أصبعيه فى فمـــه وصفر صفيرا عاليا وقال : اسمعوا يا جماعة ! يحيا السيد أحمد جلال ! » فصاح الجمع بعده يرددون هتافه. وصفر لهم مرة أخرى وصفق وضحك صائحا « هيه ! » مع المد الطويل . فضحكوا جميعا وصاحوا مثله ، ثم صفر مرة ثالثة مثل القطار ورفـع هراوته الى كتفه وجرى أمام أصحابه وهم من ورائه يصيحون ، وتركونى واقفـــا فى مكانى الذى لم يبـق به غيرى . وكان حنقى لا يزيد عليـه الا خجلى وشعورى بالخيبة. وتلفت حولى كالمذهول فلمحت حمادة الأصفر يعانق مصطفى عجوة فى آخر الطريق . وا أسفاه ! وطفرت الدموع من عينى وشعرت بقلبى كأن يدا قاسية تعصره . أهذا حمادة الأصفر الذى أراه حقا ؟ وعدت الى منزلى يائسا أحدث نفسى أنها مأساة مضحكة مبكية ، هكذا يحشد السادة عبيدهم المحطمين دائما ليضربوا لهم أعداءهم ، حتى يتمكنوا بعد ذلك أن يعودوا اليهم ليجلدوا ظهورهم بالسياط !

- ١١ -

تيقظت من نومي في الصباح على صوت أمي وأنا دهش من أثر السهر والتعب،ورأيتها تمد الى يدها بورقة ، فسألتها ما هي فقالت : « جاء بها رجل وقال انها مستعجلة » ٠

وكانت الورقة بخط ردىء بالقلم الرصاص وفيها :

« سيد زهير شياخة أبو طاقية صناعته وزان ينبه على المذكور بالحضور في الساعة التاسعة صباحا لأمر هام الى مركز البوليس » ٠

فقلت في نفسي : مركز البوليس ؟ ماذا أفعل هناك ؟ وبدأت أتذكر ما حدث في الليلة السابقة ، وكانت الساعة عند ذلك الثامنة ، فالوقت متسع لأفطر وأشرب فنجانا من الشاي وأرتب في ذهني الحوادث التي وقعت ٠ وقمت مسرعا لأستحم وأتوضأ ، وكانت الساعة التاسعة تماما عندما بلغت مركز البوليس ٠ ولم أكن خبيرا بأسرار مكاتب المركز فعرجت على أول حجرة قابلتني وسألت الجندي الذي كان فيها فلم يرد على لانشغاله بتلميع حذائه ٠ وذهبت الى الغرفة التي تليها ، ولكن المكتب كان خاليا ، فمازلت أخرج من غرفة الى أخرى لسبب أو لآخر حتى بلغت آخر الردهة وكانت طويلة مظلمة فيها حائط على اليمين وأبواب على اليسار ٠ ووجدت في النهاية غرفة مزدحمة بأخلاط من الناس عليهم مظهر البؤس والشراسة ، فعرجت على اليمين في ردهة أخرى فوجدت في صدرها حجرة صغيرة فيها مكتب يجلس عليه جندي ضخم له أربعة أشرطة حمراء على ذراعه ، وشارب مفتول في وجهه ، وهممت أن أسأله عن سبب دعوتي ولكني لم أجرؤ ، لأنه بدأ في تلك اللحظة يصيح بأعلى صوته يخاطب شابا أمامه قائلا :

ـ من أنت ؟ من أنت حتى تجيبني بهذه اللهجة ؟

وكان الشاب الذي أمامه طويل القامة يلبس جلبابا من الصوف على زي أهل دمنهور ، وعلى رأسه طربوش وفي قدميه حذاء ، فاستنتجت أنه لم يكن من عامة الشعب ، ولكني لم أر وجهه لأنه كان متجها الى المكتب ٠ وسمعته يجيب في شيء من الأنفة :

ـ أنا على الحفار ؟

فصاح به الجندى :

الحفار ؟ تشرفنا يا حضرة ، يعنى حضرتك حفـار قبور ؟ أو هى صناعة الوالد ؟

فقال الشاب فى حنق :

ـ اذا كنت لا تعرفنى فلا داعى لهذا الكلام · سألتنى عن اسمى وهذا هو اسمى · وأنا تاجر من أهل البلد ·

فقال الجندى : تشرفنا يا أفنـدم · أقوم لك واضرب السـلام ؟ اهكذا تخاطبنى وتصيح فى وجهى يا قليل الأدب ؟ أهكذا تكلم ·· ؟

فقاطعه الشاب غاضبا : لا تخرج عن حدودك ·

فقام الجندى هائجا من مقعده وخرج من وراء المكتب صائحا :

ـ حدودى ؟ وما هى حدودى يا ولد ؟ أنت قليـل الأدب · قليـل الأدب ألف مرة وتستحق التاديب ·

وأقبل هاجما عليه فضربه على وجهه ضربة شديدة اهتز لها الشاب وثار رافعا يده للاجابة عليها ، فأسرعت من ورائه بغير تفكير وأمسكت بذراعه · فالتفت الى غاضبا ونزع يده منى ·

فقلت له أهدئه : تمهل يا أخى حتى لا يتعـلل هذا الرجـل بأنك اعتديت عليه · كنت واقفا هنا ورأيت كل شىء وسأشهد بما حدث ·

واتجهت الى الجندى قائلا : بأى حق تعتدى على هذا الشاب ؟

وهدأ الشاب نفسه على مضض ووقف ينظر نحو الجندى فى حنق · فضحك الجندى واتجه الى قائلا :

ـ وحضرتك محام ؟

ونظر الى يفحصنى من أعلى طربوشى الى كعب حذائى فقلت له فى غيظ :

ـ ليس لك حق فى ضرب أحد · ليس الناس عبيدا لك ·

وكان ما يزال واقفا ، فوضع يده فى خصره ومد رأسه نحوى مثل ديك محارب وقال :

ـ ومن أنت أولا ؟ من أنت يا حضرة ؟

فأجبته متحديا : اسمع أنت يا حضرة · أنا الذى أسألك من أنت حتى تضرب الناس وتشتمهم ؟ القانون لا يسمح بهذا ويجب أن تعرف الطرق القانونية التى تتبعها ·

فتقدم نحوى ثائرا وقال : يظهر انك تريد أن تعرف القانون . القانون هو هذا .

ودفعني في صدرى بعنف ليخرجني قائلا :

ــ اخرج من هنا . ليس هذا المكتب قهوة لتدخله هكذا .

ولست أدرى ماذا جعلني أفقد اتزانى عنه ذلك وأقدم على العمل الذى منعت منه الشاب ، فاني اندفعت بغير تفكير ورفعت يدى بقوة ودفعت الجندى بقبضة يدى دفعة شديدة في صدره ارتد منها الى الوراء وهو يتطوح . وسخن رأسى فوقفت مستعدا لأعيد عليه الكرة اذا عاد لمهاجمتى ، ولكنه لم يتقدم نحوى بل ذهب الى مكتبه وخبط بيده على الجرس صائحا :

ــ ما هذه المصيبة التى تصبحنا ؟ ما هذا الشيطان الشرس الذى طلع علينا ؟ يا قرنى ! يا على يا مبارك ! يا محمد يابو زبطة !

ودخل جندى وراء آخر فضربوا السلام ونظروا الى الجندى ثم التفتوا الى والى الشاب الآخر فى دهشة .

فصاح بهم صاحب الأشرطة الحمراء :

ــ خذوا هذا اللعين ، خذوا هذا المجرم ابن المجرم .

فصحت : أخرس .

واندفع هائجا : ساعرف كيف أؤدبك . تضربنى أنا ؟ نهارك اسود . وتقول لى اخرس ؟ الى السجن حالا ! أما تسمع يا على ؟ الى السجن حالا ! مالك واقفا هكذا يا على يا مبارك ؟ يابو زبطة يا حمار ؟

فاحاط الجنود بى ليقبضوا على فارتددت الى الوراء صائحا فى ثورة :

ــ لا تقتربوا منى !

وتحفزت لأدافع عن نفسى . فتقدموا نحوى واحدا وراء الآخر ، ودفعتهم عنى واحدا بعد واحد ، فغضبوا وهجموا على هجمة واحدة يضربوننى ويجروننى وصاحب الأشرطة الحمراء يصيح بهم :

الى السجن الى السجن ، حالا ! المجرم ! الكلب ! ابن الـ ...

فما كدت أسمعه يهم بذكر أبى حتى انطلقت من فمى شتائم لا أدرى كيف تدفقت من فمى . وكانت قبضة الجنود على ذراعى الاثنتين وعلى رقبتى مثل كماشات الحديد ، فحملونى غصبا وقذفوا بى فى عنف الى

غرفة وأغلقوا بابها ورائي · وكاد يغمى على من الألم والغيظ ، فلم أتنبه الى ما حولى الا بعد لحظات ، فقمت وأعضائى كلها تنبض ألما ، وجعلت أتحسس جوانب الغرفة المظلمة ، فعلمت أنى فى جحر ضيق لا يزيد على مترين فى مترين ، وأرضه من البلاط وهواؤه عفن الرائحة ·

وكادت روحى تزهق من الضيق والحنق والشعور بالاهانة والظلم ، واندفعت مثل المجنون أصيح بأعلى صوتى وأخبط على الباب بجمع يدى غير مبال ما يصيبنى من الألم · وجعلت أنطق بشتائم مقذعة وألفاظ عجيبة لو سمعتها من غيرى لضحكت سخرية منها · كنت أصيح قائلا : « افتحوا لى أيها المجرمون ـ أنا الشعب ـ افتحوا لى أيها اللصوص وستجدون جزاءكم ـ أنا الشعب ـ أنا الشعب » · ولكن صيحاتى وشتائمى كانت ترتد الى أذنى ساخرة ضاغطة قاسية ، وكلت يداى من الخبط وخارت قواى وبح صوتى ، فتكومت على الأرض مستندا الى ظهر الباب وخيل الى أنى انتقلت الى عالم فظيع ممقوت ليس من عالم الانسان · وأخذت أسأل نفسى « أهكذا يعامل اللصوص والمجرمون ؟ » فلو كنت مجرما بادئا أو لصا صغيرا ثم عوملت هذه المعاملة لخرجت من هذه الغرفة وأنا مصمم على أن أكون قاطع طريق وسفاك دماء ·

ومرت اللحظات بطيئة وخيل الى أننى سأبقى هناك طول حياتى بغير أن يهتم أحد بأمرى ، أو يقدر أحد على اطلاقى كأننى حشرة أو فأر أو كلب · وعدت أسأل نفسى أأنا الشعب الذى كنت أتحدث عنه فى خطبتى فى المسجد وفى السرادق ؟ هل أنا الشعب الذى يخطب السادة وده فى دعاياتهم الانتخابية ، ومن أجله ينشئون مقالات التمجيد فى الجرائد اليومية ؟

وتصاعد برد البلاط الى عظامى فأحسست قشعريرة فى جوفى وألما فى رأسى ، وغثيانا فى نفسى ، فقمت منتفضا ، وتضاعف حنقى حتى كدت أخرج عن وعيى ، وأخذت أخبط الباب مرة أخرى بيدى الاثنتين وأصيح بأعلى صوتى وأشتم وألعن وأهدد ، وعزمت على أن أواصل الخبط حتى تتحطم يداى ثم أخبط بعد ذلك بقدمى حتى تتكسرا ، وبرأسى حتى يتفتت · ولست أدرى كيف استطعت أن أستمر على الخبط والصياح هذه المدة التى مرت كأنها ساعات طويلة ، ثم سمعت بعد حين صوت المفتاح يدور فى القفل وانفرج الباب وتدفق شعاع من النور فى الظلام · وتنفست حانقا وأنا ألهث من الثورة ، ولا شك أن منظرى كان مخيفا لأن الجندى الذى فتح الباب تنحى عن طريقى فى فزع · وكانت يداى تلتهبان من الألم ، ولكنى لم أعبأ بهما وخرجت مسرعا فاتجهت الى غرفة الجندى ذى الأشرطة الحمراء عازما على أن أقتص منه غير مبال ما قد يكون بعدها ·

وصحت بأعلى صوتى عندما اقتربت من غرفته قائلا « أين أنت أيهـــا النذل الطاغية · أيهـــا العنكبوت الحقير ! » ولكنى لم أجده وراء المكتب ، فقلت مستمرا فى صياحى أين صـــاحب الشوارب المصبوغة ؟ اين العنكبوت الذى كان هنا ؟ » فضحك الضابط الشاب الذى كان جالسا وراء المكتب وقال « تفضل هنا » وأشار الى كرسى بجانبه · وكان وجهه يتألق بشرا كأنه يرى منظرا مسليا ، ولكن منظره هدأ كثيرا من فورة نفسى · وكان فتى لايزيد على الخمس والعشرين كأنه تلميذ حسن الهيئة، وأسنانه بيضاء تلمع من وراء ابتسامته ، ووجهه الأسمر الوديع الذى خلا من الشوارب يخالف فى كل شىء شكل صاحب الأشرطة الحمراء ·

وأعاد الضابط قوله : « تفضل هنا » مشيرا الى الكرسى الذى أمامه. فجلست صـــامتا أفرك يدى وأنا أنهج من الجهد ، وكان رأسى ســـاخنا وحلقى ملتهبا · فقدم الضابط الى فنجان القهوة الذى كان أمامه فلم أتردد فى أخذه شاكرا ، وكان ألذ شىء عندى فى تلك الساعة · وكان الضابط فى تلك المدة مطرقا فوق المكتب ينقر عليه بقلم ذهبى فى يده ، وخاتمه الماسى يلمع بأشعة براقة مع حركة يده · ودق جرس التليفون فاستند الى ظهر كرسيه وابتسم وأخذ فى الحديث متبسطا مسترسلا كأنه لا يريد شيئا سوى ذلك الحديث ، فكان يشير بيده إشارات رشيقة معبرة كأنه يريد أن يؤثر فى سامعــه على الطرف الآخر من السلك · وكان أسلوبه فى الضحك أنيقا له نغمة ظريفة سلت من نفسى كثيرا من حنقى ، ولم أستطع أن التفت الى موضوع حديثه لأنى شغلت عن ذلك بما كان يدور فى رأسى من الأحاديث الحانقة ·

ولما فرغ من الحديث اعتدل فى مجلسه ونظر الى قائلا :

ـ هيــه ؟

فلم أدر بأى شىء أجيبه ولا كيف أعبر له عن سخطى واحتجاجى · وما ذنبه هو إذا كان صاحب الشوارب الطويلة قد أســاء الى وظلمنى ؟ وقلت له هادئــا :

ـ لست أدرى يا سيدى ماذا أقول لك ولكنى اهنت هنا واوذيت واعتدى على حريتى ولن أتنازل عن حقى ·

فنقر على المكتب قائلا :

ـ هذا شىء آخر · على كل حال الحاج أمين مخطىء ولكنه رجــل طيب · وكان يجب عليه أن يبدأ بكتابة المحضر بغير دخول فى مناقشات لا فائــدة منها · ولا ضرورة لها · على كل حال لا حاجــة الى تكبير هذه المسائل الصغيرة ·

فصحت : أية مسائل صغيرة ؟

فقال : هذا موضوع آخر نعود اليه فيما بعد · هل انت سيد افندى زهير ·

فدهشت وكدت أعود الى غضبى ولكنى قلت فى استنكار :

ــ نعم انا سيد زهير ·

فقال : هنــاك بعض أسئلة صغيرة وان كانت خطيرة · نعم هى أسئلة صغيرة يجب أن تستوفى الاجابة عليها أولا ···

ولكن التليفون قطع حديثه مرة أخرى فاستند على كرسيه وأخذ يتحدث متبسطا كما فعل فى المرة السابقة ، وبدأت أحدث نفسى فى أثناء ذلك عما أصابنى من الدفع والجر وعن الجحر الأسود المظلم ، وقلت فى نفسى غاضــبا هل يريد هذا الشــاب أن يترك كل هذا بمثل هذه السهولة ويسمى كل ما وقع لى « مسائل صغيرة » ؟

ولما فرغ من حديثه قلت له فى غضب مكتوم :

ــ أحب أن أعرف معنى كل هذا · لم دعيت الى هنا ؟ وماذا تريد أن تفعــل لتقتص لى من هذا الجنــدى الفظ ؟ أنا فرد من الشعب · أنا الشعب اذا شئت · فهل تهدر كرامتى هكذا وألقى فى السجن مثل كلب عقور ثم يقال لى « هذه مسائل صغيرة ؟ » ·

فقال الضابط مبتسما : حصل خير يا سيد أفندى · قل لى أولا هل خطبت فى مسجد التوبة ·

فقلت فى دهشة : وما علاقة هذا بموضوعنا ؟

فقال فى هدوء : هذا هو موضوعنا · هنا شــكوى لا يمكننى أن أسكت عنها ، كنت أتمنى أن تمر هذه الانتخابــات بســلام ولكن ماذا أصنع فى هذه الشكوى ؟

فصــحت : أية شــكوى ؟ كنت أحسب أنى دعيت لكى تســمعوا الشكوى التى عندى·كنا بالأمس من ضحايا اعتداء فظيع من أنصار المرشح المنافس لنا · حسبت أن فى هذا البلد حكومة تمنع الاعتداء وتحفظ على الشعب حريته · هذا ما حسبت أنى مدعو من أجله ·

فقال الضابط محركا يده فى رشاقة :

ــ هذا موضوع آخر يا سيد افندى ·

ومد يده الى دفتر وجعل يقلب صفحاته ·

فقلت محاولا أن أكتم غيظى : وهل يمكن أن ننظر فى هذا الموضوع الآخر ؟

فقال فى هدوء : لابد أن كل الأمور تأخذ مجراها · هذه الشكوى أولا وهى تقول أنك اعتديت على الذات الملكية ·

فصحت من المفاجأة : خبر أسود !

واستمر قائلا : وأهنت الحكومة وحرضت على قلب نظام الحكم وفرقت بين الطبقات ·

فقلت متكلفا الهدوء : متى فعلت كل هذا ؟

وأخذ قلبى يدق عنيفا ، ونسيت الموضوع الآخر ·

وقال الضابط : هذه أقوالك مكتوبة ، واذا شئت فاقرأها ·

ومد يده الى بالورقة ، وأخذت أقرؤها وأنا لا أصدق عينى · كانت بعض أقوالى هناك حقا ، ولكنها كانت مقتطفات مقطوعة من هنا وهناك ووضعت كأنها عبارات متصلة ، فهى أشبه شيء بمواد الديناميت المتفجرة اذا أخذ كل منها على حدة كان مأمون الجانب ، وأما اذا ركب بعضها مع بعض كانت مادة مدمرة · وبلعت ريقى مرارا وأنا أقرأ والضابط ينظر الى صامتا وهو ينقر على المكتب بقلمه الذهبى · فلما فرغت من القراءة نظرت اليه مبهوتا فقال باسما : هيه ؟

فقلت فى ثبات : هذا تشويه مقصود · هذا من نوع قراءة « ويل للمصلين » بغير تكملة الآية ·

فضحك مسرورا من التشبيه وقال :

ـ ولكنها من أقوالك أليس كذلك ؟

فقلت : نعم من ألفاظى ولكنها ليست أقوالى ·

فسألنى : أتعرف كاتب هذا البلاغ ؟

فقرأت الاسم وقلت : لا · لم أسمع بهذا الاسم فى حياتى ·

فنظر الى فى دهشة وقال : ألم تكن وزانا فى محلج السيد أحمد جلال ؟

فقلت فى أنفة : هذا كان من زمن ·

فسألنى : وكيف لا تعرف مصطفى البلقينى ؟

فتوقفت حينا أفكر ثم هززت رأسى باصرار وقلت : لا أعرفه قطعا ·

فنادى الضابط الجندى الواقف عند بابه قائلا :

ـ هات مصطفى البلقينى ٠

وبعد لحظة عاد الجندى ودخل بعده مصطفى ، وصحت فى حنق :

ـ مصـــطفى عجــوة ؟

فقال الضابط ضاحكا : أنتما صديقان على ما يظهر ٠

فقلت مندفعا : لا يمكن أن أكون صديقا لهذا ٠ هذا أكذب كاذب وأنذل نذل وأجبن جبان ٠

فقال مصطفى فى استياء : اسمع يا حضرة الضابط ٠ اكتب هذا فى المحضر ٠

فصحت ثائرا : أى محضر ؟ أنتم مجموعة من الحشرات القذرة ! من الكلاب الضالة ٠ لا تترددون فى سفالة ٠ من أجل لقمة تافهة يلقى بها سيدكم عند قدميه تبيعون ضمائركم ، ولم تتدارى يا مصطفى يا عجوة فى الذات الملكية والحكومة والطبقات وكل هذه الكلمات التى لا تفهم معناها ؟ أما كفاك انك جئت بهؤلاء المجرمين بنبابيتهم لتهدموا السرادق علينا ؟ هذه طريقة قطاع الطرق التى تليق بك اذا أردت أن تخدم سيدك وتستحق مكافاته ٠

ونظر مصطفى عجوة الى الضابط بابتسامة بلهاء قائلا : أتسمع يا سيدى ؟

فتجاهلت قوله والتفت الى الضابط قائلا :

ـ ليس فى الأقوال التى قلتها فى خطبتى سوى الطعن فى الأنانية والفساد والظلم والطغيان ٠ ليس فى أقوالى سوى الاحتجاج على الرشوة وانحطاط الأخلاق العامة وتعريض سمعة البلاد للسخرية بين امم العالم ٠ ليس فى اقوالى غير التحريض على مقاطعة اللصوص وأصدقاء الشيطان والقوادين ومصاصى الدماء وأصدقاء الساقطات وسماسرة السوء ٠ ليس فى خطبتى شىء عن ذات ملكية ولا غير ملكية ولا حكومة ولا طبقات ٠ لم اقل سوى أوصاف عامة يريد الشعب أن يتخلص من أصحابها ومن عارها ومفاسدها ٠ فاذا كان هذا يؤخذ على أنى أقصد الذات الملكية والحكومة فالذى يقول هذا هو الذى يجب أن يسأل عن تأويله هذه الأقوال العامة وتفسيرها بأن المقصود هو الذات الملكية والحكومة ٠ هذا هو الجدير بأن يؤاخذ ويحاكم اذا كان الأمر يدعو الى المؤاخذة والمحاكمة

لأنه هو الذى يوجه الاهانة · انها تجارة رخيصة يستغلها مثل هذا النذل كما يستغل كل سلعة رخيصة ·

ونسيت نفسى وأنا مندفع فى أقوالى فلم أتنبه الى أن التليفون دق مرة أخرى ، وبدأ الضابط يتحدث بطريقته الخاصة · وسكت حتى فرغ من الحديث وخيل الى أنه يتكلم مع شخص كبير لأنه كان يجيب قائلا : حاضر يافندم ! حالا يافندم !

وعجبت عندما وضع السماعة ونظر الى مصطفى قائلا :

ـ اذهب أنت الآن وسندعوك اذا احتجنا اليك ·

ودهشت لهذا الانقلاب الفجائى وكدت أقول له :

« أريد اذن أن أعرف ماذا تنوى أن تفعل مع صاحب الأشرطة الحمراء ومع الذين أفسدوا علينا حفلتنا الانتخابية ، ولكنى كنت متعبا كارها للبقـاء فى ذلك المكان الذى تعـذبت فيه منذ الصباح وكان أحب شىء عندى أن أعود الى بيتى لأستريح من أثر ما عانيت من الآلام والهزات النفسية مع ما كنت فيه من الضعف من آثار المرض ·

وقال لى الضابط « تفضل الآن أيضا اذا شئت،وسأدعوك اذا قضت الضرورة » ·

فقمت فاترا وقام الضابط ليحيينى باسما وشكرته بكلمتين مبهمتين وسرت خارجا أسأل نفسى عن معنى كل هذا · الجحر المظلم والذات الملكية والطبقات ومصطفى عجوة ، ثم هذا الانقلاب السريع من التحقيق الى التحية الباسمة · ولكنى كنت فى حالة اعياء وكانت تلوح أمام عينى فى كل خطوة أخطوها مناظر أسرة أريد أن أستلقى عليها ·

وفتحت باب البيت ودخلت الى غرفتى آخر الأمر متسللا حتى لا يرانى أحد واستلقيت على السرير بملابسى ·

- ١٢ -

كنت أحسب أن النوم يسعفني لشدة تعبي ، ولكني أحسست بأن كل عصب في جسمي مشدود الى مداه ، وأن كل عرق في بدني يرف ، وأن هموم الحياة كلها تتجمع في أعماق صدري. فوضعت يدي تحت رأسي ونظرت الى سقف الغرفة ، وأخذت أعد عروق الخشب مرة بعد مرة لعلي أغفل وأغمض عيني ، وهي حيلة كنت ألجأ اليها لأصطاد النوم اذا شرد عني ، ولكني أعدت العد حتى مللت ، ورأسي ما يزال مشدودا كأنه يريد أن ينفجر . وجعلت أدقق في العروق القديمة السمراء وكانت كثيرة العقد، وجلت بنظري في الألواح الغبراء اللون التي تحتها وقد زالت عنها قطع واسعة من دهانها الجيري القديم . وكانت بعض أنسجة العنكبوت تلتصق في حناياها وزواياها ، والعناكب السوداء في داخلها تتربص بفرائسها وتداعب خيوطها بأرجلها الطويلة راضية عن نفسها . ورأيت منها عنكبوتا ضخمة تتحفز لذبابة حمقاء تقترب من بيتها ، فقلت في نفسي « هذا هو ! » ولو كانت في تلك العنكبوت شارة حمراء لما شككت في أن الله قد مسخ اليها الجندي الفظ صاحب الأشرطة الحمراء . ورأيت برصا كبيرا له لون أحمر قاتم ، وكان واقفا في ركن السقف فتعجبت كيف لا يهوى الى الأرض وهو يمشي مقلوبا برجليه الى أعلى . وكان غليظ الجسم كبير الرأس وكان وجهه منقطا بآثار تشبه آثار الجدري كأنه وجه مصطفى عجوة . هذه الحشرات القذرة التي تتربص بفرائسها وتلتصق بأقدامها الى السقف وتدلي رؤوسها الى أسفل !

وكان هناك ثقب في جانب اللوح يصلح أن يختفي فيه البرص ويتداري عن عيني ، ولكنه لم يفعل . حتى الأبراص لا تحب الجحور المظلمة وأما أنا فاني أسجن في تلك الغرفة الخانقة ويغلق علي الباب ، وما تزال قبضة يدي تؤلمني من أثر الخبط وما تزال أنفاسي تضطرب من أثر الغيظ .

ونظرت الى الساعة التي في يدي فوجدتها الثانية بعد الظهر وأرهفت سمعي الى حركة البيت فلم أسمع حسا . وكان عجيبا أن يكون الهدوء

مطبقا فى يوم الجمعة وأمى وأختى بالمنزل ، وشعرت بشىء من الخيبة لأنى بقيت فى الغرفة وحدى ولم يسأل أحد عنى ٠

وعدت أنظر الى السقف وغاظنى منظر البرص والعنكبوت فأغلقت عينى حتى أتجنب النظر اليهما ٠

ولم أدر كم كانت الساعة عندما بدأت أغفى لأنى لم أتنبه من نومى الا بعد المساء وكانت أمى جالسة فى سكون الى جانب سريرى تنظر نحوى والدموع تسيل من عينيها الحمراوين ٠ فلما فتحت عينى قامت الى وأهوت على جبينى تقبلنى وهى تبكى بكاء مرا ٠

وقالت فى بكائهـــا :

ـ لم تعرض نفسك للأذى يا ولدى ؟

وجلست على الكرسى تمسح عينيها وقالت :

ـ لم نعرف ما حدث الا من هذه الورقة التى تركتها على المنضدة ، لم تقل لى كلمة وأنت خارج وتركتنـــا هكذا لا نعرف أين أنت ٠٠٠ ولما قرأت منيرة الورقة اصفر وجهها كأنه ليمونة ، فعرفت أن فى الورقة شيئا مزعجا ٠٠٠ انها داهية كبيرة يا ابنى ، وحماك الله من مركز البوليس ومن كل ما يؤذيك ٠ وأما عبد الحميد فالله يبارك فيه ٠٠٠ هذه دعوة خالصة من قلبى ٠٠٠ الله يحميه لأمه المسكينة ٠٠٠ لم أر أمه منذ سنين ولما رأيتها وجدت كأنى لم أنظر اليها منذ مائة سنة ٠٠٠ وطلبت منها أن ترجو عبد الحميد أفندى ليذهب معى الى أحد المحامين والى مركز البوليس لنعرف الســـبب فى دعوتك الى هنـــاك ٠٠٠ وفى دقيقة واحدة كان عبد الحميد أمامى وأراد أن يخرج وحده ليعمل كل شىء وهو لا يعلم أن قلبى يشتعل ٠٠٠ هكذا الشباب دائما لا يعرفون قلوب الأمهات ٠ ولكنى قمت معه لأراك ولو من بعيد ٠٠٠ مركز البوليس ؟ انها داهية كبيرة ٠ وركبنا عربة ولم أعرف ماذا قال عبد الحميد أفندى للسائق ، حتى نزلنا أمام بيت السيد احمد جلال ٠٠٠

فوثبت من سريرى وقلت فى صيحة مبحوحة :

ـ السيد أحمد جلال ؟

فقالت أمى : الله يستره السيد أحمد ويحميه يا ابنى٠والله لولا هو لما أمكننا أن نعمل شيئا ٠٠٠ ومن كان يقدر أن يكلم الحكام كما كلمهم ؟٠٠ ومن كان يقدر أن يجعل المدير يأمر الضابط ٠٠٠

فقاطعتها فى ضيق : كانت الحجرة المظلمة أهون على من هذا ٠

فصاحت وهي تخبط صدرها : الحجرة المظلمة ؟ يا للمصيبة ! . قلبي أحس بهذا عندما عرفت أنك في مركز البوليس ، حيث يذهب اللصوص وقطاع الطريق والفلاحون المجرمون ... الله يبارك فيك يا سيد أحمد يا جلال .

فعدت مستلقيا على ظهري ، ووضعت يدي تحت رأسي ، وعزمت على أن أستغرق في التفكير في العنكبوت لأصرف نفسي عن سماع أقوال أمي . ووضعت أمي يدها على راسي وأخذت ترقيني ، ودخلت منيرة عند ذلك فقالت في مرح :

ـ الحمد لله على السلامة ، كفارة يا سيد بك !

فلم أرد عليها . وفرغت أمي من القراءة فالتفتت الى منيرة قائلة :

ـ لا تنسى أن تزوري مني يا حبيبتي ، حماها الله وحمى الشباب جميعا . كانت تحب أختك كأنها أختها وجلست طول الوقت جنبي ومالت على يدي وهي تسلم على عند انصرافي .

يا رب يا ابني أعيش حتى أرى لك عروسا مثلها ، كانت أمها من الفرحة مثل شابة بنت عشرين سنة ، العقبى لك يا ابني . كان الباشا هناك ليقدم الشبكة .

وأحسست برأسي يدور لانتقال أمي في حديثها من موضوع الى آخر ولكني ما كدت أسمع ذكرها لمنى حتى تحولت كل أعصابي المشدودة الى آذان . عروس مثلها ؟ والعقبى لك يا ابني ؟ والباشا يقدم الشبكة ؟ فهل كان مصطفى عجوة صادقا ؟

وقلت في صوت خافت :

ـ شـــبكة من ؟

فقالت أمي : شبكة مني . وعريسها محمود خلف الله يحمي الشباب يا ابني .

فطنت اذناى وحاولت ان اصرف النظر الى السقف ولكني لم أر أمامي شيئا ، ودوت في راسي رحى تقول كلمة واحدة « شبكة منى »

ولولا وجود أمي وأختي الى جانبي لأدرت وجهي الى المخدة وبكيت حتى أخفف الضغط الذي ملأ قلبي .

وقلت لأمي متكلفا الهدوء :

ـ احب أن أستريح قليلا .

ووليتها ظهري كأني أريد أن أنام ·

ولما اغلق الباب من وراء أمي وأختي وجدت نفسي أنفجر باكيا كأني طفل بائس ، ومرت على ساعة مظلمة قبل أن أسمع صوت أمي من خارج الباب تناديني :

ــ أنت صاح يا سيد ؟

فقلت في فتور :

ــ من ؟

فقالت : عبد الحميد أفندى هنا ·

فقلت : سأحضر حالا ·

وقمت مسرعا لأغســـل وجهي أولا ، وتعمدت أن أبدل قميصي ، وأمشط شعري حتى أبدو نشيطا وذهبت الى غرفة الجلوس · فأخذني عبد الحميد بين ذراعيه وكان قلبي يفيض بشكره ولكني لم أقل له سوى كلمة عتاب :

ــ أهكذا تحملني جميل السيد أحمد جلال ؟

فقال في جد :

ــ لم يكن أمامي الا أن ألجأ اليه هو · أدركت من أول الأمر أنه هو الذي حرك عليك البوليس ، وأنه هو الذي يقدر على صرف البوليس عنـــك ·

وشعرت بكلمته تلذعني ، ولكني لم أجب بل أخذت أقول في نفسي ساخرا « أنا الشعب ! » ·

وأخرج عبد الحميد من جيبه بعض أوراق ثم مد الى يده بظرف أنيق قرأت عليه اسم « بريد الأحرار » ، فأخذته منه في فتور قائلا :

ــ ما هـــذا ؟

فقال : هذا خطاب جاء الى الآن من صديقي على مختار ، فاقرأه وقل لي رأيك ·

واخذت أقرأ الخطاب وعيناى تقفزان فوق الأسطر حتى بلغت آخره ووجدته يستحق أن يقرأ في عناية · فأعدت قراءته مرة أخرى ولا شك أن وجهي كان ينطق بما في نفسي من الاهتمام · محرر في بريد الأحرار ؟ وعشرون جنيها في الشهر دفعة واحدة سوى أجر القصص التي أكتبها ؟ ــ خمسة جنيهات للقصة الواحدة ؟

وأعدت الخطاب الى صاحبى وأنا صامت وذهنى مشتعل • وماذا بقى لى فى دمنهور ؟ أأبقى هناك لأحضر حفلة خطبة منى ؟ يا للسخرية ! ولكننى تذكرت المعركة التى دخلت من أجلها الحجرة السـوداء وقلت لصاحبى فى دفعة :

ـ لن أستسلم هكذا •

فقال : لست أفهم •

فقلت : سأبقى هنا حتى تنتهى المعركة •

فقال : حتى بعد هذا الجميل الذى قدمه السيد أحمد جلال

فقلت في عناد : بل من أجل هذا الجميل •

فقال فى تهكم : ولكن المعركة كادت تنتهى أو قد انتهت •

فقلت متحديا : انها لم تبدأ بعد • سيعرف السيد أحمد جلال أنى لا أرهبه • سيعرف أنه لا يقدر على تحطيمى • لقد قال لى مرة انه يسـتطيع أن يسحقنى وأن يحطمنى • واظنه يحسب الآن أنه جعلنى أعرف مقدرته على ذلك • لن أترك دمنهور حتى يعرف أنه لا يستطيع أن يحطمنى •

فقال عبد الحميد في هدوء : اذا شئت أن تحارب وحدك فافعل • اجعلها معركة من جانب واحد مثل دون كيشوت اذا شئت •

فقلت فى غيظ : لن أترك المعركة •

فقال : حتى بعد أن تنازل العجمى ؟

فصحت : مستحيل !

فقال : هذه هى الحقيقة • لقد تنازل العجمى عن ترشيحه

فقلت فى مرارة : نذل آخر ، لا شك أنه لم يكن فى تمام عقله •

فقال ضاحكا : بل كان فى تمام عقله لأنه عرف مصلحته •

فقلت : انها سخرية • عبث دنىء واهانة للشعب الذى كنا نتحمس له • هل كنا نخدع الناس ونهزأ بهم عندما كنا نتحدث اليهم • لست أدرى ماذا حمل ذلك الأحمق على هذا التنازل •

فقال فى سخرية : كان تعويضه عظيما •

وامتلأت غيظا لقول صاحبى كأنه هو الذى تنازل عن الترشيح وصحت به : أى تعويض ؟

فأجاب باسما : التعويض عن رسوم الانتخاب وعن الأضرار التى اصابته فى هدم السرادق،وعن أتعاب أنصاره الذين كانوا يقومون بالدعاية لترشيحه ٠

فقلت حانقا : النذل ! أتعاب أنصاره ؟ هل نحن هؤلاء الأنصار ؟ أكان العجمى يستأجرنا للدعاية ؟ ألم يدفع له أهل المدينة تأمين الانتخاب؟ الم نجمع نحن فيما بيننا أجرة السرادق ؟ هل قال حقا انه كان يدفع أجرا للأنصار الذين كانوا يساعدونه بالدعاية ؟

فقال كأنه يريد غيظى : طبعا ، وهذا ما يقوله الناس جميعا ٠ هل يظن أحد أن هناك حمقى يساعدون مرشحا لوجه الله تعالى ؟

وكنت أزيد غليانا كلما رأيته يضحك ساخرا ، ولكنى كدت أنفجر غيظا عندما استمر قائلا :

ـ واعلم أيضا يا سيدى العزيز أن محمد باشا خلف تنازل هو الآخر للسيد أحمد جلال ٠ أما تزال تريد أن تخوض المعركة ؟

فوثبت على قدمى كأنى اتحفز لمصارعة ، وتمنيت لو كانت الحجرة واسعة فأنطلق فيها صارخا كالمجنون ألعن وأشتم وأهتف بسقوط الأنذال جميعا ٠ أهكذا تجرى الأمور ؟ ولم تنازل محمد باشا خلف ؟ أكانت منى ثمناً لتنازل الباشا الأجوف ؟

وقلت لصاحبى فى حقد وحنق : سأسافر غدا الى القاهرة فى أول قطـــار ٠

ثم عدت الى مقعدى خائرا كأن هذه الوقفة القصيرة كانت مجهودا شاقا ، وأخذت أحدث نفسى بصوت عال : إنها مخزاة أن نعيش فى مجتمع كهذا ٠ الرجال عبيد يساقون بالسياط أو يشترون بالمال ، والنســـاء أيضا يعرضون فى أسواق الرقيق كما كانت الجوارى تشترى ٠ الذهب هو المعبود ٠ ومن أجل الذهب يبيع الجميع كل ما عندهم حتى الحرية والكرامة ، وحتى الحب ٠ هى معركة أكبر خطرا لا تتسع لها دمنهور ٠

وكان عبد الحميد ينصت الى وهو مطرق مستند الى ذراعيه فوق المنضدة ٠ وقال ولم يرفع راسه :

ـ هذا صحيح يا صديقى ٠ اذهب أنت وجاهد بقلمك وأعاهدك على أن اذهب أنا كذلك واستمر على جهادى فى مدرستى ٠ لا أمل لنا فى

شيء الا أن نعلم ونعلم ونعلم حتى تذهب هذه الأجيال الملوثة ، ثم يخرج جيل جديد · أنا أعلم في المدرسة وانت تعلم بقلمك في الصحافة حتى ينشأ جيل جديد يستطيع أن يفهم الحرية والأمانة والصدق ·

فصحت مندفعا : هذا عين الخطأ يا سيدى ، لست أقصد شيئا مما تقول يا سيدى · هل هذا خطأ يقع فيه كل الذين يفكرون بعقولهم وحدها · ماذا يعنيني من قلمي ومن مدرستك ؟ اذا كان لابد لنا أن ننتظر حتى ينشأ جيل يستطيع فهم الحرية والأمانة والصدق فلننتظر طويلا . لا أفهم هذا أبدا ·

فقال : وماذا تفهم اذن ؟

فقلت في غل : لا أفهم سوى ما يفهمه كل حي · أفهم أن أذهب لأجاهد ، وأجمع الناس من أهل هذا الجيل نفسه ليجاهدوا · هؤلاء الذين أعيش بينهم وأراهم وأعاملهم هم الذين يقع عليهم واجب الجهاد من أجل حريتهم وكرامتهم وحقوقهم المسلوبة ، لا شيء غير أن يقوم العبيد بالثورة من أجل حريتهم ·

فقال في ثبات : هذا تكليف الطبيعة فوق طاقتها · العبيد لا يعرفون الحرية ولا يتحمسون لها ولا يجاهدون من أجلها · الأدب والعلم مثل قطرات الماء تنزل على الصخور قطرة قطرة فتذيبها وتحللها ·

هذا محقق وان كان يحتاج الى زمن ·

فصحت ساخرا : الزمن ! الخرافة ! ألست أنت الذى قلت ان الزمن لا معنى له الا في عقولنا ؟ ما هذه التشبيهات المضللة : الماء والصخرة والقطرات التى تنزل نقطة نقطة ؟ هذه كلها مغالطات نلجأ اليها عندما لا نريد ن نعرض أنفسنا للمجهودات الشاقة أو الأخطار الشديدة ·

فقال في تحد : كأنك تريد الثورة ·

فقلت في غيظ : أتريد أن ترهبني بهذا السؤال ؟ نعم أريد الثورة ولا شيء غير الثورة ·

فهز رأسه قائلا : أنا أخالفك هنا · الثورة الشعبية تدمر ولا تفكر · ولو فرضنا أن الثورة نجحت فانها لن تجد الشعب الذى يحسن الاستفادة منها · قد نرضى عن الثورة التى تدمر اذا جنينا من ورائها خيرا ، ولكن الثورة التى لا يستفاد منها لا تكون الا شرا محضا ·

فقلت في عناد : وماذا يمنع من أن نستفيد من الثورة ؟ لقد قرأت كثيراً عن ثورات التاريخ وتعلمت من ذلك حقيقة واحدة خالدة ، نحن

جميعا من البشر وفينا جميعا عناصر الخير والشر وفينـــا عناصر القوة والضعف • فى نفوسنا الأنانية والتضحية ، وفينا الشجاعة والجبن وفينا العدل والطغيان • نحن ننطوى فى الوقت عينه على السماحة واللؤم على السمو والاسفاف • من الممكن أن تتغلب علينا عناصر الشر التى فينا ، كما أنه من الممكن أن تتغلب علينا عناصر الخير • العبرة بالقوة التى تثير هذه العناصر أو تلك •

فقال فى هدوء : عظيم يا سيدى • ولكن هل نسيت أنك تجعل كل الأمور متوقفة على شرط غير موجود ؟ أين هذا المحرك الذى يبعث عناصر الخير ؟ هذا المحرك لا وجود له الا فى داخلنا وعلينا أن نخلقه فى الناس بالأدب والتربية •

فقلت فى عناد : المسألة مثل الحلقة المفرغة • لن نستطيع أن نصلح داخلنا ما دامت السيادة فى أيدى الأنذال والأشرار والسفلة •

ولا نستطيع أن نصلح أمورنا الا اذا أصلحنا داخلنـــا ، حلقة مفرغة لا نعرف أين طرفاها •

ليس أمامنا الا أن نثور على هؤلاء السادة المفسدين لنخلع عنا نيرهم ونحل فى محلهم من يثير فى الناس عناصر الخير • نحن الشعب • نحن العبيد المحطمون • علينا أن نثور اذا شئنا أن ننجى أنفسنا من العار ونحمى ظهورنا من ضرب السياط • الثورة ولا شىء غير الثورة !

فقال صاحبى فى نغمة حزينة :

ـ قد أوافقك اذا أمكن أن تكون الثورة عاقلة لاتهدم بل تبنى ، وتضع الأمور فى أيدى الحكماء لا الحمقى • ولكن هيهات !

فقلت فى تبرم : هادىء مثل الملائكة !

فرفع رأسه وكان وجهه محتقنا كما كان يحتقن فى صباه اذا كبت شعوره • ثم قال :

ـ كنت دائما تتهمنى بالهدوء وتقصد بذلك الفتور ، لأنى لا أرضيك بالتحمس الثائر • لا يا سيدى فأنت لا تعرف ما فى داخل قلبى • لست أخشى الثورة ولكنى أخشى الفوضى •

وضاق صدرى من هذا الجدل فقلت وأنا قائم :

ـ هذا أسلوبك فى التفكير دائما • أنت تريد أن تنتظر مع الزمن مع أنك تؤمن بأن الزمن خرافة ، وأن الحركة هى الحقيقة ، وأنا أريد أن أستعجل الأمر باحداث الحركة القوية التى تختصر الزمن •

فقام ومد يده مصافحا وقال مبتسما :

ـ هذا حسن يا صديقى · دعنى أمد لك يدى لأقول لك اننا مختلفان حقا فى الأسلوب وان كانت غايتنا واحدة·لعل فى طبعك أن تكون مجاهدا فى الطليعة ، فدعنى أنا لأكون مجاهدا فى المؤخرة ·

فقلت وقد شعرت بالأسف على عنفى :

ـ أحب أن تعرف يا صديقى مبلغ شعورى بأنى مدين لك ·

وشددت على يده فى اخلاص ثم قلت :

ـ سأحاول أن أعود اليك بين حين وآخر لأتزود من أحاديثك فانك بمناقشاتك تفتح لى آفاقا جديدة ما كنت أراها ·

وقمت لأشيعه الى الباب وأنا شاعر بأنى أشيع أستاذى ·

- ١٣ -

قمت مبكرا فى اليوم التالى لأسافر فى أول قطار الى القاهرة وجلست للافطار مع أمي وأختي،وأحسست عند ذلك بأنى مقدم على خطوة خطيرة • سأفارق كل من لى فى الحياة وسأترك دمنهور التى عرفتها حارة حارة وبيتا بيتا ودكانا دكانا ، وخيل الى أنها أعز البلاد وان كنت قاسيت فيها ما قاسيت • ولم أجد قبولا لأكثر من فنجان من الشاى باللبن وقبلت يد أمي فى شغف وحملت حقيبتي وعرضت على منيرة أن تسايرنى فى ذهابها الى المدرسة حتى نبلغ المحطة • ونزلنا ودعوات أمي تشـــيعنا من فوق السلم ، ولم أنس أن أقرأ الفاتحة لسيدى (أبو طاقية) عندما مررت قريبا منه ، وأخذت أحدث أختى عن خطتى التى عقدت النية عليها ، وهى أن أفارق دمنهور العزيزة الى الأبد • وشعرت بغصة فى حلقى وأنا أقول لها هذا ، وكدت أحدثها عن منى ، ولكنى لم أجرؤ ، فاكتفيت بأن قلت لها : هل أعددت ثوبك الجديد ؟

ولكنى ارتبكت عندما تذكرت أنها لم تدع لحفلة الخطبة الا منذ ليلة فأسرعت قائلا :

ـ عندك أسبوع كامل لتذهبى الى خياطة ماهرة • ستكونين بغير شك أجمل فتاة هناك •

فقالت باسمة : ما عدا منى طبعا • انها أظرف فتاة عرفتها وكأنى لم أفارقها منذ كنا أطفالا •

وكان بودى أن أسألها هل كانت سعيدة ، وهل قالت لها شيئا عن خطيبها ، وهل سألتها عنى ، ولكنى لم أجرؤ ، وتركتها تسألنى عن نيتى فى الاقامة بالقاهرة وهل أعتزم الاقامة وحدى أم ننتقل جميعا لنكون معا ، وأخذت أجيبها اجابات مبهمة لأنى كنت فى الحقيقة لا أدرى بم أجيب •

وبلغنا المحطة فصافحتها بهزة من يدى وأخرى من قلبى وسرت مسرعا والحقيبة الخفيفة تهتز فى يدى ، وخيل الى أن منظر الميدان وما حوله من الأبنية أجمل المناظر وأن نسيم الصباح الرطب أروح الأنسام • وعرجت

على شباك التذاكر فاشتريت تذكرة من الدرجة الثالثة ودفعت جنيها من الجنيهات العشرة التى أخذتها من أمى قبل خروجى • ثم سرت لأهبط الى المحطة فسمعت صوتا من خلفى يصيح قائلا « يا أفندى » فالتفت الى ورائى وكان أحد الحمالين ينادينى قائلا « نسيت بقية الجنيه » فعدت الى شباك التذاكر واستردت ما بقى لى ثم اشتريت نسخة من « بريد الأحرار » من بائع الصحف وكان منظرها فى عينى بديعا ، وأخذت أتأمل عناوينها الكبرى باللون الأحمر واللون الأسود والصور الأنيقة التى تزين صفحاتها وداخلنى شعور بالاعتزاز بأنها جريدتى •

وجاء القطار وكان الزحام شديدا فاستطعت بعد جهد أن أدخل العربة وأضـــع حقيبتى على طرف الرف ووقفت على مقربة من الباب وارتكنت على ظهر المقعد الذى ورائى ، وأخذت أقلب صفحات الجريدة على مهلى •

ولكن الحقول الخضر كانت تنتزع نظرى من الصحيفة فلم أستطع أن أقرأ شيئا ، كانت جوانب الطريق بساطا أخضر من القمح والبرسيم تزدهر بما فيها من النوار والبقر والغنم والأطفال فى ملابسهم الملونة • ورأيت طفلا عاريا كما ولدته أمه يتمرغ فى طين بركة فلوحت له بيدى ورد على التحية بأن قذفنى بحفنة من الطين ، وبصـــق فى وجهى من بعيد • مسكين هو الآخر لأنه لم يعرف للتحية ردا سوى هذا • وفيما كنت سابحا فى أفكارى شعرت بيد تسحب الجريدة من تحت ابطى فالتفت الى الوراء لأرى رجلا ضخما فى المقعد الذى ورائى يبتســـم لى قائلا « تسمح ؟ » ولم ينتظر حتى أسمح وأخذ الجريدة قبل أن أقول له « تفضـــل » •

ولما وقف القطار فى المحطة التالية خلا المقعد الذى الى جنب الرجل فدعانى للجلوس وبدأ يحدثنى :

فقال : الى أين ؟

فقلت مختصرا : الى مصر •

ـ أنت موظف ؟

وتمنيت لو سكت ولكنه استمر قائلا :

ـ أنت أبونيه ؟

ـ لا •

ـ لا مؤاخذة • أظننى كنت مخطئا • هو يشبهك تماما •

ـ من هـــو ؟

ـ على افندى مبارك الابونيه · اسم الكريم ؟

ـ سيد زهير ·

ـ تشرفنا · كنت في يوم من سنتين ـ ولا مؤاخذة ـ كنت أركب هذا القطـار نفسـه · فركب على افندى الأبونيه من دمنهـور وكنت لا أعرفه ـ وتعارفنا كما نتعارف نحن الآن · ونصب على في جنيهين ·

ولم أجد جوابا فبقيت صامتا ·

واستمر يقول : من ذلك اليوم صرت أتوقع أن أراه كلما مررت بمحطة دمنهور . ومن العجيب أن الجميع يشبهونه ولهذا سألتك هل انت ابونيـه ·

فانفجرت ضاحكا وقلت : أشكرك · على كل حال لست أنا ·

فضحك هو الآخر قائلا : لا مؤاخذة يخلق من الشبه أربعين ··

ومد رجليه واستند الى الكرسى قائلا :

ـ فرصة سعيدة على كل حال · أنا الحاج عبده صاحب محل الصابون العطرى ·

فقلت : مصنع ؟

فأجاب ضاحكا : كل الناس يقولون هذا اذا سمعوا الاسم · ولكنه صالون حلاقة ـ وأرجو أن تشرفنا · شارع المحطة بكفر الزيات · مع السـلامة !

وكان القطار قد هدأ سرعته للوقوف في المحطة ، فقام الرجل يستعد للنزول وسألنى أن أساعده على حمل ربطاته الكثيرة ، فناولته اياها من النافذة وانشغل عنى بمقاولة حمال المحطة حتى تحرك القطار ·

وجلست الى جانب النافذة في المكان الذى خلا من الرجل وأخذت أنظر فيما حولى · ثم استرعى سمعي خصام رجلين من الركاب ، وما لبث أن اشترك سائر الركاب فى المناقشة · وأصغيت الى حديثهم الحانق مرغما وأنا أعجب من حرصهم على النزاع مع أنهم فى رحلة · ولكنى رجعت الى نفسى فقلت ان الخصام أمر طبيعى لا حيلة للناس فيـه وان كانوا فى رحلة قصيرة · وهل حياتنا نحن الا رحلة قصيرة مهما طالت ؟

واستمرت المناقشة تخبو حينا وتستعر حينا حتى اقتربنا من القاهرة فكانت تسلية مفيدة سهلت على الركاب قطع الوقت بغير أن يملوا · ألسنا نفعل ذلك عندما نقضى حياتنا فى خصومات متصلة ؟

ووصلت الى القـاهرة أخيرا وركبت الترام الى « بريد الأحرار » ولما صرت أمام المبنى الكبير وقفت في حيرة لا أدرى ماذا أصنع بحقيبتى . ولو كانت حقيبة محترمة لما همنى أمرها ولكنها كانت قديمة من الورق المقوى ولا أعرف كيف أسمى لونها ، لأنى نسيت ماذا كان لونها عندما كانت جديدة · وكان لها قفل واحد سليم يعلوه الصدأ وأما الآخر فكان يأبى الا أن يمد لسانه الى فوق كأنه يسخر منى ··ورأيت على مقربة من الدار دكان بقال فذهبت اليها لعل صاحبها يرضى بايداع الحقيبة عنده حتى أعود من مقابلة الأستاذ على مختار ، وكان صاحب الدكان رجلا كهلا له لحية وخطها الشيب وتبدو على ملامحه الطيبة · ولكنه بعد أن رد على السلام في بشاشة لم يرض أن أودع الحقيبة عنده خشية من أولاد الحرام الذين اعتادوا أن يضعوا فى حقائبهم أشياء خبيثة يدسونها على الناس ليوقعوهم في التهم ·

ففتحتها له وأنا في خجل شديد منها وأخذت أنفض له كل قطعة فيها ليرى براءتها حتى قبل آخر الأمر أن يودعها عنده ·

كانت المقابلة الأولى بينى وبين الأستاذ على مختار مرضية لكبريائى، فقد استقبلنى فى مكتبه الأنيق مرحبا باسما ونادانى قائلا :

ـ مرحبا يا أستاذ سيد ٠

وهو شاب صغير الجسم له نظرة تدعو الى الايناس وصوت ملىء يبعث الثقة ٠ ونظر فى وجهى أو بقول آخر نظر فى عينى ولم يفحص بنظراته ملابسى ولا حذائى بل لم يلتفت الى لحيتى التى طال شعرها ٠ وهو فى مثل سنى ويسترعى النظر بعنايته بملابسه وشعره ورباط رقبته ، وفى يده خاتم يلمع فى ضوء الكهرباء وفى صدره دبوس ذهبى له فص لا يقل عنه لمعانا ٠ ولم يقم لاستقبالى بل مد يده نحوى وهو جالس وأشار الى كرسى بجواره ودق الجرس ثم طلب فنجانين من القهوة ٠

ولم يضع وقتا فى كلام كثير ولكنى شعرت من أول لحظة بارتياح واطمئنان ، ولهذا لم أتحفظ فى كلامى كما كنت عازما من قبل ٠ سألنى :

ـ متى وصلت الى القاهرة ؟

فقلت : بعد ظهر اليوم ٠

فقال : آسف اذ فاتتنى فرصة الغداء معك ٠

فقلت ضاحكا : فاتتنى أنا ٠

فقال باسما : وأين نزلت ؟

فقلت : لاتزال حقيبتى عند الشيخ مصطفى حسنين ، وهو بقال قريب من هنا ٠

فضحك ملء صدره قائلا : بداية حسنة ٠

وتذكرت كلمة مثلها قالها لى السيد أحمد جلال فى موقف يختلف كل الاختلاف عن موقفنا هذا ٠ ومع انصرافى التام الى حديث الأستاذ على

مختار لم أملك نفسى من العودة حينـــا الى صورة منى · أما من سبيل لأعلمها بأنى أصبحت فى القاهرة ومحررا فى بريد الأحرار ؟

وجاء الفراش يحمل القهوة ، فأتاح لى فرصة لتأمل صورة منى . لقد ! فى آخر مرة رأيتها فيها مثل الزهرة البديعة تظهر فى بستان رائع من وراء السور الشائك ، فرسمتها فى قصيدتى وناجيتها كما أناجى الزهرة الجميلة التى لا أستطيع أن أمد اليها يدى · وها هى ذى الايام تظهر لى أن ذلك الخاطر كان أصدق من نبوءة ·

ولما رفعت بصري الى الأستاذ على مختار وجدته ينظر الى فاحصا ، فاعترانى شىء من الارتباك ولكنى ســـارعت الى التغلب عليه ، وأخذ يسألنى عن صاحبى عبد الحميد ففتح لى بابا واسعا من الحديث ؛ وانطلقت أحدثه عن الاختلاف الذى بين نظرتى الى الامور وبين نظرته ــ بين الثورة السريعة وبين التطور الذى ينتظر مرور القرون قبل أن يهىء الشعب للحرية ·

وكان يستمع الى فى صمت كأنه يريد أن يسبر أغوارى ·

ولما فرغت من حديثى وجدته ما يزال ينظر الى باسما وقال ·

ــ أشكرك على الاسراع الى اجابة رجائى · وأعتذر اليك من قلة المرتب الذى عرضته عليك ·

فقلت مسرعا : هذا فوق الكفاية ·

فتبسم قائلا : أنت رجل طيب فترضى هكذا سريعا · ولكن الجريدة تشق طريقها برغم كل شىء · وسنكبر معا ·

فقلت متحمسا : أنا سعيد بأن أعمل معك يا سيدى ·

فقال مبادرا : أحب أن أبين لك طريقتى فى العمل حتى لا يداخلك شىء من سوء الظن عندما تعرف أنك ستبدأ عملك بقراءة البروفات ·· هذه هى طريقتى ·

فقلت فى سرى : « هكذا أبدأ دائما · كتابة الأرقام على البالات هناك وقراءة البروفات هنا » ·

وأخرجت من جيبى مجموعة من الأوراق فيها قصة جديدة ومددت بها يدى نحوه ·

فأخذها قائلا : قصة أخرى ؟ أهنئك يا أستاذ سيد ببراعة أسلوبك· ولا تظن أنى أقلل من شأنك عندما أطلب منك أن تراجع البروفات · هذه طريقتى عندما يدخل الى الأسرة عضو جديد · أحب أن يتعرف هذا

العضو الجديد الى كل الأعضاء الآخرين ، وأحسن وسيلة لمعرفتهم هى قراءة أفكارهم فى دقة واهتمام . ستعرف أفراد هذه الأسرة من ناحيتها الهامة وهى أقلامها .

فقلت مسرورا : هذه نظرية صائبة وأنا سعيد بأن أعمل معك .

ووقفت لأنصرف ، فمد الى يده مصافحا ولكنه وقف لى فى هذه المرة قائلا :

ـ الى اللقاء غدا فى الصباح .

وخرجت من عنده وأنا أسأل نفسى أى صنف من الناس هو . ومع كل ما ظهر لى من بشاشته وأدبه خرجت من عنده وأنا أحس أنه أعمق غورا مما يبدو .

وذهبت الى دكان الشيخ مصطفى فوجدته جالسا على الدكة عنـد مدخل الدكان وفى يده رغيف محشو بجبن يقضم منه ، فلاقانى كما لو كنا أصدقاء منذ سنوات وقال لى :

ـ مرحبـــا .

وفسح لى مكانا الى جنبه وأخذ يسألنى عما جئت من أجله . ولما علم أنى كنت مع الأستاذ على مختار قال فى حماسه :

ـ على بيـــه ؟

فقلت : أتعرفه ؟

فأجاب ضاحكا ! أراه كل يوم ولكنى لا أعرفه .

وكنت لم أطعم شيئا منذ الصباح فقلت :

ـ أتسمح لى بشىء من الطعام ؟

فمســـح فمه بيده قائلا : رغيف وجبنة وحـــلاوة وسردين وكل ما تريد .

وقـــام ليجهز لى الطعـــام ثم وضعه على الدكة فوق ورقة قديمة من أوراق الصحف قائلا :

ـ تفضل بألف هنا .

وأخذت آكل بشهية عظيمة وهو يبادلنى الحديث . وأخذ يسألنى عن قصدى حتى عرف أنى جئت لاعمل محررا فى الجريدة .

ولما عرف أني من دمنهور قال لى :

ـ تشرفنا · أحسن تجار أهل دمنهور ·

فقلت مباهيا : وأنا كذلك كنت تاجرا ·

ففرك يديه بعد أن فرغ من طعامه وقال :

ـ الحمد لله ، رضا ، اسمع يا أفندى · الأرزاق بالله فلا تحزن ولا تيأس · التجارة مثل المرأة اللعوب تضحك مرة وتغضب عشرين . هل خسرت كثيرا ؟

فقلت : لم أخسر بل ربحت ·

فقال في دهشة : ومع ذلك تترك التجارة ؟ وماذا تريد من هذه الجريدة ؟ تكتب فيها ؟ ما هذه الخيبة ! اسمع يا سيدنا الأفندى · اذا كنت لم تخسر فى التجـــارة فارجع اليها حتى تخسر · اسمع نصيحتى ولا تشتغل في الجرائد · كلام فارغ · كل جريدة تشتم الأخرى وكل كاتب يقول للآخرين « أيها اللصوص » « أيها الخونة » يعنى ان الجميع لصوص وخونة · فماذا تريد ؟ ارجع الى التجارة وافعل مثلى · والله لو أعطانى على بيه خمسين جنيها فى الشهر لم أقبل أن أترك التجارة ·

فضحكت قائلا : لست أصلح للتجارة ·

فقال : قلت لك انها كالمرأة اللعوب · تضايقك ؟ لا تتضايق · تحزنك ؟ لا تحزن · صالحها ، ضاحكها راجعها بكل وسيلة ، واذا لم ترض عنك عاملها بالقوة · اضربها · العنها · جرها من شــعرها · ولــكن لا تيأس · الحمد لله · رضا !

وأخذ يقبل يده ظهرا لبطن ·

فقلت له : يظهر أنى لم أخلق لها ·

فقال وهو يهز رأسه : : مسكين له الله يساعدك ·

ولما فرغت من طعامى مسحت يدى وفمى فى منديلى ودفعت له الثمن وقمت قائلا :

ـ تسمح لى بابقاء الحقيبة عندك ؟

فقال : مرحبا ! محلك يا سيدى · تفضل فى أى وقت لغاية الساعة العاشرة · أين تقيم ؟

فقلت : لا أدرى ٠

فقال : اسمح يا أفندى ٠ اسم الكريم ؟

فقلت : سيد زهير ٠

فقال : عاشت الأسامى ، اسمع يا سيد أفندى ٠ أنت رجل طيب ويظهر أنك ابن ناس طيبين ٠ وعندنا غرفة فى سطح البيت وكان فيها رجل طيب مثلك ، فيها سرير وكرسى أسيوطى وكنبة وشباك بحرى وقدمها أخضر ٠ لم يبق صاحبنا هناك الا سنة ثم انتقل بترقية ٠ عقبى لك ٠ سافر الى الاسكندرية درجة ثامنة ٠

فضحكت قائلا ، يا سلام ! لابد أنه كان متعلقا بآخر عربة فى القطـــار ٠

فضحك هو الآخر قائلا : أقصد أنه نقل الى الاسكندرية وأنه موظف درجة ثامنة فنية ٠ موظف فنى مهم ٠ قدمها أخضر مائة فى المائة ٠

فقلت : وأين المنزل ؟

فأشار الى ورائه اشارة مبهمة قائلا : قريب من هنا ٠ فى الخدمة يا سيد أفندى ٠

وخرجت من الدكان أسير الى غير قصد لأقطع الوقت حتى يأتى المساء ، وجعلت أنظر حولى حتى لا أضل الطريق عند عودتى ٠ وكانت المناظر متشابهة والأبنية كلها عالية كأنها توائم ، لا يمكن تمييز أحدها عن الآخر ٠ فعرجت على أقرب قهوة حتى لا أبعد فى المسير وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف ٠

وكان اسم القهوة « نادى الأدباء » فسررت اذ وجدته فألا حسنا ٠ وجلست فى ركن على جانب الطريق وطلبت فنجانا من الشاى ، وأخذت أفكر فيما أفعل ٠ وكان منظر الطريق مسليا كأنه فيلم سينمائى لا تنقطع فيه الحركة ٠ فخطر لى أن أقيد ملاحظاتى حتى لا تشرد منى تشبها ببعض من قرأت عنهم من الأدباء ، وفتحت عينى لكل ما يمر بى وأخرجت كراسة صغيرة كانت فى جيبى وأخذت أنظر وأكتب ٠ يا لها من لحظات سخف ما أزال أضحك منها كلما تذكرتها ، وما أزال الى اليوم محتفظـا بهذة الكراسة الصغيرة كتذكار لهذه الجلسة ٠

وأضاءت الأنوار ايذانا باقتراب المساء ، فقمت وكانت الساعة السادسة ، فلما وصلت الى دكان الشيخ مصطفى وجدته ما يزال جالسا على الدكة عند مدخل الدكان والى جواره عدد من الناس يأكلون وهم وقوف ويتحدثون أحاديث شتى تتخللها السخرية،ويمضغون كلما تهم مع اللقم التى يقضمونها من الأرغفة التى فى أيديهم · هى السياسة دائما ·

فجلست على الدكة الى جانب الشيخ وشاركت فى الحديث وكان يدور حول ما يتناقله الناس من فضائح ، كأن المدينة قد خلت الا من أعوان الشيطان · وكان الشيخ مصطفى محور تلك الأحاديث ، يضيف الى كل قول كلمة من رأيه تثير ضحكة عالية ·

ولما صارت الساعة الثامنة صرت لا أحتمل البقاء طويلا فقلت للشيخ :

ـ متى تعود الى المنزل ؟

فنظر الى ساعته وقال : يا سلام ! أتحب أن نذهب الآن ؟

فقلت أحب أن أستريح اذا أمكن ذلك · فنظر الى أصحابه قائلا :

ـ عن اذنكم يا جماعة · تعالوا نتم سهرتنا فى المنزل ونوصل صاحبنا هذا ·

وأغلق دكانه وسرنا فى حلقة صاخبة نتبادل الفكاهات عن كل ما يقع عليه بصرنا ، وأدهشنى الشيخ لأنه كان أكثرهم مرحا وطربا حتى خيل الى أنه شخص آخر غير الذى رأيته فى ساعة الظهر ·

ولم يكن المنزل بعيدا فدخلنا من بابه الخشبى القديم الى ردهة مظلمة سرنا فيها على ضوء أعواد الكبريت حتى بلغنا فناء مربعا فيه مصباح بترول صغير على حامل خشبى مثبت فى الجدار ، وفتح الشيخ الغرفة التى فى صدر الفناء حاملا اليها المصباح ، ودعا أصحابه للدخول فيها حيث جلسوا على حصير حوله بعض (الشلت) الصغيرة ، ثم عاد وأوقد عودا من الكبريت ليضيء لى الطريق الى أعلى السطح حيث كانت غرفتى ·

وكان القمر ساطعا فأغنانا عن اشعال الكبريت فى السطح ، وفتح الشيخ باب الحجرة وأوقد مصباحا على رف خشبى فيها فاستطعت أن أرى منزلى الجديد ٠

وكان هناك سرير قديم ولكنه نظيف وكرسى أسيوطى و (كليم) صغيرة ومنضدة وكنبة ، ولم أجد فرقا كبيرا بينها وبين الغرفة التى اعتدت النوم فيها بمنزلى ، فأظهرت الارتياح وشكرت الشيخ فاستأذن مسرورا عندما عرف أن الغرفة أعجبتنى ٠

- ١٥ -

ألفت الحيـــاة فى القاهرة وبدأت أعتاد ضجتها وسرعة حركتها وضخامة هيكلها ، وبدأت أتذوق ما فيها من معالم القرن العشرين واطلال العالم القديم ٠

فكنت فى ذهابى الى بيتى أمر بشارع فؤاد وأنقل بصرى فيه متأملا ما هناك من تبرج وبراعة وسذاجة وصراحة ، فيها شبه من بلاهة الطفولة المدللة المغرورة ، ثم أمضى فى سبيلى حتى اذا اقتـــربت من مســـجد أبى العلاء وجدت نفسى فى مدينة أخرى من بقايا عالم قديم كان يمتاز بالغموض والكبرياء والوعى الغريزى ، ولكنه عالم اندثر ولم يبق منـــه الا روح متمرد جبار يتحصن فى بقـايا الأطلال المتداعية حتى لا تقهره المدنية الجديدة ٠

فاذا اقتربت من بيتى – أو بقول آخر اذا اقتربت من بيت الشيخ مصطفى حسنين خيل الى أيضا أننى انتقلت من مدينة الى أخرى أو من عالم الى عالم آخر ٠ ولست أدرى ما الذى جعلنى أرتاح الى الاقامة فى هذا الحى على ما فيه من قذارة وظلام وفوضى ، فانى مع شعورى بكل ما فيه من عيوب كنت أجد فى جوه شيئا مؤنسا ساحرا لا أدرى ما هو ٠

وكانت عطفة الشيخ مصطفى لا تكاد تبلغ فى سعتها اربعة أمتار ، وكانت دائما مبللة بما يلقى اليها من الماء القذر من أعلى البيوت أو من أسفل الأبواب ٠ وأما جدران البيوت فكانت عارية تبرز منها أسنان من الطوب الأحمر المتآكل وتتخللها نوافذ لا تزيد على ثقوب تسترها قطع من الصفيح أو القماش أو جانب قفص من الجريد ٠ ومع هذا فانها اصبحت مألوفة عندى ٠ وألفت غرفتى حتى صرت لا أجد فيها شيئا من الضيق عندما كنت أضطر للاستحمام فى (محل الأدب) من صفيحة ماء ، ولا عندما كان الهواء البارد يهب علي فى ساعة الصباح من النافذة المكســـورة ٠

وكنت فى كل يوم أقضى ساعة بعد عودتى الى المنزل لأعد عشائى مما أحمله معى من البيض والجبن والزيتون ، ثم أجلس ساعة قصيرة أشرب

بعض أكواب صغيرة من الشاى الذى كنت اتحرى فى اختياره وأتانق فى اعداده ، وأبدأ بعد ذلك فى عمل الليل وهو القراءة والكتابة ٠

واشتريت مصباحا جديدا قوى الضوء حتى لا أتعب بصرى بضوء المصباح الصغير الذى أعده الشيخ مصطفى لساكن غرفته ، فكان ذلك يساعدنى على الاستمرار فى القراءة والكتابة الى ما بعد نصف الليل أحيانا ٠ ولكن النوم العميق الذى كنت أغرق فيه بعد هذا كان يجعلنى اهب فى الصباح نشيطا صافى الذهن مستبشرا ٠

هكذا قضيت الشهرين الأولين من اقامتى بالمنزل ، حتى رأيت يوما فطومة ابنة الشيخ مصطفى تأتى الى فى الصباح الباكر وفوق رأسها صينية كبيرة عليها طعام من الفول المدمس والطعمية والبيض المقلى وفنجان من الشاى الثقيل القاتم اللون ٠

وشكرتها مخلصا على هذه الخدمة لأنى كنت بدأت أضيق بخدمة نفسى ٠ فصارت الفتاة تحمل الى افطارى كل صباح فتضعه على عتبة الباب حتى اذا قمت من النوم وجدته ينتظرنى ٠ ولما مضت بضعة أسابيع اخرى بدأت فطومة تترقب الميعاد الذى أستيقظ فيه فاذا احست بأننى اتممت لبسى صعدت الى تحمل الصينية فتضعها على المنضدة ثم تجلس عند عتبة الباب حتى أفرغ من الأكل فتحملها ٠ وكان من الضرورى أن اتفق على ثمن هذا الطعام ، ورضيت فطومة بعد تمنع كثير أن أدفع كل شهر جنيها واحدا ٠ ولكننى كنت أدفع لها مائة وخمسين قرشا لأن هذا اقل ما كنت أفطر به فى المدينة فوق ما فى طعام البيت من كرامة وراحة ونظافة ٠ ولما مضت أشهر الربيع أصبحت فى المنزل كأنى أحد أفراد الأسرة وصرت لا أغض طرفى كلما مررت بشقة الشيخ مصطفى كما صارت فطومة تصعد الى غرفتى فى أوقات مختلفة من اليوم وتقضى معى أحيانا ساعة طويلة تثرثر وتغنى ٠

وكانت فتاة فى نحو الخامسة عشرة من العمر ولكنها تبدو فى أحاديثها ومعاملاتها أكبر سنا من هذا ٠ كانت وهى تنتظر فراغى من الافطار تجلس عند الباب تقص على أحاديث شتى من الشرق والغرب عن أمها وأبيها وجيرانها رجالا ونساء ، وتعيد على الأخبار التى تتلقفها من الطريق ومن حوانيت السوق ، وكنت اعجب أشد العجب من المامها بما لا تلم به صغيرة مثلها ، كما كنت أعجب من دقة نظراتها التى تنم عن أنها على مقدار عظيم من الذكاء الفطرى ٠

وكانت لا تخجل أن تحدثنى عن نفسها أحاديث تخجل الفتاة الصغيرة من مثلها ، فقد عرفت منها أن شهاب افندى الموظف الذى كان

يسكن فى الغرفة من قبلى كان يريد أن يتزوجها وقصت على بعض أخباره ونوادر مغازلاته فكنت أشعر بالحرج من سماعها وأنكمش فى نفسى خجلا ، ولكنها كانت تضحك مكركرة فى مرح جرىء عندما تلمح خجلى ٠

وأما عملى فانى اندمجت به بعد قليل ووجدت فيه عالما واسعا ممتعا بعد أن كنت فى مبدأ الأمر شاعرا بالغضاضة من أنى لا أزيد على قارىء بروفات ٠ وقد تعرفت زملائى من قراءة بروفات مقالاتهم أكثر مما كنت أعرفهم من وجوههم حتى صار لكل منهم فى ذهنى صورة مجردة تميزه عن الآخرين تمييزا واضحا ٠

وبدأ الأستاذ على مختار يطلب منى الكتابة بعد أن قضيت فى الدار الشهور الثلاثة الأولى ، ولم ألبث الا قليلا حتى طلب منى أن أستقل بباب خاص فاخترت له عنوان « أنا الشعب » مستعيرا تلك الصرخة التى كنت أصرخها وأنا فى سجن مركز دمنهور ٠ وكان الأستاذ يبدى اعجابه بأسلوبى « الحريف » فشجعنى ذلك على أن أطلق العنان لما كان يجيش فى صدرى من المشاعر الثائرة التى تجد وقودا كل يوم من أحوال الناس والسياسة ، فصار لما أكتب صدى قوى على ما ظهر لى من الرسائل التى أخذت تنهال على مع البريد كل صباح ٠

كانت الثورة تتأجج فى النفوس من تحت الرماد ولا يمنعها من الانفجار الا الخوف من العسف ٠

وتطوع الأستاذ على مختار بعد قليل بزيادة مرتبى الى ثلاثين جنيها فى الشهر كما زاد أجرى على القصة الى عشرة جنيهات ، فأصبح ما يصل الى فى كل شهر نحو خمسين جنيها ، وهو دخل لم يخطر لى ببال فى يوم من الأيام ٠

وهكذا صرت قادرا على أن أبعث الى أمى ما يزيد على كفايتها ٠

والتحقت بقسم الصحافة بالجامعة الأمريكية ووجدت فى هذه الدراسة تسلية فوق ما فيها من فائدة ، لأنها شغلت جزءا من الوقت الذى كنت أضيق به كلما خلوت من العمل ٠

هكذا قضيت فى القاهرة شهرا بعد شهر بغير أن أذهب الى دمنهور مع أنى عندما سافرت الى القاهرة فى أول الأمر كان يخيل الى أننى لن أنقطع اسبوعا واحدا عن زيارة مسقط رأسى العزيز ٠ ومنى ! أنسيتها ؟ ما أعجب أسرار النفس الانسانية وما أشدها غموضا ! لم أنس ذكر منى فى هذه المدة يوما واحدا ، ولكنى كنت أتعمد أن أصرف نفسى عن التفكير فيها ٠ كنت أحس شيئا يشبه الحنق كلما خطرت لى صورتها العزيزة ، ولكنه كان مع هذا أبعد شىء عن الحنق عليها ٠ هو شعور أقرب الى الحنق ٠٠٠

على نفسى وعلى شىء آخر غيرها • وماذا يجدينى الاسترسال فى التعلق بها وهى لا تزيد على أمل بعيد يشبه النجم فى السماء أو الأفق وراء الجزيرة أو السراب فى الصحراء • كنت أصرف نفسى عنها عامدا كما يتعمد المسافر أن يصرف نفسه عن الحبيب الذى يفارقه خوفا من الانهيار فى موقف الوداع • ولكن العجيب فى أمرى شىء آخر قد لا يخطر على بال أحد وذلك أن فطومة الساذجة المسكينة الصغيرة بدأت تؤنسنى كلما جاءت الى تحمل صينية الافطار •

وبعد مرور عدة أشهر بدأت تتجرأ فى بعض الأحيان وتدخل الغرفة لتجلس على طرف الكنبة بدلا من الجلوس على العتبة ، وكنت أحيانا أضيق بها اذا تكلمت عن أشياء لا أعرف عنها شيئا أو لا تهمنى أو تثقل على سمعى ، فأقول لها فى عنف «مالى وكل هذا ؟» ولكنها كانت لا تغضب بل تضحك قائلة : « وما له ؟ » •

وتبين لى بعد حين أن لها براعة فى الغناء والفكاهة فكنت لا أردها عن زياراتى وأدعها تمضى على سجيتها كطفلة مرحة خفيفة الروح وأجد فى انطلاقها ما يرفه عنى اذا كنت متعبا • وكانت أحيانا تثير رحمتى عندما تذكر أنها تشتهى شيئا ولا تستطيع أن تشتريه فأعطيها ما تشتريه به وأجد جزاء وافيا فى تعبيرها عن سرورها بطريقتها الساذجة ، اذ كانت تهب كالعاصفة وتطوق عنقى بذراعيها وتغنى أغنية بلدية فيها مداعبة جريئة فانزع ذراعيها عن عنقى فى ترفق وأعنفها تعنيفا يسيرا لا يزيدها الا معابثة ومرحا •

ولكن المسكينة بدأت بعد حين تتكشف عن نواح أخرى لم أتوقعها من قبل ، فقد حدث يوما أن جاءت الى ومعها قطعة من مادة سمراء رفعتها أمام عينى بين أصابعها قائلة :

ـ احزر ما هذه •

فسألتها : ما هذا ؟

وهممت بأن آخذها منها لأفحصها • فابتعدت عنى ضاحكة وقالت هامســـة :

ـ نصف ريال •

فأعدت سؤالى : ما هذا ؟

فضحكت قائلة : فرفوشة !

فسألتها متعجبا عن معنى « فرفوشة » فضحكت ضحكة عالية فيها شىء من التبذل وقالت :

ـ كان شهاب افندى يطلب منى كل يوم قطعة ويعطينى ريالا ٠ ولكنها لك بنصف ريال ٠ كنت أموت من الضحك عندما أسمعه يتكلم بعد أن يضعها فى سيجارة ويشربها ٠ ألا تعرفها يا سيد أفندى ؟ جرب ! ضعها فى سيجارة وأشعلها تجد نفسك سعيدا ٠

وضحكت مرة أخرى قائلة :

ـ تعيش بها فى الجنة يا سيد أفندى !

وأدركت من قولها أنها قطعة من الحشيش ، فانقبض صدرى من أجلها ٠ طفلة مسكينة لا تحس بأنها ترتكب اثما ٠

وسالتها فى عنف وحدة :

ـ من أين أتيت بهذا !؟

فأجابت فى نغمة غضب وعتاب : الحق على يا سيد أفندى ٠ ولوت راسها وأسرعت نازلة وقضت بعد ذلك ثلاثة أيام لا تزيد فى زيارتها على حمل صينية الافطار فى الصباح وتركها عند باب غرفتى ٠

وفى اليوم الرابع جاءت بالافطار وهى تبتسم ابتسامة عتاب فام التفت اليها وجلست لأفطر ٠ فقالت وهى تضع يديها من ورائى حـول عنقى :

ـ لو كان شهاب أفندى لخطفها منى ٠

فقلت فى رحمة ممزوجة بالغضب :

ـ انك مجنونة ! لولا خوفى عليك لأخبرت والدك ٠

فوضعت يديها على فمى قائلة :

ـ هس ! لو عرف يموتنى ! طلق امى مرة لأنه رآها تأخذ قطعة من جيبه ٠

ولا أستطيع أن أصف دهشتى عند ذلك ٠ الشيخ مصطفى يتجر فى الحشيش ! وعادت الى ذهنى بعض لمحات لم أفطن الى معناها من قبل : العمال وهم يلتفون به عند باب دكانه ، والاضطراب الذى كان يبدو عليه أحيانا عندما أقف أمام بابه وهو مشغول بشىء أمامه فى منديل أحمر ، فيبادر بلف المنديل ويدسه فى أحد الرفوف ثم يقول لى « ألف نهار أبيض ! » وهؤلاء الأصحاب الذين يذهبون معه الى البيت ويواصلون السهرة فى المنظرة ٠ كل هذه اللمحات كانت تمر بى بغير أن أفهم لها معنى ، ولكنها اتضحت لى فى تلك اللحظة ٠

وأخرجت ريالا من جيبى وقدمته للفتاة قائلا :

ــ هذا لك وكلما أردت نقودا فاطلبيها منى ، وأرجو أن تمتنعى عن هذه القطع السمراء .

فخطفت الريال من يدى وأسرعت خارجة من الغرفة وهى تغنى فى قلة اهتمام : « يا عرقسوس شفا وخمير » .

ولست أدرى لماذا كدت أبكى عند ذلك،مع أنها كانت تغنى سعيدة . وامتنعت فطومة بعد هذا من عرض قطعها السمراء على ، ولكنها لم تنقطع عن عادتها فى زيارتى والثرثرة الى جانبى والغناء فى أثناء ذلك ، وكان صوتها حقا من أبدع الأصوات التى سمعتها . وكنت أعطيها بين حين وآخر بعض النقود القليلة لعل ذلك يحميها من الالتجاء الى مثل فعلتها الأولى . ولكنى كنت أحس شيئا من الضيق عندما كنت أجدها تأخذ النقود فى جرأة كأنها تخطفها ، وكنت فى كل مرة أجادل نفسى هل من الخير أن أيسر لها مد اليد ، ولكنى كنت أعود فأعطيها مرة أخرى ، ومهما يكن من الأمر فانى تعودت حياتى هذه حتى كأنى كنت أحياها طول عمرى ، واستمر نجاحى فى عملى وكنت فى كل يوم أتقدم فيه خطوة ، وازدادت خبرتى بشئون الحياة واطلعت فى هذه الشهور الأولى من حياتى على كثير مما كنت لا أحلم به فى حياتى الأولى ، وكان من أشد ما عرفت وقعا على نفسى أننى كشفت حقيقة بشعة وهى أن كثيرا من الناس لا يؤمنون بشىء ، وكان مما زادنى ألما فوق عجبى أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بشىء هم الذين يخضع لهم الناس ويسمونهم السادة . وقد تعودت فيما بينى وبين نفسى أن أسمى هؤلاء السادة المزيفين باسم المساكين ولكن هذا لم يعصمنى من محاولاتهم فى افسادى . نعم فقد حاول بعضهم أن يساومنى على ضميرى كما تعود أن يفسد غيرى .

دعانى يوما محسن باشا أحد كبار الزعماء وكانت ليلة الاحتفال بذكرى وطنية . ولما جلست مع الزعيم قربنى وأظهر لى ما لا مزيد عليه من الاكرام والاجلال وبدأ يتملقنى على مسمع من الحلقة المحيطة به ، ووكد لى مودته وتقديره لحسن أسلوبى وطلاوة عبارتى وسداد آرائى وبدأ يعرج على ما كنت أكتبه فى مقالاتى تحت عنوان « أنا الشعب » حتى قال لى بعد تمهيد طويل :

ــ أنا واثق من حسن قصدك ولكن الناس قد يفهمون أنك تقصدنى .

وكنت حقا أقصده بكثير مما أكتب فى هذه المقالات فقلت له فى بساطة :

ــ لست أكذب عليك فانى أقصد كل من يصدق عليه قولى .

فقال متمالكا نفسه :

ـ تعجبنى فيك الصراحة دائما ، وانه لما يسعدنى أننا متفقان فى الرأى ·

فقلت فى شىء من السخرية : هذا يسعدنى أكثر ·

فقال : أننا جميعا طلاب حرية ·

فقلت فى دفعة : المهم هو تحديد معنى الحرية ·

فقال : المعنى واضح لا يحتاج الى تحديد · الحرية هى الحرية ، هى المبدأ الذى نجاهد من أجله ·

فاندفعت قائلا فى حنق : لست أفهم يا سيدى هذا اللفظ الا اذا كان يترجم فى حقائق · أين تكون الحرية بغير العدالة التى تكفل للجميع حقوقهم وترعى حرماتهم وتسوى بينهم فى الواجبات · أين تكون الحرية اذا انعدمت الأخلاق العامة وفسدت النزاهة وعمت عبادة المال ؟ أين تكون الحرية اذا كان السادة يسرقون ويضاربون ويضربون أمام أعين الجماهير أسوأ الأمثلة للأخلاق ؟ ما هى الحرية اذا انعدمت المقاييس الأخلاقية وانفرط عقد الناس وصاروا فوضى لا يؤمن كل منهم الا بنفسه ومصـــلحته ؟

فاحتقن وجهه ولكنه كظم غيظه وقال عاتبا :

ـ أما كان أولى بك لو جئت الى فأطلعك على الحقائق ·

فقلت فى ارتياح : هذا يسعدنى ، ولك يا سيدى أن تكذب ما تراه كاذبا من أقوالى ·

فكبر قولى على الجالسين فى الحلقة وبدأوا يتدخلون فى الحديث وأدهشنى أن الزعيم انفجر فى أحدهم بدلا من أن ينفجر فى أنا وصرخ فيه قائلا :

ـ اخرس أنت !

وأدهشنى أكثر من ذلك أن ذلك السيد التابع خرس فعلا وانزوى فى ركنه صامتا مع أنه كان ينتفش اذا ظهر أمام الناس كالديك الرومى ·

واتجه الزعيم الى قائلا :

ـ انى فضلت أن أدعوك الى هنا لأكلمك حتى تعلم أنى لا أريد بك الا كل خير · بل انى فكرت فى أن أسند اليك وظيفة ·

فابتسمت فى سرى وقلت له :

– أشكرك يا سيدى لأنى لا أطلب وظيفة ٠

فزاد وجهه احمرارا وبدأ يرفع صوته فى المناقشة وكان كلما سمع أحد أتباعه يتكلم يصيح به فى جفاء قائلا « اسكت أنت ! » ٠

وكانت لفتاته ونغمة صـــوته تدل على أنه كان ينفس من غيظه بالانفجار فى هؤلاء الأتباع الذين يعرف أنهم حوله مثل الكلاب الأليفة ٠

واستمرت بيننا مناقشة طويلة ، وكانت حرارة الزعيم تزداد شيئا فشيئا ولم يطل انتظارى للانفجار المتوقع فانه أخذ بعد قليل يخبط بيديه على المكتب الذى أمامه ويصيح بأعلى صوته :

– من لا يكون معى أحطمه ! من لا يكون معى أكسره !

وخيل الى أننى حيال مجنون هائج،فضحكت فى رثاء وكانت ضحكتى هذه المرة ظاهرة ، وتذكرت موقفى القديم مع السيد أحمد جلال عندما قال لى هو الآخر انه يحطمنى ٠ وقلت فى نفسى ان هؤلاء جميعا لا يعتمدون الا على مقدرتهمفى التدمير والتحطيم ، فلننظر !

وقلت له هادئا : وماذا يدعوك الى تحطيمى ؟

فزاد حنقا من هدوئى واستمر يخبط بيديه الاثنتين على المكتب كأنه ثور مسعور ، وانفتخت أوداجه حتى كأنه يريد أن ينفلق ٠

وتذكرت موقفى القديم من السيد أحمد جلال وما قلته له عندما هددنى فاندفعت صارخا فى وجهه ٠

– اعلم أنك لا تقدر أن تحطمنى ولا أن تكسرنى ٠ ومن أنت حتى تحطمنى ؟ لست الها ولست صاعقة وما أنت الا بشر مثلى ٠ لا تصدق أنك تستطيع أن تحطم أحدا الا اذا كان هو يحطم نفسه ٠ انك أنت تحطم نفسك بمثل هذا الغرور الذى يجعلك تظن أنك اله٠ليكن سلطانك ما يكون فانك لن تجد سبيلا على لأنى لا أطمع فى شىء عندك ٠

وقمت لأنصرف ، فتشبث بى أتباعه وأجلسونى قسرا وتعجبت من الزعيم الكبير عندما رأيته يهدأ على أثر دفعتى ، بل انه أخذ يخاطبنى خطابا لينا ويقول لى فى هدوء « انك أسأت فهمى ولم أقصدك بكلمتى وما أنت الا مثل ولدى » ٠

ولم أبق فى المجلس بعد ذلك الا ريثما يهدأ الجو بعـد المنظر العاصف،ثم قمت خارجا فقام ورائى عدد من الأتباع وجعلوا يلومونني على

أنى رفعت صوتى فى حضرة الزعيم الذى لا يجرو وزير على أن يرفع صوته أمامه ٠

فقلت لهم فى هدوء :

ـ أحمد الله على أن لى صوتا أرفعه ٠

ثم مضيت من ساعتى الى « بريد الأحرار » لأكتب مقالا آخر عن « الزعماء المزيفين » ٠

- ١٦ -

عندما دخلت فى اليوم التالى على الأستاذ على مختار بادرنى قائلا :

ـ عظيم يا أستاذ سيد !

وكان منهمكا فى قراءة المقال الذى كتبته فى الليلة السابقة • فلما أتم القراءة نظر الى حينا فى صمت ثم قال :

ـ عندى مهمة لا يقوم بها على أتم وجه الا أنت •

ومد الى يده بتذكرة دعوة •

واستمر يقول : هذه دعوة الى حفلة كبرى بمنزل الوجيه حسام الدين بمصر الجديدة ••• حفلة استقبال أمير كبير وولى عهد دولة شرقية صديقة • ستكون فى الساعة التاسعة من مساء اليوم والآن الساعة العاشرة صباحا • لا تعتذر بشىء فلك أن تشترى من الملابس ما تشاء ، وسيكون المصورون تحت أمرك • ستكون هذه الحفلة موضوع أحاديث المجالس والأندية والمنازل طوال الأسبوع المقبل ، وستسهر الادارة حتى ترسل اليها المقال الذى ستكتبه فى وصفها • لك صفحة بيضاء تكتب فيها ما تشاء بغير مراجعة • وستكون عربتى الخاصة تحت تصرفك •

لست أقول لك « ما رأيك » ولكنى أقول « ها هى ذى يدى الى اللقاء » •

ليس عندى شىء أقوله لك الا أن تكتب كما تكتب دائما • وهذه مائة جنيه تصرفها كما تشاء •

وتبسم عاطفا وهو يضع أمامى ورقتين من ذوات الخمسين جنيها • فوجدت نفسى مثل رجل يرى نفسه واقفا أمام طيارة على غير انتظار وشخص آخر يدفعه قائلا له « هلم الى نيويورك » •

أأقول له لا أريد أن أذهب؟هذه هى الكلمة التى كدت أنطق بها ، لولا أننى سمعته يقول لى باسما « لا تضيع الوقت فى الوقوف هكذا يا أستاذ سيد • سنطبع عشرين ألف نسخة فوق ما نطبعه كل يوم » •

وخرجت من عند الأستاذ وأنا أسأل نفسي كيف يفكر هذا الرجل ، وأي نوع من المقالات يريد مني ؟ أهي دعاية للسيد الوجيه ؟ أم هي دعاية للأمير ولي عهد الدولة الصديقة ؟ أم هي خطة لا أعرفها للبدء في معركة ؟ لقد علمتني الأشهر التي عملت فيها مع الأستاذ علي مختار انه رجل عميق الأغوار ٠

وسألت نفسي الى أين أذهب ، ولكني ركبت عربة الأستاذ وقلت للسائق أول اسم خطر لي : محل مانويل ٠

ثم قلت في نفسي ماذا أصنع بهذه الجنيهات كلها ؟ بدلة عظيمة وحذاء جديد طبعا من النوع اللامع ، وماذا أيضا ؟ رباط رقبة ومنديل وقميصان مثلا ٠ ثم ماذا ؟ أظن أن البائع سيفتح لي أبواب الشراء على وسعها فلا حاجة بي الى التفكير في طريقة الانفاق منذ الآن ٠ وتحقق ظني فلم أجد صعوبة في صرف الجنيهات عندما دخلت الى محل (مانويل) كما لم أجد صعوبة في اختيار الملابس والألوان ٠ أخذت النقود تطير مني كالعصافير ٠ قميص بخمسة جنيهات ورباط رقبة بثلاثة ، ولم يكن من المناسب أن يكون لي قميص واحد ، أو رباط رقبة واحد ٠ والبدلة بثلاثين جنيها والحذاء بخمسة ٠ وتذكرت أني في حاجة الى ملابس تحتانية لأن مثل هذه البدلة لا يليق بها أن تعتلي ملابسي القديمة ٠ وبعض مناديل حريرية وجوارب وعلبة سجاير وقفاز وبعض زجاجات عطور ٠

ومجمل القول أني صرفت أكثر الجنيهات التي أخذتها من الأستاذ ولم يبق في جيبي الا بعض جنيهات (فكة) ٠ ولبست البدلة لأجربها فوجدتها بديعة كأنها مفصلة على قدي ونظرت الى صورتي في المرآة ولست أبالغ اذا قلت أني كنت وجيها حقا ، بل اني كنت أوجه من محمود خلف ٠ وتمثلت نفسي واقفا أمام مني أقول لها : « أما تعجبك هذه البدلة السوداء ؟ » ٠

وحمل عامل المتجر ما اشتريت الى السيارة فنفحته بربع ريال ثم ركبت حتى وصلت الى مدخل حارة الشيخ مصطفى ، ولم تهمني نظرة السائق عندما أمرته بالوقوف هناك أمام حارة ضيقة قذرة وطلبت منه في تعال أن يعود الى قبل منتصف الساعة التاسعة من المساء في المكان نفسه

ولم أجد صعوبة في حمل الربط التي اشتريتها لأنها لم تكن ضخمة، وعرجت على بقال قريب من المنزل فاشتريت منه رغيفا وبعض الجبن وعلبة من الفاكهة المحفوظة ، وسرت الى المنزل وأنا أتأمل في تفاهة الجنيهات المائة التي أحمل ما اشتريته بها في يدي اليمنى وتحت ابطي ٠

وقضيت بعد ظهر اليوم في الاستعداد للحفلة فحلقت ذقني واستحممت وأكلت واسترحت الى قريب من ساعة الغروب ، ثم بدأت

ألبس ملابسى من تحتانية وفوقانية ، وشعرت بوقع خطوات فطومة خارج الباب • ولست أدرى ما الذى جعلها تأتى الى فى تلك الساعة وأنا فى ملابسى الأنيقة ، فقد خجلت من الظهور بها أمامها •

ولما رأتنى الفتاة وقفت أمامى تحملق فى وجهى مندهشة ، شهقت وضربت صدرها بيدهـا واندفعت نحوى تطوق عنقى بذراعيها قائلة : مبروك !

ولم أعرف كيف أرد هـذه التحيـــة العنيفة ، وتمنيت لو كنت تذكرتها لأشترى لها هدية تفرح بها ، وخطر لى بعد لحظة أن أهديها أحد المناديل الحريرية التى اشتريتها فأخرجته من ربطته وقلت لها كاذبا : هذا المنديل هدية اشتريتها لك يا فطومة •

فمسحت يديها فى ثيابها وأخذت المنديل وهى تصـيح فى فرح قائلة : الله !

وجعلت تنظر الى المنديل بعد أن نشرته أمام عينيها وأخذت تصيح فى فرحة عظيمة « الله يخليك يا سيد أفندى » • ونفضته وثننه ونظرت الى الوانه معجبة، ثم جعلته حول كتفيها وأمسكت طرفيه بيدها فوق صدرها وتمايلت فى تأنق الى اليمين والشمال وهى تضحك قائلة : ألست أعجبك هكذا ؟

وأخذت تسير متمايلة فى الغرفة فى زهو ، ثم رفعت المنديل وشمت رائحته وقالت فى دهشة : الله !

رائحة الست هدى ! ألا تعرفها ؟

ولم أعرف من هى الست هــدى ، لأن فطومة كانت تغمرنى فى أحـاديثها بأسماء لا حصر لها • ووددت لو انصرفت عنى حتى أسـتعد للخروج ، ولكنى لم أجرؤ أن أطلب منها أن تخرج •

واقتربت منى وجعلت تفحص ثيابى قائلة :

ـ أين تذهب الليلة ؟

فقلت بغير اهتمام : الى حفلة •

فقالت فى دفعة : فيها ستات ؟

فاشرت برأسى : نعم •

وقلت لأصرفها : أريد أن أتم استعدادى للنزول يا فطومة •

فقالت فى شىء من الحنق : طبعا ! حفلة ستات • وتريد أن أذهب من عندك •

ووضعت المنديل على أنفها وشمته قائلة :

ـ هي هي الرائحة · هي الأخرى تذهب الى الحفلات ولكنها لا تريد أن تأخذني · أتدرى لماذا ؟

ونظرت الى في خبث ثم ضحكت ضحكة طويلة وهمست :

« تقول لى انى مازلت صغيرة الآن » ·

وتقدمت مني مرة أخرى وجعلت تبدى اعجابها بلون رباط رقبتي بعبارات ساذجة وقالت :

ـ حتى السنما لا أذهب اليها لان أبى لا يرضى ·

أتدرى لماذا ؟

وهمست مرة أخرى : لأني صغيرة وهو لا يريد أن أرى الروايات التي تعلم الحب ·

وضحكت ضحكة طويلة أخرى ·

وتعلقت بذراعى فجأة وهي تقول : خدني معك يا سيد أفندى · سأضع المنديل هكذا حول كتفي · وسألبس الفستان الجديد · بجنيه المتر الواحد · اشتراه لى شهاب أفندى وأراد أن أذهب معه الى السينما من وراء أبى ولكنى لم أذهب · سأذهب معك ولن يعلم أبى لانه في كل ليلة يدخل الى (المندرة) مع أصحابه ويغلقها · ويمكنني أن أخرج وأعود قبل أن يفتح الباب ·

وعادت تضحك ضحكا طويلا ·

واندفعت على فجأة فطوقت عنقى بذراعيها ورفعت وجهها نحوى ·

وكانت مفاجأة لم أتوقعها فذهلت ورفعت يدى الى يديها لأبعدهما برفق ولكنها تمسكت بعنقي ونظرت الى نظرة التجاء قوية التعبير، فمسحت على رأسها برفق وملت على وجهها المرفوع فقبلت جبينها قائلا :

ـ لا أستطيع أن آخذك هذه المرة يا فطومة ، وأعدك أن أذهب بك الى السينما في ليلة أخرى بعد استئذان والدك ·

فحلت يديها في حنق وصرفت وجهها عنى نافرة وهي تقول :

ـ طيب خلاص !

ثم انفلتت مسرعة من الغرفة ·

ونظرت خلفها وهى خارجة ولمحت صورتها وهى مطبوعة امام ضوء القمر الذى يغمر السطح ، ولأول مرة عرفت أن انثى كانت أمامى امرأة لا طفلة · كان قوامها وهي تتحرك مسرعة فى غضبها يشبه قوام أنثى من الوحش تنساب فى غابة ، جسم لدن ملء حسن التقسيم وملامح يفيض فيها الشباب القوى،ودفعة وحشية تمتاز برشاقة تشبه رشاقة النمور فى حركتها · ولا أدرى كيف أصف شعورى وأنا واقف فى مكانى أنظر فى اعقابها ، فقد كان مزيجا من العطف والنفور والاعجاب والتقزز مع شعور آخر من ادراك ما فيها من محاسن ، ومن لوم النفس على أنى لم أتخذ معها موقفا حاسما · وارتميت على الكرسى الطويل حائرا حزينا مضطربا بين هذه المشاعر المتضاربة لا أدرى ماذا ينبغى لى أن أفعــل بعد هذا · فهل أصدمها صراحة-وأقول لها أننا لا ينبغى أن نستمر فى هذه المهزلة ، وأننا من عالمين مختلفين لا يستطيعان أن يمتزجا ؟ ولكن أتفهم فطومة قصدى اذا قلت لها مثل هذا القــول ؟ وهل يمكن أن تفهم أن تعلقها برقبتى هكذا مهزلة ؟ وكيف يمكننى أن أعرف ما يدور فى أعماق نفسها وهى تتعلق برقبتى ؟

ولست إخفى اننى كنت فى قرارة نفسى أخشى أن أصــدمها فانها كانت بغير شك تدخل كثيرا من الأنس الى وحدتى · فكيف تكون الحياة فى هذه الغرفة الحقيرة بغير فطــومة التى تحمل الى افطارى وتثرثر لى وتغنى وتجمع ملابسى اذا اتسخت وتعود بها الى نظيفة مكوية ، وتنظم لى حجرتى فى عناية وذوق ، حتى أصبحت لا أحس بأنى غريب عن بيتى · ثم هى فوق ذلك تبعث الى وحــدتى شــيئا آخر أخفى من كل هذا على ادراك العقل فانها كانت تؤنسنى بشخصها · ألم أكن حقا أشجعها على التعلق بى وان كنت لا أفطن الى أنى اشجعها ؟ ألم أكن أبتسم لها كلما جاءت الى غرفتى وأحييها واعطيها شيئا من النقود بين حين وآخر ؟

وانتقل بى هذا التفكير المضطرب الى محاسبة نفسى وتشديد اللوم عليها وانتهى ذلك الى عزمى المؤكد على الانتقال من البيت حتى لا أدع لها ولا لنفسى فرصة أخرى لمثل هذا الموقف المحفوف بالمخاطر لها ولى أيضا · ونظرت الى ساعتى فوجدت أن موعدى مع سائق السيارة قد فات فقمت مسرعا وقفزت على السلالم القريبة من مدخل شقة فطومة حتى لا ترانى ، ولما بلغت الشارع كان المصورون وسائق العربة قلقين فى انتظارى عند مدخل الحارة الضيقة وهم لا يعرفون أين منزلى ، وفى لحظات كنا فى الطريق الى مصر الجديدة · ومازلت فى أثناء السير أحس فى اعماقى حزنا غامضا وأجادل نفسى فى موقفى من فطومة ، ولهذا لم أشعر بطول الطريق حتى وقفت العربة ووجدت نفسى أمام قصر السيد الوجيه حسام الدين · فنزلت وأقبــل خدم القصر نحوى وانحنوا لتحيتى ورددت على التحيــة

متنازلا كما يفعل العظماء ، واتجهت داخلا ولكنى ما كدت أرى المنظر الذى أمامى حتى تسمرت فى مكانى وسألت نفسى أين أنا ؟ هل أنا فى مصر الجديدة أم فى مصر القرون الوسطى ؟ ومن أى سوق اشتريت هذه الجوارى الحسان الواقفات فى صفين على مدخل القصر المنيف ٠

نعم كان أمامى صفان من فتيات يلبسن ثيابا حريرية من طراز ألف ليلة وليلة تبدى محاسنهن وتصف أجسامهن وتظهر لين قدودهن . ولست أستطيع أن أصف ما اعترانى عند ذلك من الشعور ٠ لم يكن شعورى كما ينتظر سرورا بالمنظر الرائع ولا افتتانا بالحسن البارع ، بل شعرت بغصة فى حلقى وثورة فى قلبى وكدت أصيح بالذين رأيتهم أمامى قائلا : ما هذا ؟ ما هذا التجنى على الانسانية ؟ ما هذا الامتهان للآدمين ؟هل عادت لنا عهود الرق التى كانت المرأة تشترى فيها لتكون متعة للعين أو لعبة للهو ؟ ولولا أنى كنت موفدا من « بريد الأحرار » لأؤدى وظيفتى الصحفية لوقفت حيث كنت والقيت محاضرة فى كرامة الانسان ٠ ولكنى تمالكت نفسى ودخلت بين صفى الفتيات كما يدخل المقاتل الى ميدان حرب وقلبه مفعم بالقتال ، ولم تطاوعنى نفسى أن أنظر الى يمينى أو يسارى فاتجهت بعينى الى الأرض ، وكانت الأرض مفروشة بممشى من السجاجيد الفاخرة التى تزرى بألوان الأزهار فى أحواض الحديقة المحيطة من الجانبين، وكانت الأنوار الملونة على جانبى الممشى تخلع على الزهر بهاء فوق بهاء الربيع ، والأنوار الساطعة فى القصر تنادى من بعيد بالعظمة والأبهة ٠ وسمعت من خلفى نداء هامسا فالتفت فاذا هو مصور يستلفت نظرى الى صفى الفتيات ويطلب أمرى أن يأخذ لهما صورة ٠ فقلت له فى اختصار « خذ أنت وأصحابك ما تشاءون فأنتم أخبر منى بما ينبغى » ٠

وتركتهم خلفى وسرت متجها الى القصر ٠ فصعدت على السلم الرخامى الواسع حتى اذا ما بلغت البهو كنت فى جهد شديد أريد أن أستريح كأننى كنت فى رحلة شاقة طويلة ، فما كدت أدخل حتى عمدت الى ركن من الأركان البعيدة وتهالكت على مقعد ووضعت ساقا على أخرى واستندت الى الظهر ، وأخذت أرقب من هناك من يدخلون من الباب ورأسى مشتعل بما يشبه الحمى ٠

وكان المرح يشيع فى الجو الدافىء ، والحسان الكثيرات يقلبن أبصارهن فى الحضور من وراء أكتاف الرجال الجالسين حولهن٠ ويوزعن البسمات الفاتنة هنا وهناك ٠

ورأيت حسناء تجلس وحدها فى ركن قريب منى وتشعل سيجارة وتضع ساقا على الأخرى كما فعلت أنا ، ولست أدرى ماذا جعلنى أبتسم من تلك الحركة التافهة ، فحسبت الحسناء أننى أبتسم لها فردت

بابتسامة عاطفة . وجاء صاحب الدار الشاب عند ذلك فحياها وتحدث معها بكلمتين فى رقة ثم أقبل على يحييني ، ولما عرف أنى مندوب « بريد الاحرار » رحب بى ترحيبا كريما ودعانى الى استقبال الأمير فقمت معه وبدأت أتعرف الى بعض الوجوه المزدحمة قريبا من مدخل البهو . وكان هناك صحفى عرفته ذات يوم فى دار النقابة وهو شاب يمتاز بشخصية عجيبة استرعت نظرى منذ أول جلسة . ولما رآنى أسرع نحوى وصافحنى ووقف الى جنبى والظاهر أنه استأنس بى عندما رآنى كما استأنست به لاننا كنا غريبان هناك . وأخذ الأستاذ عطية يحدثنى أحاديث لاذعة عن الواقفين حولنا فى همسات عالية شعرت منها بحرج شديد . وأشار فى أثناء حديثه الى الحسناء السمراء التى بادلتها الابتسام من غير قصد وأخذ يحدثنى عنها قائلا :

ـ أتعرف من هذه الفاتنة ؟

فقلت :

ـ لم أرها الا فى هذه الساعة ولكنا تبادلنا الابتسام .

فضحك ضحكة عالية ثم قال بهمسته العالية :

ـ حاذر يا صديقى فانها جبارة . هى الست هدى العبقرية .

وكدت أصيح عندما سمعت اسمها . وتذكرت اسم السيدة التى تحدثت عنها فطومة . واستمر الأستاذ عطية يقول :

ـ هى تجمع فى شخصها عالما كاملا : صحفية وتاجرة وسياسية وموردة للجيوش وواسطة خير فى كل شىء ذلك ما يخطر وما لا يخطر على بالك .. ثم هى بعد ذلك صاحبة صالون مدهش للكبار من المصريين والأجانب ولكل من له موهبة من الشباب من الجنسين .

وضحك ضحكة عالية أخرى .

فقلت فى فضول : وأين تسكن ؟

فنظر الى فى خبث وقال : هكذا سريعا ؟ هى تسكن فى كل القاهرة . لها بيوت فى كل الأحياء من السيدة الى بولاق ومن جاردن سيتى الى مصر الجديدة .

وحدثت حركة فى المستقبلين عندما جاء الأمير وتسابق من هناك الى التقدم بين يديه فوقفت فى مكانى وجعلت أقرأ الحركات من بعيد . وكان الأمير شابا أسمر الوجه وسيما تبدو عليه علائم الفتوة وكانت تحياته تجمع بين التعطف والتحفظ ، واتجه فى حلقة مستقبلية الى مكان الصدر وابتدأت بعد قليل مراسم الحفلة .

وأخذت أجمع فى وعيى كل ما تقع عليه عينى . الحسان يتهالكن على الأمير كأنهن الفراشات يتدافعن نحو الأنوار ، وسارع بعضهن الى خدمة الضيوف في المقصف وهن شبه عاريات . فما هذه الملابس التى لا تستر الا ما دون الأكتاف ؟ وكانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها نساء فى هذا الزى بعينى . انها ملابس تكشف عن مفاتن الجسم وان كانت تدعى أنها تسترها . وقدمن كئوس الشمبانيا فكانت تتلألأ فى أيديهن وتباهى خواتيم الماس التى فى أصابعهن .

وأقبل الأستاذ عطية على المقصف متعطشا الى الشرب والى التمتع بالمنظر البديع ، فبقيت وحدى أحاول أن أتناول ما أعرفه من الأصناف وهو قليل الى جانب ما لا أعرف . وبعد أن لعب الشراب فى الرءوس بدأ دور الموسيقى وذهب الراقصون اثنين اثنين الى المرتع الصقيل الذى يتوسط البهو الفسيح ، فذهبت الى ركنى الأول الذى كنت فيه وجلست واضعا ساقا على أخرى ، وجاءت السيدة السمراء ذات العينين الواسعتين اللامعتين تتأبط رجلا أنيقا ... أهو السيد أحمد جلال حقا أم تخدعنى عينى ؟ وماذا يصنع هنا ؟ وتذكرت فى تلك اللحظة أنه أصبح نائب دمنهور ، وأنه لا ينبغى له أن يغيب عن تلك الحفلة التى تحتوى كل العظماء ... وجلس معها فى ركن قريب يتفرجان على الراقصين ويميل الى صاحبته بين حين وآخر هامسا ثم تنطلق منهما ضحكة مرحة .

وهم بنفسى أن أمر أمامه حتى يرانى ووددت لو أمكننى أن أسلم عليه وأرى كيف يستقبلنى،ولكنى لم أفعل،وبقيت فى مكانى أقرأ الوجوه والحركات . وتدافع الراقصون فى رشاقة وهم يتناظرون بلحاظ وانية ، وكانت ملابس النساء تلمع تحت الأنوار كأنها قوس قزح ، والوجوه الحسان السابحة فوق المرتع تبرق بالأدهان والألوان من فوق أكتاف الفرسان الذين يحاصرونهن ، ويجلى عيونهن فى الآخرين والأخريات يفحصن أيهن وأيهم أبهى رونقا . وكانت الظهور البضة العارية تتمم محاسن النحور الغضة السافرة ، وأطراف الملابس الزاهية تتطلع نحو الصدور المرمرية كأنها تعجب من بعيد بمحاسنها . وتذكرت فطومة وضحكت فى سرى وأنا أقول لنفسى « ماذا كانت تصنع لو كانت هنا ؟ » .

وكان المصورون فى شغل جاد يلتقطون المناظر وأنا ساكن فى مكانى فرأيت الأستاذ عطية يتجه الى السيدة السمراء الجالسة مع السيد أحمد جلال ويطلب منها فى ظرف أن تقوم لمراقصته . فقامت تراقصه بعد أن نظرت الى السيد كأنها تستأذنه بابتسامة أنيقة .

وكانت الساعة عند ذلك الحادية عشرة وجاء المصورون ليقولوا انهم قد فرغوا من التصوير ، فشعرت بارتياح الى أنى أستطيع أن أخرج من

الحفلة ، وقمت معهم خارجا بغير أن احاول ان أستأذن السيد الوجيه صاحب الدار •

وتعمدت في خروجي أن أقترب من السيد أحمد جلال وأمر من أمامه ، والتفت نحوه كأنني ألتفت عفوا ثم أظهرت دهشـــتى من رؤيته هناك كأنني رأيته فجأة ، ومدت يدى اليه لأحييه• ولا أستطيع أن أصف دهشته عندما رآني أمامه ، فانه قام مرتبكا وحياني مرحبا تحية صديق عزيز قديم،ودعاني الى الجلوس معه ولكنى اعتذرت وحييته منصرفا برأس مرفوع • وداخلني زهو عظيم وسرور فيه كثير من الخبث عندما رأيت أمارات الدهشة والارتباك التى بدت على وجهه عند انصرافي •

ولما وصلت الى العربة ارتميت على مقعدى كأنى خارج من صراع عنيف ، وبقى رأسى يدور بما فيه من الصور ، حتى وصلت الى « بريد الأحرار » ودخلت الى مكتبى وأخذت أكتب وصف الاحتفال •

ولست أدرى بأى أسلوب كتبت ولا ماذا كتبت،ولم يكن الأستاذ على مختار هناك ، ولكنه ترك أمرا باعداد وصف الحفلة للنشر فى الصفحة الأولى • وبقيت فى مكتبى حتى قرأت البروفة وخرجت ذاهبا الى منزلى ، وكان الاعياء النفسى والذهنى قد بلغ منى مبلغا عظيما ، فما كدت أخلع ملابسى وأرقد على سريرى حتى غبت فى النوم فلم أشعر بشىء حتى ضحى اليوم التالى •

- ١٧ -

نزلت متأخرا فى الصباح التالى من أثر السهر فى الليلة السابقة ، فلما وصلت الى دكان الشيخ مصطفى كانت الساعة تقترب من الظهر . وحيانى الشيخ قائلا :

ـ ألف مرحبا .

وكانت الألسنة منذ حين تلوك قصة الوزير الذى يستقبل قاصديه بعدد من المرحبات وهو يقصد الجنيهات التى يطلبها منهم لقاء قضاء حاجاتهم .

فقلت ضاحكا : لا أستطيع والله يا شيخ مصطفى .

فقال لى مقهقها : لا تخف يا سيد أفندى فأنا أعرف أنك لا تحتمل عشر مرحبات . وعلى فكرة أرجو أن تدفع لى المرحبا التى عندك ، فقد كسروا صندوقين من (الكوكاكولا) .

ولاحظت عند ذلك أن أمام الدكان عددا من الزجاجات المحطمة .

فقلت : ما هذا ؟

فقال : الحمد لله يا سيد أفندى خلصت منهم بجلدى . يا حفيظ يا رب . تقول الفين تقول عشرة آلاف . ولابد من تكسير الدكان لأنها بجوار « بريد الأحرار » .

فصحت فى فزع : من هم ؟

فقال الشيخ : غيلان ! مجانين ! أعوذ بالله يا أستاذ سيد . أخذوا كل الأرغفة وشربوا الكوكاكولا وكسروا زجاجها ولكن الحمد لله . كم شباك من بريد الأحرار وهتفوا بسقوط الخائن على مختار وانصرفوا .

ولكن مالى أنا ؟

وأسرعت ذاهبا الى الجريدة لأرى ما أصابها ولم يكن بها سوى آثار تحطيم قليل ، فذهبت الى مكتب الأستاذ على مختار لأعرف منه ما حدث وكان ظاهر الوجوم يدخن سيجارته صامتا .

وبدأنى قائلا : أتعرف ماذا حدث !

وكنت أتوقع أن يحدثنى عن المظاهرة فقلت فى دفعة :

ـ هذا اعلان افلاس من الحكومة · هى لعبة قديمة أصبحت مرذولة ·

فأشار بيده اشارة استخفاف قائلا :

ـ تقصد المظاهرة ؟ هذا عبث لا يهمنى · بعض صيحات وبعض الواح من الزجاج وبعض مضايقات صغيرة · ولكنهم صادروا العدد · ألف جنيه خسارة على الأقل · مائة ألف نسخة كل نسخة بقرش ·

وتبسم فى مرارة وهو مستمر فى حديثه :

ـ ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد · وأنا آسف يا سيد أفندى لانك تأبى الا أن تكتب بامضائك · كان يمكننى أن أتحمل المسئولية وحدى وأحميك أنت لو كنت تكتب بغير امضاء أو باسم مستعار كما نصحتك · فأنت مطلوب معى للنيابة فى الساعة الثانية بعد الظهر ·

ونظر الى ساعته قائلا :

ـ أوه ، قم بنا فان الموعد قد جاء ·

وقام عن مكتبه لنذهب الى دار نيابة الصحافة ، وسرت معه فى ضيق شديد وأنا شاعر فى قرارة نفسى أننى المسئول عن كل هذه المتاعب ، ومما زاد ضيقى أننى كنت عازما على السفر الى دمنهور فى المساء بعد انقطاعى عن أهلى كل هذه الأشهر · ووقفت بنا العربة آخر الأمر أمام دار نيابة الصحافة ونزل الأستاذ على مختار ونزلت وراءه حتى دخلنا الى مكتب السكرتير وكان مزدحما بالجالسين فذهب الأستاذ على الى الجالس على المكتب وهمس له بكلمات ·

فهز الشاب رأسه وتلفت حوله فى فتور ثم قام ودخل الى مكتب محقق النيابة فبقى فيه حينا ثم عاد الى الأستاذ فدعاه للدخول ·

وبقيت وحدى أتلفت حولى الى وجوه الجالسين ، وكانوا أخلاطا لا أعرف منهم وجها · وتطلعت نحوى عيون كثيرة تفحصنى وكنت فى ملابسى القديمة فخشيت أن تحتقرنى الأنظار ، فرفعت رأسى وسرت فى هدوء واستعلاء نحو النافذة القريبة ، فاتكأت عليها وأشعلت لفافة من صندوق السجائر الفاخر الذى اشتريته بالأمس،وجعلت أنفخ دخانها وأنا أدير بصرى فى الغرفة ثابتا ·

ولم يطل بقائى هناك ثم رن الجرس وقام السكرتير مسرعا الى غرفة المحقق وهو المدعى العام نظرا لخطورة التهمة ·

ثم خرج بعد قليل ونادى باسمي. فالقيت عقب السيجارة على الأرض ودستها بقدمي في شيء من التحدي ، وسرت نحو الغرفة رافعا رأسي ، حتى دفع السكرتير الباب بيده ونقر عليه بأصبعه مستأذنا ، فدخلت بغير أن ألتفت اليه . ووجدت نفسي في غرفة صغيرة ليس فيها سوى كرسي كبير من الجلد يجلس عليه الأستاذ على مختار ، وكرسي آخر يجلس عليه كاتب النيابة .

فالتفت حولي لفتة توحي بأني أبحث عن كرسي لأجلس عليه فقال المحقق هادئا : .

ـ لا مؤاخذة فان المقاعد قليلة ، ولن نحتاج الى وقت طويل .

وأخذ يقلب في ملف الأوراق التي أمامه على المكتب ، وكاد الغضب يدفعني الى أن أحتج لولا أن الأستاذ على مختار نظر الى باسما وأشار الى جانب كرسيه الجلدي لأجلس عليه . فوجدتها فرصة لاظهار ما في نفسي من التحدي وجلست على طرف ذراع الكرسي ووضعت ساقا على أخرى .

ولم يخف عني ما داخل المدعى العام من الامتعاض فشعرت بارتياح جعلني أنتظر هادئا .

وسألني قائلا بعد المقدمات المعروفة :

ـ ماذا تقصد بقولك « هذا العهد التعس ؟ » .

فقلت في فتور :

ـ لست أفهم أولا ما هي تهمتي . ما هو الموضوع الذي جئت من أجله ؟ وأي مقال هذا الذي تشير اليه ؟ وهل تقصد مقالا أم تقصد كلمة قلتها في الطريق ؟

فقال في شيء من الامتعاض :

ـ طبعا هنا نيابة الصحافة . وهذا مقالك الذي كتبته بالأمس .

فقلت في دفعة : هذا كلام بسيط واضح ليس فيه غموض . أقصد هذا العهد التعس الذي نعيش فيه اليوم . هذا العهد الذي أهدرت فيه القيم الانسانية وكل الأقداس القومية وكل أصول الحكم المستقيمة ، حتى بلغ الأمر الى ما نراه كل يوم ونسمعه كل يوم ، وحتى أصبح الناس لا يستطيعون أن ...

وكدت أمضي في شبه محاضرة عن فساد الأحوال ولكن المدعي العام قاطعني قائلا :

ـ هذا غير ما أقصد ، فانى أسألك عما تقصد بكلمة العهد ، فان العادة أن تستعمل كلمة العهد اذا قصد الملك ·

وكانت صدمة شديدة ذكرتني بالتحقيق الذى بدأ فيه الضابط فى دمنهور ، ولم أملك نفسي من الضحك قائلا :

ـ أهى اللعبة المعروفة ؟

فصاح غاضبا :

ـ أرجو أن تزن ألفاظك يا أستاذ ·

فقلت مندفعا : أظن أنى أعرف كيف أزنها لأنى أقصد ما قلته تماما : هى لعبة قديمة لأن هذه ليست المرة الأولى التى أسمع فيهـا مثل هذه القصة · اننا نكتب للقائمين بالحكم ولسنا نقصد من وراء هذا أن نخاطب الملك · الملك لا يحكم كما هو نص الدستور · فماذا يدعوكم الى تأويل قولى على أنى أقصد الملك ؟ فهل كلمة العهد لا تقال حقا الا اذا قصد منها الملك ؟

لو كنا فى بلد تقول فى صراحة ان الملك يحكمها حكما مطلقا لكان هذا القول الذى تقوله يا سيدى المحقق معقولا · ولكنا فى بلد يزعم أن له حكومة دستورية تعود عليها كل تبعات الحكم اذا كان فاسدا ، الملك يحكم بواسطة وزرائه · ولا يعفى الوزير من المسئوليـة أن يوجه اليـه الملك أمرا كتابيا يخالف القانون · أليس هذا هو الدستور ؟ سلنى اذا شئت عن البراهين التى تدل على أن هذا العهد تعس حقا تجد عندى من الأدلة ما يكفى للبرهان على أنه تعس قذر نجس · ان الأولى بالمحاكمة هم هؤلاء الجالسون فى مقـاعد الحكم · فلا تحاورنى بالتعريج على ناحيـة العرش فانها لعبة قديمة كما قلت ·

فضحك المحقق ساخرا وقال :

ـ يظهر أنك قديم العهد بالتحقيق فى معنى كلمة « العهد » ·

متى كان ذلك التحقيق ؟

فوثبت على قدمى قائلا :

ـ هل دعيت الى هنا لأسمع سخرية ؟ ما تهمتى حتى أعرف فى أى موضوع تسـألنى ؟ أم هو تحقيق غير محدد يشمل كل تحقيق سـابق لا علاقة له بالوقت الحاضر ؟ أحب أن تثبت فى هذا المحضر أنى محتج على سؤالى فى موضوع سابق لا تعرف عنه شيئا الا من كلمة عارضة قلتها ·

فقال فى جمود : لك أن تقول كل ما تحب وهذا الكاتب يثبت كل ما تجيب به • فقل لى الآن ماذا كان موضوع تهمتك الأولى •

فقلت فى تحد : لم توجه الى تهمة •

فقال : ألم تقل انها لعبة قديمة ، وان مثل هذه التهمة وجهت اليك من قبــل •

فقلت : أقول لك انه لم توجه الى تهمة ، كانت لعبــة أراد بعض خصومى أن يلعبوها فلم ينجحوا • أرادوا أن يهوشوا على بألعوبة العيب فى الذات الملكية ولــكن البوليس نفســه لم يجد من مصــلحته التورط فى اللعبة فصرف الموضوع بغير أن يعلق عليه أهميته ، حتى انه لم يكتب لى محضرا • هذا كل شىء •

فاستمر فى جموده وقال : من هو الطاغية الذى يفســد الأخلاق ويهدم تقاليد البلاد •

فشعرت بالخطر ولم أتــذكر أنى كتبت شــيئا من هذا فقلت فى دهشة :

ــ أرجوك أن تقرأ لى الفقرة التى تشير اليها •

فأخذ يقرأ فى هدوء :

« وكان أول ما طالعنى منظر هذه الفتيات فى ثيــابهن الحريريــة الملونــة •

فصحت قائلا : هذا مثال لم يظهر لأن عدد الجريدة صودر •

فقال : ولكنك كتبت هذا أليس كذلك ؟

واستمر فى قراءته : « ألا ما أبدعها من ألوان زاهيــة مفصلة على قدودهن الرائعة الممتلئة بالحياة • ولكنى لم أتأمل تلك القدود كما لم أتمتع بحسن الوجوه لأنى شغلت عن ذلك بسؤال خطير • فهل انتقلت القاهرة فجأة من القرن العشرين الى القرون الخالية التى كان فيها الرجل يستطيع أن يشترى غادة هيفاء من السوق المجاورة ؟ هل اشتريت هذه الفتيات كما يشترى البطيخ الحلو أو كما تشترى باقة الأزهار البديعة ؟ انها لنكسة شديدة أن نعود الى العصور المظلمة فى هذا العهد التعس الذى هوى به الطغيان الى حضيض الفساد ، ودنس فيه أسمى ما كسبته الكرامة الانسانية » ووقف المدعى العام عن القراءة فنظر الى كأنه يقول انه صرعنى تحت قدميه •

فقلت فى هدوء : أهذا كل ما هناك ؟

فاجاب متحديا : ألا يكفيك هذا ؟

فقلت : وأين ذكر الطاغية ٠ لم أذكر سوى الطغيان ٠

فأجاب قائلا : هذا لا يهم فالجريمة تقع بغير حاجة الى ذكر الشخص صراحة ٠ العيب فى الذات الملكية هو ذلك الشىء الذى يمكن أن يمس من قريب أو بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تصريحا أو تلميحا تلك الذات الملكية ٠

فقهقهت قائلا : هذا تعريف بديع يليق أن يكون شركا لكل صيد كبير أو صغير سواء تكلم أو أشار أو تنفس أو سعل ٠ لا يا سيدى ٠ هذا كلام غير جدير بعقولنا٠واسمح لى أن أمتنع عن الاجابة فانى أراها مهزلة ٠

وتجهم وجه المحقق حتى حسبته ينفجر غاضبا ، ولكن فى تلك اللحظة دخل علينا سكرتير المكتب وهمس فى أذنه ٠

فقام فى شىء من التأفف الى غرفة مجاورة وأغلق بابها حينا ، وبقيت مع الأستاذ على مختار وحدنا فقلت له فى دفعة :

ـ أنا آسف يا أستاذ على لأنى سببت لك هذه المتاعب ٠ لم أعرف من قبل أن مقالى هو السر فى مصادرة عدد اليوم ٠

فقال الأستاذ على :

ـ هى خطة مدبرة لا علاقة لها بمقالك ولا بمقالى ٠ اذا لم يصادر العدد بسببك فانه يصادر بأى سبب آخر ٠ ألا تذكر أن هذه هى المصادرة الرابعة فى بحر ثلاثة أشهر ٠ ومع ذلك فقد كان القضاء يفرج عن العدد فى كل مرة ٠

ودخل المحقق فقال :

ـ مبروك : أفرج عن العدد وأمامنا وقت طويل للاستمرار فى التحقيق ٠

ولا أستطيع أن أصف الشعور بالخلاص الذى غمرنى فى تلك اللحظة ، حتى أستطيع السفر الى دمنهور ٠

وكان سرور الأستاذ على مختار أشد من سرورى وأوضح ، فما كدنا نصافح المحقق ونخرج من الغرفة حتى أمسك بذراعى وضمها اليه ونحن سائران قائلا : لن تبقى فى السوق نسخة واحدة من عدد اليوم بعد هذه المصادرة المؤقتة ٠

فقلت : وأظنك تسمح لى بالسفر الى دمنهور لقضاء يومين مكافأة لى على هذا ·

فقال ضاحكا : هذا غير ممكن · علينا أن نستفيد من كل الظروف التى تتهيأ لنا · غدا صباحا سيظهر مقال من أعنف مقالاتك فى مهاجمة الجبناء الذين يتدارون وراء العرش ليستروا فساد حكمهم ·

واضطررت أن أستأذنه قبل أن تغلق أبواب مكاتب البريد لارسال حوالة بريدية الى صديقى عبد الحميد عياد لكى يوصلها الى أمى كما أفعل دائما فى أول كل شهر ·

مضى على أسبوع وأنا لا أكاد أفيق لنفسى من غمرة العمل ، وكنت لا أكاد أجد فراغا الا فى ساعة الظهر لأخطف لقمة صغيرة حيث أكون ٠

وذهبت فى ســاعة الظهر فى أحــد الأيام الى دكان الشيخ مصطفى حسنين لأشترى غدائى فسمعته يبادرنى قائلا :

ـ البقية فى حياتك يا سيد أفندى ٠

فقلت فى لهفة : ماذا حدث ؟

فقال : ألست من دمنهور ؟ السيد أحمد جلال : تعيش أنت ! وكنت لم أقرأ صحف الصباح من كثرة مشــاغلى فأخذت « الأهرام » التى مد الشيخ بها يده وأخذت أقرأ :

« جاءنا من مراسلنا فى دمنهور أن المدينة روعت على غير انتظار فى ساعة متأخرة من الليلة الماضية بوفاة محسنها الكبير وزعيمها الوطنى العظيم السيد أحمد جلال !! » ٠

وتخاذلت قوتى، فجلست على الدكة وأنا ذاهل أعيد قراءة الخبرة مرة بعد مرة كأنى لا أصدق عينى ٠ أما كان فى تمام صحته وقوته فى ليلة الاحتفال بدار السيد الوجيه جمال الدين منذ أسبوع ؟

وكنت كلما قرأت الخبر مرة قلت فى تأثر : لا حول ولا قوة الا بالله ٠ انا لله وانا اليه راجعون ٠

ولو كنت فقدت أعز الناس عندى لما شعرت بهزة أشد من الهزة التى شعرت بها عند ذلك ، وامتزج فى قلبى الأسف والرثاء والحزن والدهشة فى وقت واحد ٠ وغلبتنى عينى فجعلتنى لا أبصر من وراء غلاف الدمع ، وسبحت فى تأمل الحياة فى خشوع العاجز الذى يظهر له عجزه على حين فجأة وهو ساه عن الحقيقة الخالدة فى ضجة الحياة الزائلة ٠ انها دنيا صغيرة فيها أشباح تأتى صورها وتذهب فوق سحابة، ولكننا معشر الفانين نحسبها حقائق ثابتة ٠

ونادانى الشيخ قائلا : أتعرفه ؟

فقلت فى صـوت خافت : كان له فضل عظيم على ولكن الظروف قطعت بيننا ولم تطل به الأيام حتى أستطيع أن أوفى له دينى ٠

مات ومازال دينه باقيا فى عنقى ٠

وهز الرجل رأسه متأثرا وقال :

ـ البقية فى حياتك يا سيد أفندى ٠ دنيا زائلة ٠ دنيا فانية ٠ هل ترك أولادا ٠

فقلت : فتاة وحيـدة ٠

وخفق قلبى خفقانـا شديدا وأنا أتصور حزن منى الشديد فى وحـدتها ٠

فقال : أكان مريضـا ٠

فقلت : رأيته فى أتم صحة منذ أسبوع ٠

فهز رأسه مرة أخرى قائلا : آجال يا سيد أفندى ٠

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك لأنى انصرفت الى افكارى الحزينة والى منى٠

وقمت مسرعا بغير أن ألتفت ورائى وذهبت الى دار الجريدة فكتبت ورقة وسلمتها للبواب ليوصلها للاستاذ على مختار اذا عاد فى المساء ، وذهبت من ساعتى الى المحطة لأسافر فى أول قطار أجده على الرصيف ٠ وكان من حسن حظى أن وجدت قطارا يقوم بعد ربع ساعة ٠ وكنت طوال الطريق غارقا فى حديث داخلى مستمر ٠ أين دمنهور ؟ وما للقطار يسير بطيئا ؟ هكذا الدنيـا تمضى سريعة بنـا ونحن نستبطىء الايام والليـالى والشهور ٠ والقطار يسير دائما الى الأمام لا يرجع الى الوراء خطوة ويقطع الطريق شبرا شبرا حتى يجمع الأميال بعد الأميال لكى يصل أخيرا الى دمنهور ـ الى الغاية الأخيرة كما تفعل بنا الحياة ٠ هكذا بلغ السيد أحمد نهاية الطريق ٠

الانتخـابات والسرادقـات والمظـاهرات ومصـطفى عجـوة وحمادة الأصفر وكل ذلك ينتهى فى لحظة ٠ ووقف القطار فى طنطا وبدأ الناس ينزلون ويصعد غيرهم الى العربة ٠ كل هؤلاء يجتمعون ويتحادثون ويتجادلون ثم يهبطون من القطار لكى يستقبل القطار طائفة أخرى غيرهم حتى ينزل الجميع آخر الأمر اذا جاءت النهاية ٠ وتذكرت يوم سافرت الى القاهرة أول مرة ورأيت راكبين يتعاركان ٠ هل هناك أحمق من راكب فى قطار يعارك جيرانه ؟ انه ان يلبث أن يتركهم أو يتركوه !

وكانت عودتى الى منزلى مفاجاة ٠ وبكت منيرة عندما رأتنى وأما أمى فقد ضمتنى الى صدرها وقالت فى حزن :

ـ طبعا عرفت المصيبة الكبرى · مسكينة منى !

ووثب قلبى عندما سمعت اسمها وقلت :

ـ هل ذهبت للعزاء ؟

فقالت : طبعا يا بنى · من كان يحسب أنه يموت هكذا ؟ وماذا أخذ المسكين معه ؟ انها قسمة يا ابنى.، ومنى المسكينة ! تكاد تقتل نفسها من البكاء ، لو أنصفت الدنيا لكانت منى من نصيبك يا ابنى ·

يا ليتها لم تكن غنية · منى الجميلة الوديعة ! مسكينة ·

وكدت أصيح « ما الخبر ؟ » ولكننى داريت لهفتى قائلا :

ـ وهل هى أول فتاة مات أبوها ؟

فخفضت أمى صوتها قائلة :

كفانا الله الشر يا ابنى وكفانا شماتة الأعداء · لا أحب أن أعيد ما قيل لأنه فظيع وربنا يستر أعراض الناس ·

فوثب قلبى الى حلقى وأردت أن أسأل أمى عن قصدها فلم أقدر على النطق واستمرت أمى تقول :

ـ الموت محتوم علينا جميعا ولكن الفضيحة يا ولدى· انها مصيبة· تصور يا ولدى أن امرأة لا قيمة لها تقتل الرجل ، نعم امرأة حقيرة قتلته لأنها ملأت المدينة بالفضيحة · والأدهى من ذلك أن يقوم رجل لا قيمة له أيضا ويقلب المدينة من فوقها الى تحتها بالتشنيع على السيد أحمد المسكين · أتعرف حمادة الأصفر ؟

فقلت فى حنق : لست أفهم ماذا تقصدين يا أمى بكل هذا ، لأنى لم أسمع بشىء عن السيد أحمد جلال سوى أنه مات · ما هذه الفضيحة ومن هى المرأة التى قتلته وما دخل حمادة الأصفر فى هذا ؟

فقالت أمى : من يصدق أن السيد أحمد جلال يتزوج بامرأة حقيرة ؟ ومن يصدق أنها ولدت منه ولدا مع أنه كان مستعدا للتصدق بنصف ماله اذا ولدت له زوجته ولدا · ذهبت المرأة فى كل أنحاء المدينة تعيد هذا القول لتفضحه · وقام حمادة الأصفر معها يساعدها ورفع لها قضية فى المحاكم · مسكين السيد أحمد جلال · بعد ثلاثة أيام من هذه الفضيحة رقد السيد أحمد مريضا ومات فى ليلة واحدة ـ أيصدق أحد هذا ؟

فقلت فى هدوء : ولم لا ؟

فقالت فى لوم : أنت أيضا تقول هذا ؟

فقلت : لست أقول هذا وليس الامر متوقفا على قولى ، المهم هو هل هذه المرأة زوجته ؟ هل عندها وثيقة زواج ؟ هذا هو المهم ٠

فصاحت أمى : ما هذا الكلام يا ابنى ؟ لا يمكن ! لا يمكن أبدا ٠ أتقول كما يقول الناس يا سيد ؟ عيب يا ولدى ٠ هل كان السيد أحمد مختل العقل حتى يتزوج امرأة مثلها ٠ انها مصيبة ! وتقول مع هذا أن المهم هو الوثيقة ؟

وسبحت فى تأمل هذه الأقوال صامتا ، وأمى تتحدث فى صوت غاضب حزين بأقوال لم ألق انتباها اليها ٠

كنت أسأل نفسى من تكون هذه المرأة وما هو ذلك الولد ؟ وهل هو حمادة الأصغر يظهر مرة أخرى باحدى ألاعيبه الخبيثة ؟ أتكون هى المرأة التى حدثنى عنهـا من قبل فى هذيانه ـ زينب الشقراء أو السمراء ؟ وما السر فى أنها لم تبدأ فضيحتها الا فى هذه الأيام مع أن علاقته بها ان كانت صحيحة تبدأ منذ سنوات ؟ وكانت صورة منى دائما أمامى حزينة تبكى وتشعر بالذلة ٠

وتنبهت بعد حين الى صوت أمى وهى تدعونى الى العشاء ، فقمت فاترا مستسلما وذهبت لأغسل رأسى من تراب السفر ، وأكلت شيئا خفيفا حتى لا أظهر مبلغ اضطرابى واهتمامى ثم قمت لأذهب الى دار السيد أحمد المسكين لأؤدى واجبى فى العزاء ٠

وكان فى فناء المحلج سرادق كبير فى المكان الذى كان فيه السرادق الضخم فى آخر ليلة ذهبت فيها الى المحلج فى أيام الانتخاب ٠ فدخلت بنفس جياشة أسير على مهل حتى جلست فى أقرب مكان من السرادق ٠ وأقبل مصطفى عجوة مسرعا نحوى وحيانى شاكرا كأنه صاحب (المعزى) وجلس الى جانبى يهمس لى بعبارات المجاملة المعتادة وأجبته بالعبـارات المألوفة فى الرد عليها ٠

ومال على قائلا : أتحب أن تصعد الى الدار للعزاء ؟

فشعرت له بما يشبه الشكر وقلت :

ـ اذا كان ذلك ممكنا ٠

فقام آخذا بيدى حتى بلغنا الطبقة العليا،وتقدمنى الى رأس السلم وصفق للخادم وهمس لها بكلمات قليلة ، وبعد لحظة جاءت السيدة نور فى ملابس الحداد،وكنت لم أرها منذ أشهر طويلة ، فما وقعت عينها على حتى أجهشت بالبـكاء ، فاختنق صوتى برغمى ولم أسـتطع أن أنطق ٠

واستغرقت السيدة فى البكاء حتى اتكأت على حاجز السلم ووضعت منديلها على عينيها مفحومة .. فاقتربت منها قائلا :

ـ تجلدى يا سيدتى .

فقالت : أشكرك يا سيد افندى ، وأرجو أن أراك قبل عودتك الى القاهرة . نحن هنا وحدنا وأنت مثل ولدى .

فقلت متأثرا : هو مصابنا جميعا وأنا تحت أمرك فى كل وقت .

ولما مدت يدها الى انحنيت عليها لأقبلها ولكنها سحبتها قائلة :

ـ الله يبارك فيك يا ابنى .

وعدت الى أسفل الدار وقد ملأنى شعور المواساة والعطف ، كما أرضيت كبريائى بأننى قد أصبحت موضع الأمل عند السيدة أم منى ، ولما عدت الى السرادق ذهبت أسير بين صفوف المعزين لأحييهم شاكرا لهم سعيهم وأخذت مجلسى على مقربة من الباب لأتلقى العزاء عند خروج المعزين كأنى أحد أفراد الأسرة ومال على مصطفى هامسا :

ـ لا شك أنك سمعت بكل شىء لأن هذه البلدة مثل القدر تغلى وتفور بما فيها ، وأهلها مثل السمك يأكل بعضه بعضا . سمعت حكاية المرأة طبعا والله يرحم الرجل الطيب . الشاهد يا سيد أفندى لو كان اطاعنى من أول الأمر لأعطى حمادة الأصفر كل ما أراد . كان لا يريد أكثر من مائة جنيه،ولو أعطاه السيد ذلك المبلغ لما حدث شىء ولكنه طرده وشتمه فخرج الخبيث يهدد . وأنا أعرف من هو حمادة الأصفر ، تصور أن الرجل الطيب يسىء الظن بى عندما نصحته بأن يدفع لحمادة مائة جنيه واتهمنى بأنى أريد مشاركته ؟ الله يسامحه ويرحمه ، هذه الدنيا مثل أحجار الطاحون تطحن من فوق ومن تحت . النهاية يا سيد أفندى ! فى ليلة واحدة راح الرجل الطيب وترك وراءه الدنيا تخبط تقلب . فماذا يأخذ محمد باشا اذا كانت الست زينب تخرج بأكثر التركة لابنها المحروس ؟ يا سلام ! فضيحة للسماء وخراب بيوت وربك يستر يا سيد أفندى .

وكانت الساعة عند ذلك قد بلغت العاشرة والنصف وفرغ المقرىء من القراءة وقمنا لأخذ العزاء من الخارجين . وانصرفت بعد قليل معتذرا الى مصطفى عجوة بأنى ذاهب الى موعد هام حتى لا يسير معى ، واتجهت نحو شاطىء الترعة لأعيد على نفسى فى هدوء الليل ما سمعت من مصطفى.

وكان البدر ساطعا فى السماء الصافية والجو دافئا والشاطىء ساكنا ، فسرت على مهلى أفكر في هذه المعركة العنيفة التى تدور فى طى

الحفاء حول جثة رجل لم يمت الا بالامس . هذه المرأة تستطيع أن تصبح من أكبر أغنياء المدينة ، وهذا الولد الذى لا يدرى أحد من أين جاءت به يستطيع أن يصبح من أعظم السادة فى البلاد ، هذه الحقوق القانونية التى توزع بها المقادير الخطوط وهى مغمضة العينين ! من هؤلاء الذين يملكون الألوف من الأفدنة والوف الألوف من الجنيهات الذهبية ؟ أبناء الاماء الذين يكبرون ليصيروا سادة وينسى الناس أنهم أبناء الاماء ، وأبناء اللصوص وقطاع الطرق وأبناء تجار الحشيش وتجار الأعراض وأبناء النساء اللاتى يبعن أجسادهن وأبناء وسطاء الخيانة والدنس ومصاصى الدماء . كل هؤلاء يبسطون سلطانهم على الحياة عندما يرثون الضياع ويملكون الخزائن . ها هم يريدون أن يزيدوا امرأة ساقطة وولدا دعيا !

والتهب قلبى بهذا التفكير حتى بدا لى أن منى أكبر من أن تكون صاحبة آلاف الأفدنة وآلاف آلاف من الجنيهات . لماذا لا تتجرد من هذه الأموال العفنة وتتركها للمرأة وولدها وتعود هى .سـ.. سليمة ؟ لماذا لا تخلع هذه الأدهنة اللزجة التى تجعل الذباب يتساقط عليه - محمد خلف وابنـــه محمـود الأبله ؟ لمـــاذا لا تعود الى أنا ونهرب معا من هذا المستنقع العفن .

وضاق صدرى وأحسست أن الهواء راكد خانق وأن رائحته العطنة تكتم أنفاسى . وعرجت الى أول طريق يتجه الى داخل المدينة لأذهب الى منزلى ، وفكرت فى التبكير صباحا لأعـود الى القاهرة تاركا هذه المعركة السـخيفة وأصحابها . وكانت الطريق حـــارة منحدرة قذرة فيها بعض القهاوى والحانات الحقيرة . مصابيح بترول خافتة الضوء على الجانبين معلقة فوق المداخل ، وجماعات قليلة مهلهلة الثيـــاب تشرب أكوابا من الشـــاى الأسود . ولم أدر ما الذى جعلنى أنظر الى الحانة المظلمة التى عرجت الى الطريق العام من جانبها وكان فى وسـطها مصـباح بترول زجاجى وفى صدرها منضدة طويلة عليها بعض زجاجات وأوان مبعثرة . وكان المصباح يلقى ضوءه الخافت على صاحب الحانة اليونانى وهو واضع يديه فى جيبه أمام منضدة صغيرة يجلس عليها حمادة الأصفر .

يا له من فأر قذر يختار الجحر الملائم له . ووجدت نفسى أندفع داخلا كأنى كنت أبحث عنه . وكانت الكأس التى أمامه ما تزال نصف مملوءة من خمر قاتمة اللون . وحملق حمادة فى وجهى لحظة ثم وثب قائما وهو يترنح ثم فتـح ذراعيه وتقدم نحوى يريد أن يأخذنى بينهما وصاح صيحات مختلفة لم أفهم ما يريد بها سوى أنها ترحيب مختلط بالأسف والاعتذار .

ورددته فى شيء من التقزز لأنى لم أطق رائحتــه ، فتراجــع عنى وكانت نظرته بلهاء منكسرة بعينين زائغتين وشفتين متدليتين ظهرت من تحتهما أسنانه الصفر (المشرشرة) ·

وصاح بصاحب الحانة بلسان معوج :

ـ ـ ماذا عندك يا منولى ؟ مالك واقفا هكذا كاللوح · ألا تعرف من هذا ؟ أشرف رجل فى دمنهور واحسن كاتب فى الدنيا ·

واتجه نحوى قائلا : تفضل يا سيد بك· تفضل وان كنت لا أستحق أن تجلس معى ، أنا وغد · أنا حشرة · أنا دون يا سيد بك · لك الحق فى أن تغضب على وأن تقول انى نذل ووغد وحشرة · قل لى ما تريد فى وجهى فأنا أستحق ·

هات الكرسى يا خواجة · نظفه لأنه قذر مثلك ومثلى · ها ها ها · يا منولى يا خواجة الأنذال ، يا خواجة الرعاع ·

وجاء منولى بكرسى ومسحه بفوطته ونظر الى مستفهما ·

فجلست وقلت له : لا أريد شيئا ·

فصاح حمادة : أقسم بالله أن تشرب شـيئا ، لا بد أن تشرب ، بشرفى · ها ها ها · أليس عندك هذا الروم الزفت يا منولى ؟

ورفع الكأس فافرغ ما فيها وخبط بها على المنضدة ·

وذهب الخواجة فانتهزت الفرصة قائلا :

ـ اسمع يا حمادة · أحب أن تسير معى قليلا ·

فقام يتطوح معى واتجهت به الى شاطىء الترعة الخالى وقلت له فى الطريق :

ـ أحب أن تقول لى الحق عن هذه القصة ·

ما هى حكاية السيد أحمد جلال ؟

فوقف ممســكا بذراعى وقال : النــذل ، الكلب مصطفى عجوة · أحلف لك أنى لطمت على وجهى كالنساء عندما ذهبت الى محلج السيد أحمد جلال بعد أن هدمنا السرادق الذى كنت فيه لأن هذا المصطفى أعطانى خمسة جنيهات · أقف بالعصـا فى وجهك وأقول لك « يلا من هنـا » بخمسة جنيهات ؟ أنا الوغد ! أنا النذل ! كنت لا أنتظر أقل من مائة جنيه وحلفت بشرفى أن أنتقم منه لأجل خاطرك ، وذهبت الى زينب لأشكو لها ولكنها طردتنى · ماذا أعمل ؟ الصبر طيب يا سيد بك · وصبرت عدة

اشهر وأنا الطم وجهي والوم نفسي والعنها . بخمسة جنيهات أقف في وجهك بالنبوت وأقول لك « يلا من هنا » ؟

وفي يوم من الأيام جاءت زينب الى وقالت انها غاضبة على السيد أحمد جلال. نعم ذهب الى مصر وعضو مجلس نواب وهناك الدنيا الواسعة والحسن والجمال والعظمة . وألست هدى المشهورة وأصبحت زينب لا تستحق أن ينظر اليها .

واتفقنا على الانتقام ـ أنا أنتقم لك وهي تنتقم لنفسها . وأخذت منها ورقة الزواج وأعطتني نصف جنيه وقلت لنفسي سآخذ منه مائة جنيه . وذهبت بنفسي للسيد أحمد جلال وهددته بالفضيحة . نعم كانت الورقة في يدي قسيمة زواج صحيحة . زواجه من زينب .

وقلت له ان الورقة معي . ولكنه طردني كالكلب . وذهبت الى القهوة ودمي فائر وكان مصطفى هنـاك . فوضعت الورقـة أمام عينه ليقرأها . وأراد اللعين أن يخطفها مني يحسبني سكران لكن قلت له « بعينك » وفي ليلتها أحضرنا المأذون يا عم وخطفتها منه . نعم خطفت زينب منه بعـد أن رفسـتني برجلها من أجله وهي الآن في يدي أنا ـ زوجتي ! نهايته مات في ليلة واحدة ولا طبيب ولا زيطة ولا هيصة . ولكن مصطفى عجوة لم يمت لأنه كالبغل كل يوم يزيد بالقنطار .

ثم سكت عن هذيانه واستند الى الحائط .

فصحت في سرى أنطق أيها النذل .

وأردت أن أشـجعه على الحديث فقلت : مبروك يا حمادة ! وهي ما تزال معك ؟ زينب ؟

فقال : من ليـلتها . في نفس ليـلتها . وهي التي دفعت الجنيـه للمأذون وكل يوم ريال يا سيد بك وزينب تقول لي : في داهية ؟ والله لأفضحه . « والولد ! ابنه طبعا » ! انتهي يا سيد بك ومهني أفندي يقول انتهي وصرنـا من الأعيـان ! طلبت منه مائة جنيـه فطردني أما اليوم ولا عشرين ألف جنيه ولا خمسين ألف ولا مائة ألف ! وأخذ يصفق بيديه ويغني صائحا . ولا خمسين الف يا عيني ! ولا مائة الف يا ليل ! ودار رأسي من اضطراب هذيانه ومن رائحة أنفاسه وذهبت عنه مسرعا حتى وصلت الى منزلي وأنا لا أكاد أقدر على التفكير في شيء . وغسلت وجهي واستنشـقت بماء كثير لأذهب رائحة الخمر الرخيصـة من خيـاشيمي واستلقيت لأستريح، ولكني لم أستطع النوم لأن شريطا طويلا من مناظر مختلفة كان يسرع أمام بصري .

- ١٩ -

كان أول ما خطر لى فى الصباح أن أسافر الى القاهرة وأبعد عن دمنهور ، وفى دخيلة وعيى أسئلة محيرة كثيرة • ولكننى بقيت مترددا حتى صارت الساعة العاشرة ، وتبدل عزمى الى ضرورة البقاء حتى أرى نهاية القصة المحزنة التى يمثلها حمادة الأصفر وشريكته زينب • ونزلت من البيت على نية الذهاب الى صديقى عبد الحميد عياد وعرجت فى طريقى على قبر والدى لأقرأ عنده الفاتحة ، ثم مضيت فى سبيلى حتى بلغت مفترق الطريق بين شـارع (أبو الريش) والحارة التى تتجه الى بيت عبد الحميد • ومن العجيب أننى اتجهت بغير تردد الى بيت المرحوم أحمد جلال كأننى كنت أقصد الذهاب اليه منذ البداية •

ولما دخلت الى الدار وجدت جوه يبعث الكآبة والحزن ، وقادتنى الخادم الى غرفة الانتظار وكان أثاثها فخما وأضواء النوافذ تنعكس على قطع البلور فى ثريات السقف والأركان ، ولكن الغرفة كانت مع هذا تبدو مظلمة • كانت التحف الثمينة منكسة على حواملها ، والسـتائر والأبسطة مقلوبة على وجوهها والصورة الكبيرة المعلقة فى الصدر مجللة بالسواد تظهر رب البيت الراحـل كأنـه هو الحزين • وجلست أتأمل ما حولى وسبحت فى تأمل معنى هذه الحياة وسخف أطماعها ومنافساتها ومصادماتها ، فلم أستيقظ من سبحى الا على شـخص منى يشرق كأنه شعاع نور فى بكرة الصباح • كانت هى بعينيها اللتين تشبهان زرقة البحر الصافى وقامتها المشوقة يزيدها لبس السواد رشاقة • وقمت لأحييها • فنظرت الى شاكرة وفى عينيها دمعة ، فتجلدت حتى لا أبكى وغمرنى حزن عميق كأنى أنا أيضـا مفجوع بوالدهـا • ولكننى مع هذا الحزن العميق شعرت كأنى سعيد لأنى رأيت منى على غير انتظار ، ولم أجد كلمة أقولها سوى المجاملة المعتادة :

ـ البقية فى حياتك يا منى •

فقالت بصوت ضعيف : اشكرك يا سيد •

واندفع الدم الى وجهى أو هكذا خيل الى عندما سمعتها تنادينى باسمى وقلت لها :

ـ علينا أن نتحمل الصدمة يا منى مهما كانت شديدة ، وليس لنا من حيلة الا أن نتحملها ٠

فأجابت فى هدوء : أعرف أنه ليس لنا من حيلة الا أن نتحمل الصدمة ، وقد حاولت جهدى أن أتحملها ٠ ولكن فقد أبى على هذه الصورة كان أكبر من صدمة ٠

ثم ترددت ورفعت منديلها الى عينيها ٠

وأدركت ادراكا عاما ماذا تقصد بقولها ان فقد أبيها على هذه الصورة كان أكبر من صدمة ، فان ما سمعته من أمى ومن مصطفى عجوة وحمادة الأصفر كان كافيا لجعل موته فى تلك الظروف نكبة شديدة ٠

وصمتت لحظة ثم استمرت تقول :

ـ ليس من الهين على أن أسمع أقوال القريب والبعيد وهم يتحدثون عن أبى الذى كان يملأ حياتى والذى كنت لا أرى الدنيا الا فى حدود شخصه ٠ ويؤلمنى أن تبدأ معركة كلها مطامع وأكاذيب وسخافة ولم يمض على موته الا يوم واحد ٠ كل الأحاديث تدور حول ما خلفه أبى من المال ، وأما هو فلست أجد أحدا يحس بفقده غيرى ٠

ورفعت منديلها مرة أخرى الى عينيها ٠

وقلت لها مجتهدا فى اخفاء تأثرى :

تجلدى يا منى،فالحياة تمتحننا بأحزانها ٠ لقد فقدت أبى عندما كنت فى مثل سنك وأعرف كيف يكون فقد الأعزاء قاسيا ٠ ولكن فقد الأعزاء وما فيه من الأحزان من سنن الحياة القديمة ، وعلينا أن نأخذ من الحياة نصيبنا ٠ لا مفر لنا من مواجهة الحياة على حقيقتها وأن نستمد من أحزاننا كل ما تستطيع أن تهب لنا ٠

فقالت منى فى توجع : وماذا تستطيع أن تهب الأحزان لنا ؟ الفراغ الذى خلا من الوالد العزيز ، والحقائق البشعة التى تتكشف لنا فى الأطماع والأحقاد ، وهذه الأحاديث الخبيثة التى لا أظنك سمعتها بعد ، وهذه المعركة الحقيرة التى يريدون أن يثيروها فى المحاكم حول التركة العزيزة عليهم ، ولا يبالون فيها أن يمزقوا سمعة أبى ويلوثوها فى سبيل المعركة٠ لست تعرف يا سيد أى نكبة هذه التى ألمت بنا ٠

فتجرأت ووضعت يدى فوق يدها وقلبى يسيل رحمة ، وقلت فى صوت خافت : سمعت كل ما قيل يا منى ٠

ونظرت نحوى بعينيها العميقتين وكانت نظرة كلها ثقة والتجاء ، ورفعت يدى عن يدها وقلبى ممتلىء بشعور شديد من المواساة ، وبايمان

عميق بأن وقوفي الى جانبها في ذلك الوقت هو همي الأول والأخير في الحياة ٠

وقلت لها مستمرا : لا تحزني هكذا من أجل أقوال لا يقصد من ورائها الا تحقيق أطماع هزيلة ٠

فقالت في حرارة : اذا كان الأمر لا يزيد على أطماع فليأخذوا ما يشاءون وليتركوا أبي المسكين راقدا في سلام ٠ ليأخذوا كل ما تركه أبي من الأموال ويدعوا لي اسمه كما كان شريفا نبيلا ٠ خير لي ان أكون أفقر الناس وأنا ابنة السيد أحمد جلال الكريم النبيل من أن أكون أغنى الناس واسم بي ملطخ بالأوساخ ٠

واندفعت تبكي بكاء شديدا ٠

ووجدت نفسي أبكي أيضا ٠

وقلت لها بعد أن خفت حدة البكاء :

ـ علينا أن نفكر في الأمر تفكيرا هادئا ٠ واسمحي لي أن أشاركك في التفكير اذا لم يكن ذلك تدخلا فيما لا يعنيني ٠

فقالت في دفعة : وكيف لا يعنيك يا سيد ؟

فزادت جرأتي وقلت في شيء يشبه التحدي :

ـ هل لي أن أتدخل في هذا الأمر ؟ أليس هناك من لا يرضى عن تدخلي ؟

فأجابت في شيء من الدهشة : ماذا تعني ؟

فقلت في ثبات : ليس لي طبعا أن أفرض نفسي ٠ ألا تظنين أن ذلك قد يغضب محمود بك مثلا ؟

وشعرت كأن طعنة أصابت صدري عندما نطقت باسم « محمود بك » ٠

ونظرت الى وجهها لأرى أثر قولي فوجدتها مطرقة في وجوم وهي تعبث بأصابعها ٠ ثم أجابت بعد حين قائلة : طبعا لك أن تتدخل وليس لأحد أن يغضب من ذلك ٠

ولو كان لي أجنحة عند ذلك لحلقت في الجو الواسع لأن الحجرة كانت لا تتسع لي ٠

وقمت أستأذن قائلا : أشكرك يا منى ٠

ولما مدت يدها الى خطفتها ملهوفا ، ولم أدر ما صنعت حتى كنت قد رفعتها الى شفتي ، ثم أسرعت منصرفا حتى لا أرى تعبير وجهها خوفا من أن ألمح عليه شيئا من الانكار ٠

ولما صرت فى الطريق تدافعت على أمواج من الأفكار المضـــطربة تتوارد من جهات شتى ، واتجهت حيث تحملنى قدماى ، فاذا أنا بعد قليل عند الحانة القذرة التى اعتاد حمادة الأصفر أن يجلس فيها ، وكان جالسا هناك يشرب من كأس فيها الخمر الحمراء الداكنة .

ودخلت هاجما عليه كأنى أخشى أن يفلت منى ، ولما اقتربت منه قام يترنح ، وفتح ذراعيه بحركة غير ارادية كأنه يريد أن يعانقنى .

فأزحت يديه فى شيء من الحدة وقلت له :

ـ اريد أن أكلمك كلمة يا حمادة .

فقال : ألست تحب أن تشرب شيئا ؟

فجذبته من ذراعه فى شيء من القسر وقلت له :

ـ الوقت ضيق وأريد أن أحدثك حديثا هاما فيه مصلحتك .

فقام وهو لا يكاد يستقيم من السكر ، وسرت به خارجا من الحانة متجها به الى شاطيء الترعة .

وكأنه أحس بالخطر ، فقاومنى وجاذبنى قائلا :

« لم تجرنى هكذا » .

ولم أجبه حتى بلغت جانب الترعة ، وكان خاليا من المارة ، والنسيم باردا والجو يتلألأ صافيا . وهززت ذراعه فى عنف قائلا :

ـ اسمع يا حمادة ، أنت تعرف ما كان بينى وبين السيد أحمد جلال عندما كنت أنت تخدمه وتجمع الجموع بالعصى لتقولوا لى : « يلا من هنا » لا تحاول أن تحتج ولا أن تعتذر فانى لا أقصد أن ألومك على ما فعلت ، بل أريد أن أذكرك بأن السيد أحمد جلال قد انتهى وأنه لم يبق الا امرأته وابنته منى . أنت تعرف أنهما امرأتان وحيدتان وسأقف بجانبهما ولن أتردد فى شيء اذا اضطررت الى الدفاع عنهما . قل ما تشاء . واذهب فى طول المدينة وعرضها فشنع على كما تريد ، ولكن اعلم أنى سأستخدم كل الأسلحة فى الدفاع والهجوم حتى أخلصهما من مؤامرتك القذرة .

فصاح فى تحد : ما هذا الكلام يا سى سيد ؟ أى مؤامرة ؟

فقلت له وأنا أكتم غضبى :

ـ نحن الآن هنا وحدنا ، فلك أن تقول لى ما تشاء ولى أن أقول لك ما أشاء . نحن هنا وجها لوجه نتكلم بصراحة وحوش الغابة : ثعلب أمام ذئب أو ذئب أمام ضبع يريدان الفصل فى معركة حتى الموت .

اسمع يا حمادة أنا اقصد كل كلمة أقولها لك ، ولن أتردد فى أن احطم راسك بيدى مهما كانت النتيجة ٠

فضحك ضحكة وقحة وقال مقهقها :

ـ كاتب عظيم والنبى ، أهذه قصة تريد أن تمثلها معى ؟

ثم عاد فضحك مقهقها ٠

فكدت أخبطه بقبضة يدى فى أسنانه الصفراء ولكنى شعرت كأنه ألقى على (جردلا) من الماء البارد ٠ فتماسكت وعاودت الكرة :

ـ لست أهزل ولست أمثل . بل أقصد كل كلمة أقولها لن أدعهما لألاعيبك التى أعرفها ٠

ما هذه القضية التى تريد أن ترفعها ؟ وما هذه المرأة التى تزعم أنها زوجة السيد أحمد جلال ؟ وما ذلك الطفل الذى أخرجته من جرابك ؟

فقال : وما دخلك أنت ؟

وكدت مرة أخرى أصفعه ولكنى قلت :

ـ مثل دخلك أنت ؟

فأجاب فى سخرية : ألا يكفى تدخل محمد باشا ؟ هو يتدخل فى مصلحة نفسه ٠ هو يريد أن يأخذ لقمة دسمة تستحق التعب ٠ ولكن ما دخلك أنت ؟ وما دورك أنت ؟

الى أين تجرنى يا سى سيد ؟ دعنى أذهب فلا محل لهذا الكلام ٠ ما لك تجرنى هكذا كالكبش العاصى ؟ أتريد أن تذبحنى ؟ ها ها ها ٠ اسمع يا سيد أفندى ٠ أنت رجل شريف فدعنا نحن نتعارك كما نشاء ٠ نحن الحشرات الحقيرة ـ أنا ومحمد باشا وزينب وأمثالنا ٠

ووجدت صعوبة فى أن أمنع نفسى من أن ألكمه ومددت يدى الى كتفه وقبضت عليها فى عنف وهززتها قائلا :

ـ دع عنك هذه السخرية اذا اردت أن تعرف مصلحتك ٠

فقال وهو يتوقف ناظرا الى وجهى :

ـ يعنى ؟

فقلت فى دفعة : يعنى أنك تحرج صدرى وتثير غيظى وتدفعنى الى أن أمحقك ٠ يعنى أنك لا تفهم موقفك الحقيقى ولا مصلحتك ٠

فقال فى حنق لأول مرة :

ـ تهددنى ؟

فقلت مستمرا فى دفعتى : أتظن أنى جئت بك من الخمارة الى هنا لأتنزه معك ؟

فقال فى سخرية : قل لنفسك ·

وظهر لى جسمه الضئيل كأنه طفل عنيد وعجبت لشدة ثباته اذ رأيت أمامى شخصية صعبة المراس،وكان وجهه النحيل يشبه ابن آوى اذا كشر عن أنيابه ·

وفكرت فى أن أسلك طريقا آخر غير التهديد فقلت :

ـ لست أريد يا حمادة أن أضرب قبل أن أبذل كل جهدى فى تسوية هذا الأمر بسلام · لأنى أشفق عليك ·

فأجاب فى غضب : ومن طلب منك الشفقة ؟ أنا أكره الرحمة ولا أحب أن تشفق على · لا تظن أنى أرضى بأن أكون موضعا للشفقة · لست أخجل من شىء ولا يهمنى أن يقول الناس جميعا أنى نذل ووغد ومجرم · مالك أنت ؟ أنا آخذ وألعن ، وآكل والعن ، واعيش مع زينب الساقطة ، ويحلو لى أن ألعنها وتلعننى · أنا أصرف من كسبها وأعرف أنها ساقطة وأقوم بأية خدمة قذرة فى نظير جنيهات قليلة لأصرفها عند منولى · مالك أنت ؟ اذهب عنى ودعنى ·

وانفلت منى فى عنف وأسرع منصرفا وهو يقول بصوت خافت : مالك أنت ؟ أنا قط ضـــال ، أنا كلب عقور ، أنا فأر قذر · أى شىء ولكنى لا أرضى أن أكون موضعا للشفقة· لا أرضى أن أكون كبشا ولا حمارا· أخطف وأخبط ! وأرقع · واشرب الزفت و أبلع السم ! هذا كل شىء · من قال انى أطلب الرحمة ·

وأسرعت وراءه لأدركه حتى قبضت على ذراعه بشدة وصحت به فى ضجر :

ـ أتعنى أنك عزمت على الاستمرار فى المؤامرة ؟ أنت تعرف أنها مؤامرة ملفقة ، وأنا أعرف أنها كذلك ·

فقال صائحا فى وجهى : طيب ، وماذا تريد ؟

فقلت وأنا أهدىء نفسى : أريد أن أذكرك بأنك قلت بلســانك أنك مزور · هذا العقد الذى تهدد به لا يساوى مليما ·

فصاح : من قال هذا ؟

فقلت في ثبات : أنت · ألا تذكر أنك قلت لى أنك تزوجت من المرأة ؟ أنسيت أنك تزوجتها وأنها دفعت الجنيه للمأذون ؟ فمن هذا الولد الذى ولدته المرأة ؟

فصاح في غيظ : كلام فارغ

فقلت في هدوء · ستعرف أنه كلام ملآن · سأبين ذلك للنيـــابة لا لك أنت ·

فوقف ينظر الى في حنق وقال :

ـ تفضل · اذهب الى النيابة ·

فقلت : سأفعل بغير شك في صباح الغد اذا جاءت الساعة التاسعة صباحا · أمامك مدة طويلة تفكر فيها ، ولكن اعلم أنى أقول لك كلمتى الأخيرة · لن أرجع الى الوراء أبدا · الآن فرصتك الوحيدة · ولن أقول لك كلمة أخرى سوى أنى أعرض عليك الآن عرضا سخيا لا عن تردد في عزمى بل لأنى ما أزال أشفق عليك برغمى وبرغمك · مائة جنيه في نظير الورقة التى معك ·

وكان ينظر الى في أثناء هذا في دهشة وحشية ، ثم قال بصوت حانق :

ـ لم أتزوج من أحد ، وهذه الورقة التى معى لا أتركها بمائة ألف جنيه ·

وتركني وانصرف مسرعا داخلا الى حارة ضئيلة وسرت في طريقى على الترعة حتى وصلت الى (كوبرى فلاقة) وأنا حائر مرتبك الذهن لا أدرى ماذا أفعل ·

وعدت الى بيتى ودخلت الى غرفتى وارتميت على سريرى بملابسى والحيرة تملك على كل مشاعرى ومسالك أفكارى ·

وكذبت على أمى فقلت لها انى تغديت في المدينة لكى تتركنى وحدى مع الأمواج المتدافعة في رأسى ·

- ٢٠ -

كانت الساعة السادسة والنصف مساء عندما جاءت أمي لتدعونى الى مقابلة طارق عند الباب ، فقمت فى ضيق ونزلت لأفتح له ، وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدت أنه حمادة الأصفر بوجهه النحيل وأسنانه الصفر وقامته الضئيلة · فوثب قلبى وقلت له مبادرا : هيه يا حمادة !

فقال فى جمود : لا تحسب أنى جئت لأرجوك فى شىء أو انى خفت من تهديدك · ليس عندى عقود زواج ولا عقود طلاق وكل أقوالك لا تخيفنى · اسمع يا سيد أفندى · اذا كنت تحسب أن النيابة تخيفنى فأنت مخطىء · وماذا تفعل النيابة بى ؟ السجن ؟ طيب يا عم · نذهب الى السجن · أهذا كل ما تقصد ؟ ألم أقل لك انى حشرة وكلب عقور ووغد ؟ ولكن أموال السيد أحمد جلال حرام على أنا وحلال بلال لك ولمحمود بن محمد ووالده سعادة الباشا · أهذا ما تريد يا حضرة الأديب الكبير ؟ طيب يا عم · خذ أنت نصيبك ونأخذ نحن نصيبنا · الفلوس لكم والنيابة لنا · أليست هذه هى القسمة العادلة التى تعودناها من الحياة ؟ بس يا سيدى هذا ما جئت لأقوله · وحول وجهه عنى لينصرف وثارت فى نفسى مشاعر مختلفة فقد حزنت من أجله وأشفقت على بؤسه ومع هذا هممت أن أركله بقدمىّ وأمرغه فى تراب الحارة · وجمعت كل ارادتى وقلت له :

ـ لست فى حاجة الى أن أقول لك أكثر مما قلت أنت عن نفسك · فهل جئت لى حقا لتقول هاتين الكلمتين ؟

فوقف وقال فى مرارة : أتظن أنى لا أفهم السر فى هذه الحماسة الشديدة ؟ أنت الذى كنت أكبر خصم للسيد أحمد جلال ؟ سبحان الله ! سبحان الله يا أستاذ يا عظيم ! هكذا تنقلب من حرب طاحنة الى صداقة طاحنة لوجه الله تعالى ؟ أتريد أن تقول لى انك متطوع لخدمة محمود حلف لوجه الله ؟

ومن العجيب أنى بعد أن كنت شديد الرغبة فى أن أركل هذا الرجل بقدمى فأحطم عظامه بدأت أجد اهتماما شديدا بكلماته اللاذعة · ولأول مرة تبينت أنى متناقض مع نفسى كما تبينت أن موقفى معرض للتهمة التى جهر بها ذلك الوغد · وكان أكبر ما يؤلمنى أن يذهب ظن

احد أنى اسخر نفسى لخدمة محمود خلف • ودعوته للدخول معى الى البيت لأسمع منه كل ما عنده بعيدين عن الأنظار والأسماع ، ولكنه مانع حتى جررته جرا من ذراعه وصعدت به الى غرفتى •

ولما صرنا وحدنا قلت له : اسمع يا حمادة • لست أبالى أن تكون أسفل مخلوق فى العالم ، ولكنى أحب أن أقول لك كلمة•ماذا يهمك أنت اذا كنت أعمل لحساب محمود خلف أو غير محمود خلف ؟ ماذا يهمك أنت اذا كنت سأستولى على سمسرتى فى هذه الصفقة وألقى بك فى السجن ؟ ماذا يغير هذا من موقفك أنت ؟ هل عزمت حقيقة على أن تستمر فى مؤامرتك ؟ وهل حقا لا تبالى أن تذهب الى السجن من أجل مكيدة فاشلة ؟ وأقسم لك برحمة أبى أنى لن أتركك اذا لم تتنازل عن عنادك • فما رأيك الأخير ؟

فتلوى فى مقعده وبقى مدة صامتا وهو ينظر الى كأنه ثعبان يتحفز للهجوم ، وكان على وجهه شبح ابتسامة مسمومة •

ثم قال فى مرارة :

ـ يعنى انتهينـــا ؟

فقلت فى لهفة : كن عاقلا يا حمادة •

فقال : يعنى نذهب الى السجن أو نخرج من المولد بلا حمص ؟ يعنى يا سى سيد ليس أمامى الا أن أختار بين السجن والموت جوعا ؟ طبعا ستطردنى المرأة اذا لم أذهب الى السجن • وطبعا مصطفى عجوة يخرج لى لسانه قائلا « رح فى داهية يا حمار » نعم أنا حمار وخمسين ألف حمار لأنى لم أرض بمائة جنيه ، وقلت له ولا خمسين ألف • لم أعرف فى ذلك الوقت أن سيد أفندى زهير سيعود الينا من القاهرة ليقول لى يا وغد اذهب الى السجن •

وقام واقفا يريد الانصراف ، ولأول مرة رأيت عليه أثر الاضطراب والانخـــذال •

فجذبته من ذراعه لأقعده ، فارتمى على الكرسى كأنه يتهدم وقال فى ضعف :

ـ دعنى أذهب يا سيد أفندى لأفكر فى اختيار السجن أو الموت جـــوعا •

ونظرت اليه لحظة فى صمت،وخيل الى أنى أرى أمامى أنقاض انسان محطم ، وشعرت من أجله بحزن صادق • وقلت له فى رقة : أنا مستعد

يا حمادة أن أمد يدى اليك • وان كنت واثقا أنى أمدها الى الثعبان الجريح الذى لا يتردد أن يفرغ فيها سمه اذا استطاع أن يصل بأنيابه اليها • وكان ينظر نحوى نظرة خاوية تدل على أنه كان غائبا بفكره عنى • وكان تعبير وجهه ينم عن ألم داخلى من معركة عنيفة • وشعرت بأننى حيال جدار منيع يحول بينى وبين الوصول الى قرارة نفس ذلك الرجل الهزيل الجالس أمامى ، وان كنت أقدر على أن أصرع جسمه النحيــل بضربة واحدة من يدى • كان واضحا أن ذلك الرجل ينطوى على فطرة وحشية عنيفة عنيدة تستعصى على ارادتى وتتملص من كل محاولاتى فى تأنيســـها •

ولبثنا مدة غير قصيرة ونحن صامتان وكل منا يتحدث مع نفسه ، وتحرك هو آخر الأمر واقفا وقال :

ـ تريد أن تضحك على يا أستاذ ؟

فزممت شفتى بحركة غير ارادية ، وقمت صامتا وسرت أمامه مطرقا حتى خرجنا الى الحارة ، وهممت أن أدخل وأغلق الباب ورائى ، ولكنه وقف مترددا ثم قال :

ـ يعنى لا تريد أن أخرج بشىء ؟

فقلت منفجرا :

ـ أبعد عنى أيها الأحمق ولا ترنى وجهك هنا •

فقال فى خشــوع :

ـ أشكرك يا سيد أفندى • ليس هذا الكلام جديدا على • كل الناس يقولون لى مثل هذا •

فقلت فى جفاء : وماذا تريد ؟

فقال فى وقاحة : قطعة من الغنيمة •

ولم أجد فائدة فى مناقشته وقلت له فى اختصار :

ـ وفى نظير ذلك ؟

فوضع يده فى عبه وأخرج منه أوراقا وهو يتراجع الى الوراء كأنه يخشى أن أخطفها • فخفق قلبى شديداً وقلت له فى صوت أجش :

ـ وما أدرانى ما هذه الأوراق ؟ ما أدرانى أنها تافهه لا تساوى قرشا واحدا •

فقال مترددا : لو كان لى شرف لحلفت لك به ان هذه هى الورقة التى تريدها ٠

وهز ورقة قذرة فى يمينه ٠

فقلت متكلفا الهدوء : اذن نعود الى غرفتى لأرى الورقة وأعطيك ما تريد ٠

فقال : عنف وحشي ووقاحة : لع يا سيدى ! سأنتظر هنا ٠ المائة جنيه أولا ٠

وأدركت ما يقصد من ذلك ولم أعجب من أن مثله يخشى أن يدخل معى خوفا من أن أحبسه فى غرفتى وأغتصب منه الورقة ٠ وقلت له هـادئا :

ـ اذن فانتظر حتى أعود اليك ٠

ودخلت مسرعا فوثبت على السلم غير مصدق أنه ينتظرنى حتى أعود ، وكانت أمى مشغولة فى حياكة ثوب لأختى ، فاستعجلتها لتعطينى مائة جنيه من المدخر عندها ، فقامت وهى تنظر الى مستغربة ولكنها لم تسـألنى عن شيء ٠ وذهبت الى درج (الدولاب) الذى تحفظ فيـه النقود فأتت لى برزمة النقود كلها وقدمتها الى وهى صامتة ٠ فأخذت منها ورقتين من ذوات الخمسين جنيها ورددت اليها الباقى وأسرعت نازلا فى لهفة ٠ وشعرت بارتياح عظيم عندما وجدت حمادة ما يزال واقفـا عند الباب ٠ فمد يده الى وأخذ الورقتين من يدى قبل أن يسلم ورقته ثم انصرف بغير أن يلتفت الى ٠

ونظرت الى الورقة التى فى يدى لأرى ما هى ، وتنفست نفسا عميقا عندما وجدتها ممضاة بالامضاء التى أعرفها للسيد أحمد جلال ٠ كانت ورقة زواج عرفى ولم أستطع أن أقرأ من الأسماء التى عليها سوى اسم السيد المرحوم واسم مصطفى عجوة لأن اسم الشاهد الآخر كان غير واضح المعالم كأن صاحبه أراد أن يستخفى ٠

وداخلنى سرور لا أستطيع أن أصفه حتى لقد سألت نفسى أأنا فى حلم صوره لى التمنى أم أنا فى يقظة حقيقية أقبض فيها بيدى على وثيقة يبلغ ثمنها مئات الألوف من الجنيهات ، ومن فوقها سعادة منى وسمعه السيد أحمد جلال ٠ ووقفت ثابتا فى مكانى قريبا من باب البيت لا أدرى ماذا أفعل ، وخلا ذهنى من كل فكرة كأنه توقف عن الحركة ٠ وأخرجت ساعتى فوجدت أنها صارت الثامنة من المساء ، ولكن ذلك لم يحمل الى فكرى معنى ٠ وأغلقت الباب ورائى وصعدت الى غرفتى وأخذت أقرأ

الورقة حرفا حرفا لأستوثق من أنها هى الورقة المطلوبة · وجاءت امى عندما سمعت حسنى فقالت فى هدوء :

ـ من كان معك يا سيد ؟

فقلت : حمادة الأصفر ·

فقالت فى صيحة مكتومة ، وهذه الجنيهات له ؟

فقلت باسما : تفضلى يا أمى واجلسى هنا ·

وأخذت أحكى لها كل ما مر بى منذ الصباح ، فكان تعليقها على ذلك أن قالت :

ـ الله يبارك فيك يا ابنى !

ثم قامت ووضعت يدها على رأسى وجعلت تقرأ والدمع يترقرق فى عينيهـــا ·

ثم قالت : رحم الله الجميع يا ولدى فقد كان السيد أحمد جلال رجلا كريما ، حماك الله من الفضائح يا ولدى !

ولما خرجت أمى من الغرفة بدأت أسأل نفسى ماذا ينبغى لى أن أفعل · وكان أول خاطر سنح لى أن أسرع الى منى لأخبرها أن المشكلة قد زالت ، ثم أسلم اليها الورقة وأتمتع بالسعادة عندما أراها تبتسم لى شاكرة · ولكنى لم ألبث أن سخرت من هذه الفكرة ، وبدا لى أنها لا تزيد على محاولة تمثيلية سخيفة · ثم ماذا يكون لو أن منى سألتنى كيف حصلت على الورقة ؟ أأحكى لها كل ما صنعت وأنى دفعت الجنيهات المائة ثمنا لها ؟ وهل يليق أن أذهب الى هناك بعد الساعة الثامنة مساء ؟ وخطر لى أن أبادر بالسفر الى القاهرة فى قطار الصباح الباكر بغير أن أخبر منى بشىء مما حدث ، وتأملت مقدار السعادة الكبرى التى أفوز بها اذا علمت منى من تلقاء نفسها فيما بعد بأننى أديت لها هذه الخدمة الجليلة فى صمت بغير أن أنتظر منها جزاء · ولكنى سخرت من هذه الفكرة أيضا وبدا لى أنها أقرب الى أن تكون امعانا فى الرياء ·

وضاق صدرى من هذه المجادلات الداخلية الجوفاء فأعدت قراءة الورقة ثم مزقتها قطعا صغيرة فى بطء وذهنى سادر ، والقيت بالقطع فى سلة المهملات · وقمت لأنزل حتى لا أبقى فى الحجرة المغلقة وحدى ، واتجهت الى بيت صاحبى عبد الحميد · وجلسنا فى المنظرة المألوفة ، وكانت نظرة صاحبى تحمل معنى الدهشـــة وابتســـامته تدل على التســـاؤل ·

وقال فى نغمة عتاب : أنت هنا منذ أيام ؟

فقلت منذ يومين اثنين ولكنهما كانا ممتلئين .

واخذت أقص عليه ما حدث منذ عدت الى دمنهور .

فقال مبتسما : حسن جدا يادون كيشوت .

فقلت : أرجوك ألا ترهيني بسخريتك . فهل كنت لأترك مني وحيدة لرحمة قطيع من الذئاب .

فتبسم قائلا : آه . هذا شيء آخر . أظنني بـــدأت أفهم . أنت تحبهـــا ؟

فقلت في جد : لا أكذبك ، فأنت غير مخطىء .

فقال وما يزال باسما : وما هي الخطوة التالية ؟

فقلت : لا شيء . سأسافر غدا صباحا .

فقال في دهشة : هكذا يفعل دون كيشوت !

فقلت : وما حيلتي ؟ ماذا تفعل لو كنت في موقفي .

فقال وهو يقف : لست أدري تماما . ولكني كنت لا أسافر غدا الى القاهرة . لم لا تذهب غدا اليها لتســألها بغير مقدمات هل ترضى بك زوجا . أنت أصلح لها بغير شـــك من ذلك الشـــاب الأبله . ماذا تنتظر ؟

فلم أجبه بشيء لأني لم أجد شيئا أقوله . وأخذت أعيد السؤال نفسه ولكني كنت مثل مذهول لا يعي ما يسمع .

ثم قمت ساهما وليس في ذهني فكرة . وأخذ صاحبي بذراعي حتى نزل معي الى الباب بغير أن يقول أحدنا للآخر كلمة . وكنت ما ازال أفكر في السؤال الذي وجهه الي ولم أهتد الى جواب له . وكان هو كذلك يفكر ولكني لم أعرف فيم كان يفكر . ولما صافحته آخر الأمر طلبت منه أن يبلغ تحيـــاتي للســيدة الكبيرة ، وكانت دهشــتي عظيمـــة عندما قال لي انها مريضة وان الطبيب لا يسمح لأحد بزيارتها . وشعرت بخجل شديد وأنا أعتذر اليه من أني أخـــذت من وقته هذه الساعة لأحدثه عن نفسي وهو في مثل هذا الظرف القاسي ، فلم يزد على أن أجابني قائلا : حديثك عن نفسك أحب الي ، وماذا كنت تفيدني لو حدثتك أنا عن نفسي ؟ » هذا الصديق العجيب يسيطر على قلبه مثل هذه السيطرة كأنه عقل مجرد لا تتطوح به العواطف والميول ، ولا يعصف به ضعف الإنســانية . ولولا أن له قلبا كبيرا يعرف كيف يواسي وكيف يشـــارك في الاهتمام بغيره ، لقلت انه خلقة شاذة . ومهما يكن من أمـــرى فقد انصرفت من عنده وأنا موزع القلب بين الاعجاب به والدهشة منه والحيرة بين التسليم بآرائه ورفضها .

- ٢١ -

عدت من دمنهور الى دوامة العمل مرة أخرى ولا أذكر أنى كنت فى يوم من أيام حياتى أشد قلقا وشعورا بالوحشة مما كنت فى تلك الأيام . كنت أحس أن الحياة أصبحت فراغا خاويا ليس من فوقه سماء تظلنى ولا من تحته وطاء يحملنى ، بل كنت ضيقا بنفسى حانقا عليها بغير أن يكون فى حياتى المعتادة ما أشكو منه . كنت موفقا فى عملى وكان الأستاذ على مختار يزداد تقديرا لى يوما بعد يوم ، وكنت دائما أوسع دائرة علاقاتى بزملائى من الصحفيين وبغيرهم من رجال السياسة والحكم ، واغتبط بما اجده عندهم من التقدير والتكريم ، وكنت فى حياتى الخاصة أشبه بأن أكون سعيدا خاليا مما يثير الهموم ، ولكنى مع هذا كنت أحس كأن قلبى فى قبضة مارد جبار يعصره بغير رحمة . واستولى على قلبى خيال واحد لا يكاد يفارقنى فى ساعة من الليل أو النهار فيتمثل لى اذا جلست لأكتب مقالاتى فى دار الجريدة ، واذا سرت فى طريقى أو جلست فى حجرتى المنعزلة فى المساء أو أغمضت عينى لأنام ، بل انه كان لا يفارقنى اذا كنت غارقا فى زحمة الناس وضجة الحياة الصاخبة التى لا يعرفها الا من عرف مهنة الصحافة . كان ذلك خيال منى .

وفى الصباح عندما اذهب الى بريد الأحرار كان أول سؤال أسأله « هل جاء الى خطاب ؟ » ، فاذا وجدت خطابا نظرت الى خط العنوان فى لهفة فاذا كان من عند أختى ذهبت الى ناحية وتفرغت لقراءته لعلى أجد فيه كلمة تشير الى منى . ولكنى كنت فى أكثر الأحوال اطوى الخطاب خائبا لأن أختى كانت تكتب لى عن كل شىء تافه ولا تكتب لى عن منى كلمة . ولا أذكر أنى تأخرت مدة يومين اثنين فى الرد على أختى ، كان قصدى من ذلك أن أجعلها تكثر من الكتابة الى لعلها تقول لى الشىء الذى انتظره وان كنت لم أحدد بالذات هذا الشىء الذى أنتظره ، كان فى ذهنى سؤال واحد كبير غير محدد وهو أنى تركت دمنهور بغير أن القاها أو أبعث اليها بكلمة ، بعد أن مزقت الوثيقة الخطيرة التى كانت فى يد حمادة الأصفر ، فلا أعرف ان كانت الأمور قد تطورت أو استقرت على صورة من الصور . فهل كنت حقا كما وصفنى صاحبى عبد الحميد أحمق مثل دون كيشوت ؟ هل مهدت حقا لمحمود خلف أن يصير زوجا لمنى ؟

وما الذى منعنى من أن اذهب اليها قبـل سـفرى لأقول لها انى مزقت الوثيقة التى كانت تخشاها ، ثم أجهر لها بكل ما فى نفسى وأعرف لها ولمن يحيط بها بأنى أحبها ولا أعيش الا من أجلها • ما الذى حملنى على التسلل هكذا من دمنهور بغير أن أنصف نفسى ، وتركت الأمور بعد ذلك تجرى فى مجراها ؟ أكنت أخشى أن تسخر منى عندما أفضى اليها بالحب الذى أحمله لها ؟ أم كنت أخشى أن يسخر الناس منى ويتهموا الدوافع التى تدفعنى ؟ وماذا على لو كنت جهرت لها وللناس وتركتهم يسخرون بى كمـا يشـاءون ؟ على أن الدنيـا التى كانت حولى لم تعبـأ بضيقى ولا بقلقى ، وكان كل شىء يسير فى مجراه مثل الآلة الضخمة التى لا تقف اذا اعترضها بائس مسكين فحطمته فى سبيلها • كانت جريدة بريد الاحرار تظهـر كل يـوم فى الصـباح على عادتهـا ، وكانت المجامع والمصالح والأحزاب تضطرب فيما حولى وتغمرنى فى ضجتها بما انطوى عليه من القلق والحيرة ، كما تغمر الدوامة الشديدة حشرة غريقة •

فاذا عدت الى بيتى فى المساء وجدت المصباح الضئيل يستقبلنى فى الدهليز المظلم ، ثم أدخل الى الفناء الرطب وألمح الغرفة التى يجتمع فيها الشـيخ مصطفى ورفاقه بعد العودة من الدكان ليتموا السـهرة وهم سعداء بالنسيان • ثم أصعد الى غرفتى لأخلو مع كتبى وقلمى وهواجسى •

ومما زادنى شعورا بالضيق أننى أصبحت مضطرا لخدمة نفسى بعد أن غضبت فطومة منى عقب تلك الليلة التى ذهبت فيها الى حفلة استقبال الأمير الشرقى فى قصر الوجيه حسام الدين ، فانها امتنعت من بعدها عن ترتيب غرفتى واعداد افطارى وغسل مناديلى وملابسى ، وكنت لهذا مضطرا الى أن أعمل بيدى كل ما أحتاج اليه أو أبحث عمن يقوم لى بعمله ، وكان ذلك يحيرنى ويزيد من ضيقى • وفكرت فى الانتقال الى مسـكن جديد ولكن الحالة النفسية التى استولت على جعلتنى لا أقدر على تركيز أفكارى فى أمر من الأمور أو جمع ارادتى لتنفيذه • وهكذا مضت الأشهر بى حتى اشتد فصل الصيف بحره وبحوادثه الكثيرة التى بعثت الى الجو السياسى حرارة أشد من حر الصيف • وزاد نصيبى من العمل فصـار الأستاذ على مختار يكلفنى بأعمال مختلفة كلما جدت فضـيحة من الفضائح المتعددة التى كانت تتوالى أسبوعا بعد أسبوع ، فضيحة القطن وفضيحة تجارة المخدرات وفضيحة الراقصة التى رفعت راس رئيس وزراء مصر عاليا فى محافل أوربا عندما عرضت رقصاتها المبتذلة فى مواخيرها ، وجزيرة كابرى التى صارت بقعة مقدسة منذ حل بها الملك الخليع ليظهر للعالم أنه آمون المعبود الجديد الذى يركع له شعب من العبيد • فكنت فى كل يوم أفرغ ضيقى وحنقى فى مقال تحت عنوان « أنا الشعب » ، الذى أصبح يوميا بعد أن كان أسبوعيا ، ومن أجل هذا

كنت لا أكاد أفرغ من تحقيق فى نيابة الصحافة حتى أبدا فى تحقيق آخر حتى سمانى زملائى ألمع نجوم القضايا السياسية ٠

وعدت فى ليلة مبكرا الى بيتى منقبض الصدر بعد صباح طويل قضيته فى نيابة الصحافة ، وعمل متصل فى الجريدة بعد الظهر الى غياب الشمس ، وكانت ليلة شديدة الحر اجتمع لى فيها كثير مما يزيد ضيقى وهمى ، من تعب الجسم وتوتر الأعصاب وخيبة الرجاء ، لأنى كنت أرسلت الى أختى خطابا منذ أسبوع سألتها فيه بغير ابهام أن تخبرنى عن أحوال منى ، فجاءنى الرد قبل خروجى من دار الجريدة ففتحته فى لهفة وقرأت فيه كثيرا من الأحاديث المفصلة عن كل شىء سوى منى ٠ لم تكتب لى منيرة عنها الا جملتين صغيرتين فى آخر الخطاب تقول فيهما أن منى بخير وتسأل عن صحتى !

وكانت الليلة مقمرة فأردت أن أفرج عن نفسى بجلسة هادئة تحت السماء الصافية ، وأخرجت الكرسى الطويل الى السطح واسترخيت فى جلستى عليه مستندا برأسى الى ظهره ، وسبحت فى سنة من اليقظة الحالمة ٠ هى بخير وتسأل عن صحتى ! هكذا يقول الناس اذا تلاقوا فى الطريق عفوا « كيف صحتك » ؟ ثم ينصرف كل منهم فى طريقه ٠ هكذا أنا أسأل عنها وهى تسأل عن صحتى ويمضى كل منا فى طريقه ٠ أنا هنا فى هذا البيت أناجى همومى وأحاول أن أفرج عن نفسى بالجلوس تحت السماء فوق سطح منزل الحاج مصطفى ومن ورائى هذه الغرفة المسكينة . وأما هى فتسأل عن صحتى وتمضى فى سبيلها ، لتستعد ليوم الزفاف وتجهز الثياب والأثاث لاستقبال محمود خلف ٠ ودارت فى داخلى مناقشة عنيفة كأنى كنت أنطوى على شخصين منفصلين يتنازعان فى حدة وحرارة وكل منهما يثير من ناحيته الآلام فى قلبى ٠ كان أحدهما يخجلنى من نفسى لأنى أتطلع الى أمور لا ينبغى لمثلى أن يتطلع اليها ويتهمنى فى صراحة أننى اشبه المملوك فى الأزمان القديمة عندما كان يتطلع الى ابنة سيده ٠ وكان الثانى يغضب ويرفض ويتهمنى بالتقصير فى حق نفسى وحق منى لأنى لم أتقدم نحو أمنيتى جريئا صريحا ، ولم أواجه موقفى كما ينبغى للرجل الحر الذى يحترم نفسه أن يفعل ٠ وكانت نتيجة هذه المحاورة الخانقة اننى لم أشعر بأنس الى ضوء القمر ، وخيل الى أن الفضاء أشد ظلمة من جدران الجحر الأسود الذى عرفته فى مركز دمنهور ٠ وكما يفيق الحالم من نومه رأيت فطومة تصعد من السلم وتتسلل فى ضوء القمر الى الناحية الأخرى من السطح ، ثم تقف هناك مطلة على الحارة الضيقة ٠ ووجدت نفسى أنكمش فى مكانى كأنى أريد أن أختفى ، وخطر لى أن أقوم من مجلسى فأدخل الى الغرفة وأغلق بابها ورائى ٠ ولكننى بقيت ثابتا فى مكانى كأنى هامد لا أقوى على الحركة ٠ وبقيت فطومة فى مكانها دقيقة

أول دقيقتين ثم ارتدت متجهة نحوى ، وكانت تسير متباطئة وتتلفت حولها كأنها لا ترانى . ولما اقتربت منى زاد انكماشى ولكنى لم أجد بدا من أن أعترف بوجودها فتكلفت الثبات وقلت لها هادئا :

ـ مساء الخير يا فطومة .

فأجابتنى فى نغمة عابسة متحفزة :

ـ مساء الخير يا عينى .

ووقفت أمامى وكان وجهها مصفرا تحت ضوء القمر ، ولكنها كانت صفرة تشبه لمعة الثوب الحريرى الأنيق . أهذه فاطمة ؟ كانت عيناها تأتلقان بنـــور خاطف من بين رموشـــها الطويلة المكحلة ، وكانت ملامح وجهها تنطق بعاطفة ثائرة . كانت تلك أول مرة رأيتها فيها فى مثل تلك الصـــورة .

كانت فى زينة ثقيلة من الحلى فى يديها وفى أصابعها ، وكان قرصان واسعان يتدليان من أذنيها الى قرب كتفيها ..

لست أدرى هل كانت هذه الحلى ذهبية أم مذهبة ، ولكنها كانت على كل حال توحى بأن أمامى امرأة ثائرة تتحدى ، وخيل الى أنها كانت أطول قامة وأرشق قواما من أثر كعبها العالى وثوبها الانيق .

ووقفت أمامى واضعة يديها على جانبى خصرها الدقيق ، فظهرت تقاسيم جسمها بديعة التناسق ، وأما وجهها فكان يشبه زهرة ماردة فى غابة استوائية . ولما ردت على تحيتى كان على وجهها شىء يشبه ابتسامة ضئيلة ، ولكنها كانت أقرب الى أن تكون دعوة لبدء معركة . فكان مظهرها فى جملته يشبه غجرية حسناء تمسك فى يدها خنجرا وتقف لتحاسب غريمها الذى أثار غضبها .

وقلت لها فى صوت خافت :

ـ ألا تجلسين قليلا ؟ أأجىء لك بكرسى ؟

وهممت بأن أقوم لاحضر لها كرسيا ولكن ردها كان حاسما . فانها هزت رأسها فى سخرية وقالت :

ـ لا مـــرسى !

وهممت بأن أقوم لأحضر لها كرسيا ولكن ردها كان حاسما ، فانها من قبل ، وبدأت أزيد انكماشا وارتباكا . وخطر لى أن أقف حتى لا أحادثها وأنا جالس ولكنى ترددت ولم أفعل .

وقلت لها فى تكلف سخيف :

ـ ليلة جميلة والحر بدأ يهدأ ٠

فقالت وهى تهز راسها مرة أخرى :

ـ ويحلو فيها الجلوس فى القمر على انفراد ، فلأذهب لأتركك وحـــدك ٠

فقلت فى بســـاطة :

ـ بالعكس يا فطومة ٠ يسرنى أن أراك بعد هذه الغيبة الطويلة ٠

وكنت فى الحق مخلصا فى كلمتى ٠

واحسست كأن اناءا من الماء البارد صب على رأسى عندما ضحكت ضحكة طويلة وأمالت رأسها الى الوراء قائلة :

ـ آه ـ مرسى !

وبقيت فى مكانى ناظرا اليها ماخوذا مسمرا وامتلأت عينى من حسنها الوحشى المخيف ٠ نعم كان حسنها بارعا مخيفا أو هكذا شعرت لأنه زادنى رهبة منها ٠ وهممت أن أجمع ارادتى وأحل انكماشى وأقول لها كلمة مداعبة ، أو أطرى على محاسنها بعبارة منطلقة تعيد مكان كل منا الى سابق موضعه من الآخر ، ولكنى ذهلت عن كل لفظ يحمل معنى المداعبة أو الاطراء والمجاملة فلم أنطق الا بقولى :

ـ ما هذا يا فطوطة ؟ أكاد لا أصدق عينى ٠

ولم أفطن الى أنى كنت غير موفق فى كلمتى الا عنـــدما ســـمعتها تجيب قائلة :

ـ يعنى ؟

فقلت مرتبكا : الحقيقة أنى كنت لا أنتظر ٠٠٠ أقصد أنى مسرور من هذه المفاجأة ٠

فضحكت مرة أخرى حتى كادت تترنح وقالت فى سخرية :

ـ كـــذاب !

فوقعت كلمتها مثل صدمة عنيفة على رأس مذهول ، فلم أكد أتنبه الى دلالتها ٠ أهكذا تخاطبنى فطومة ؟ وما يحملها على كل هذا ؟

وحاولت أن أهرب من المعركة فقلدتها تقليدا أبلها وقلت :

ـ يعنى ؟

فضيقت عينيها وهزت رأسها وهى تقول :

ـ يعنى أنك كنت تريد أن تقول شيئا آخر ، ولكنك خفت ٠

فقلت محاولا أن أجعل صوتى مداعبا :

ـ أهى معركة مقصودة ؟

فكانت كلمتى مثل عود الكبريت اذا أشعل لغما وانفجرت فطومة قائلة :

ـ معركة ؟ ايه معركة ؟ مقصـــودة ؟ تحسب أنى جئت الى هنا بالقصـــد ؟ العفو يا سيدى ! لو عرفت أنك هنا ما وضعت قدمى على السطح ٠ أنا أرمى نفسى ؟ أنا أبحث عنك وأجىء اليك بالقصد ؟ لست بلهاء ولا رخيصة ولا تحت فضلة ٠ تحسب أنى جئت أرجوك التنازل ؟ ومن قال لك أنى أهتم بسؤالك ؟ لم يخطر ببالك أن تقف عند الباب لتسأل عن المريضة المسكينة ٠ يا عينى ! ألم تسمع انى مريضة ؟ حتى الآن عندما تمر بباب الشـــقة لا تلتفت ولا تعتنى كأنى لا أستحق أن تقول لى كيف حالك يا فطومة يا بنت آدم ٠ تظن أن الدنيا كلها خلت ولا أجد فيها من يسأل عنى ؟

واخيرا جئت الى هنا ووقفت أمامك وكسرت على نفسى بصلة ، فلا أسمع منك الا هذه الكلمة ؟ تقول لى معركة مقصودة ؟ حتى الكلمة عندما تكون على طرف لسانك وأعرف أنها فى ضميرك ، نعم اعرف أنها فى ضميرك ، ومع ذلك لا ترضى أن تنطق بها وتحسبنى بلهاء ٠ كذاب والف مرة كذاب ، وأنت تعرف أنك كذاب ومتكبر ومغرور ، وتقابلنى كأنى خادمة ٠ يا جامد يا بارد يا ثقيل !

وكنت أستمع الى دوى العاصفة وأنا خاشع لا أتحرك ولا أنطق ، ومن العجيب أنى لم أشعر بالاهانة ، بل لعلى كنت أقرب الى الاغتباط ٠ وأردت الى أن أهدئها فقمت عن الكرسى باسما وقلت فى بساطة :

ـ أشكرك يا فطومة ٠ آالى هذا الحد تكرهينى ؟ الى هذا الحد بلغ غضبك على ؟ الحق على يا فطومة وأنا آسف وأقر لك بأنى مخطىء ٠

ولكن هذا الاعتذار لم يهدىء غضبها بل زادت قسوة فى تعبير وجهها واستمرت تقذفنى بهجمات أشد وأعنف حتى ختمت قولها بدفعة هستيرية من البكاء وكانت تقول فى بكائها :

ـ الذنب ذنبى أنا ٠ فطومة التى تأتى اليك كل يوم بصـــينية الافطار وتغنى لك وتجلس على الأرض عند رجليك ، فطومة التى تقطع

أصابعها فى مسح غرفتك وغسل ملابسك وترقيع جواربك ، فطومة التى تتمنى رضـــاك وتعرض عليك الذهاب للسينما ، لا تستحق أن تلتفت اليها ، والآن فقط تعتذر بأنك مخطىء وتقول « الحق على يا فطومة » ، وانتهى الأمر كأنى طفلة · كلمة لا تكلفك أى تعب تمن بها على كأنى سائلة أطلب منك الاحسان · لا يا سى سيد ، وفر الاحسان لغيرى ووفر الاهتمام لفتاة أخرى تليق بمقامك ·

وانصرفت مسرعة قبل أن أتمكن من التمسك بها والاعتذار اليها حتى ترضى · وتركتني واقفا مثل شخص تعرضت له جنية وتركته مخبولا وتسلقت على أشعة القمر ·

وعدت الى مجلسى كاسف البال حائرا ، وجثم على صدرى ضيق اشد اضعافا مما كان فيه ، وغمرنى شعور بالخزى كأنى ارتكبت جرما · وكانت ألفاظ فطومة ترن فى سمعى كأنها ضربات سوط وتأبى الا أن تعود الى كلما حاولت أن أبعدها ، وكان رنين ضحكتها الساخرة تجعل قلبى يغوص فى صدرى ، وقولتها « كذاب ! » ، التى خرجت من حلقها كانت كالقذيفة · لست أدرى كيف تمكنت هذه الفتاة أن تعرف ما كان يدور فى نفسى عندما هممت أن أقول لها « انك ساحرة فى هذه الزينة وهذا الحلق الكبير » ، مع انى لم أستطع أن أجد الألفاظ التى أنطق بها · هل كانت تفتش فى أعماق صدرى حتى عرفت أنى تعمدت الكذب والهروب من حسنها الرائع المخيف ؟

وأخذت ألوم نفسى على الرهبة التى شلت حركتى عندما وقع نظرى عليها · فهل كان ينبغى لى أن أنكمش هكذا عندما رأيتها ؟ ماذا جعلنى أنظر اليها مأخوذا كما ينظر الصوفى المتعبد الى كأس من الشراب المثلج وهو صائم فى يوم صائف ؟ الصوفى يتحمل العطش والحر ويرفض الكأس الحلوة المثلجة من أجل الجنة التى يعيش من أجلها ، وأما أنا فلم تكن لى جنة أعيش من أجلها ؟

لم أكن أكثر من بائس يستعبد نفسه من أجل العبودية ، ويشقى نفسه من أجل الشقاء ولا يرجو من وراء ذلك كله جزاء ·

وسنح لى من خلال حيرتى وحنقى خاطر كأنه صوت يهمس فى أذنى مترددا خيفة أن يسمعه أحد غيرى · خطر لى أن أنزل من ساعتى الى شقة فطومة فأقف عند بابها أرجوها واستسمحها حتى ترضى عنى · ونظرت الى الساعة فوجدتها العاشرة الا ربعا وكانت أنوار القاهرة تتصاعد من بعيد صاخبة حارة ·

نعم فما يزال الوقت مناسبا والناس لا ينامون في الصيف في مثل هذه الساعة • ولكني لم أتحرك من مكاني كأن ذلك الخاطر لم يكن سوى فكرة مجردة لا يقصد من ورائها عمل • وأخذت أسأل نفسي لماذا لم أنفذ عزمي على الانتقال من هذا المسكن مع أني أكدت ذلك العزم في ضميري مرة بعد مرة • ولماذا تحملت الحياة في غرفتي هذه المسكينة مع كل ما عانيته من المشقة في خدمة نفسي بعد انقطاع فطومة عني ؟ ولست أحب أن أخفي أنني أخذت أتبين في تلك الساعة حقيقة لم أستطع أن أكابر فيها لأنها ظهرت لي واضحة بعد أن كانت خافية عني في المسارب العميقة من نفسي • وهكذا نحن جميعا لا نعرف من أنفسنا الا ما نريد أن نعرف ، حتى تتبين لنا فجأة بعض الحقائق التي كنا نجهلها اذا أثارتها هزة قوية من أعماقنا • والقليل منا من يستطيع أن يتخلى عن المكابرة ويقر بالحقيقة التي كان يجهلها ، ولكني لم يكن لي بد من أن أعترف بأني كنت متعلقا بهذه الفتاة الجاهلة الحمقاء الوحشية السخيفة • كنت أتعلق بها بجانب واحد من طبعي ، ولكن الجانب الآخر كان يعرف أنهـا لم تخلق لي ولم أخلق لها •

كنت أتدارى وراء فكرة العطف عليها أو الرثاء لها أو الاحسـان اليها ، وكانت كل هذه المظاهر تخفي عني ما تحتها ، وهو أني كنت متعلقا بها تعلق الطبيعة التي لا تبالي العقل في تصرفها •

عند ذلك فقط عرفت كيف أفرق بين الحب والميل الغريزي ، بين الطبع الذي يختار والطبع الذي ينجذب ، بين أفق الحياة العليا التي تجمع الكل الى الكل أبد الدهر وبين أفق الحياة الدنيا التي تدفع البعض الى البعض ما بقيت الدفعة ، بين السلام الذي يسري بين روحين عند لقاء نصفين شقيقين وبين الاضـــطراب والقلق الذي يفضي اليه تدوال التجاذب والتنافر بين طرفين غير متوافقين • عند ذلك فقط عرفت كيف أفرق بين فطومة وبيني • كنت أنجذب الى فطومة ومع ذلك كنت أخشاها وأنفر منها • كنت متعلقا بها ولكني كنت في الوقت عينه أنكمش عنها وأرهب صلتي بها • كانت فطومة أنثى ولكنها لم تكن حبيبة • وما أشد خطأ من يخلطون بين التعلق وبين المحبة الكاملة !

وقمت من مجلسي فدخلت الى غرفتي وبدأت أخلع ملابسي لأستعد للنوم الذي طاوع جفني بعد أن كان نافرا عنهما • وكان من عادتي أن أخرج ما في جيوبي من الأوراق لأضعها في طربوشي قبل أن أنام ، فلما أخرجتها رأيت بينها الصحيفة الزرقاء التي جاءتني في الصباح من أختي • فجلست أقرؤها مرة أخرى وأنا أهدأ مما كنت في المساء • وكان عجبي شديدا عندما وصلت الى آخر الخطاب وقرأت الحاشية التي كتبتها منيرة ،

فقد ظهر لى أن للحاشية بقية على ظهر الصفحة ، والعبارة الكاملة هى « وأما منى فانها بخير وتسلم عليك وتسأل عن صحتك وبهذه المناسبة أقول لك ان أمى كلفتنى أن أكتب اليك هذا الخطاب مستعجلا لأرجوك أن تحضر الى دمنهور ولو يوما واحدا لتقول لك شيئا هاما ! » ٠

وكنت قد رميت بالظرف فى سلة الأوراق المهملة بمكتبى ولم ألاحظ أنه كان مستعجلا لما كنت فيه من التعب ، فما كدت أقرأ هذه الكلمة حتى هاجت مخاوفى وتحفزت كل مشاعرى وقلت فى نفسى : شيئا هاما ! لا شك أنه يتصل بمنى ، وماذا يكون يا ترى ؟ وبغير أن أقف للتفكير لحظة نظرت فى الساعة وكانت قد بلغت الحادية عشرة الا ربعا ٠

فالقطار الصعيدى ما يزال ينتظر على الرصيف ، وأستطيع أن أدركه اذا بادرت بالسير من لحظتى ٠ وفى دقيقة واحدة كنت خارج الباب وجربت الى الشارع لأبحث عن سيارة أجرة ، فكنت فى المحطة قبل سفر القطار بخمس دقائق ٠

- ٢٢ -

كانت عودتى الى منزلنا فى الصباح مفاجأة سارة عندما فتحت أمى الباب ورأتنى أمامها · وصاحت قائلة :

ـ سيد ؟ صباح الخير يا حبيبى · صباح النور !

وكانت منيرة واقفة وراءها تقول فى مرح :

ـ طبعا يا ستى هل الهلال ·

وصافحتنى بعد أن تركتنى أمى وهزت يدى قائلة :

ـ ها هو ذا لم ينقص شيئا يا أمى ، أتدرى يا سيد أنها حلمت بالأمس أنها رأت الهلال يظهر لها مثل خيط رفيع فاعتقدت أنك مريض ؟ الحمد لله على السلامة !

وأخذت أمى تدعو لى ونحن صاعدون فى السلم ، واستمرت منيرة تتحدث من ورائنا قائلة :

ـ أتعرف يا سيد من كان عندنا أمس ؟ ألا تذكر عمتنا (بهانة) ؟ لم أكن أعرف أنها ظريفة هكذا · وعمى محمود وأولادهم عمر وسـيد وحليمـة ·

وقالت أمى : اسم الله عليك يا سيد ، عاشت الأسامى · الخالق الناطق هو سيد بعينه ·

فقالت منيرة : أظنه أجمل قليلا ·

وضحكنا جميعا ودخلنا الى غرفة الجلوس وكنت شديد التلهف الى سماع أخبار منى ، ولكن منيرة استمرت فى وصف عمتها وأولادها وزوجها السمين الذى أصبح غنيا يذهب الى الاسكندرية فى الصيف ·

وقلت لأوجه الحديث الى منى :

ـ وصلنى الخطاب بالأمس ولكننى لم أقرأه الا فى الساعة الحادية عشرة الا ربعا ، ولهذا أخذت القطار (الصـعيدى) لأكون هنا فى الصـباح ·

فصاحت أمي : الصعيدى ! الحق على يا ابنى طبعا انشغل بالك علينا ٠

فعادت منيرة تقول : الحمد لله على السلامة يا أستاذ ٠ أظنها فرصة طيبة للذهاب الى الاسكندرية بضعة أيام ٠ (فيلا كولونا) محطة فلمنج أول شارع على اليمين ٠ هذا هو العنوان الذى تركته عمتى حتى نجيب دعوتها ٠ احفظ العنوان من فضلك ٠

وكانت تريد أن تمضى فى حديثها ولكنى قلت مختصرا :

ــ ماذا حدث لمنى ؟

فقالت أمي : منى ؟ هى بخير يا ابنى ! مالها منى ؟

فقلت : ألم تكتب لى منيرة أن أحضر لأمر هام يتصل بها ٠

فقالت منيرة : لم أقل انه يتصل بمنى يا حضرة ٠ لا بأس على الذاكرة !

فبلعت ريقى قائلا : ماذا حدث اذن ؟

وتذكرت حقا أن منيرة لم تقل ان الأمر يتصل بمنى ٠

وقالت أمي : كنت من أسبوع هناك ، مسكينة الست نور ، من يوم رحمة المرحوم وهى دائما بخير ٠ وجاءت منى الى جنبى ـ الله يحميها وأفرح لك بعروس مثلها ! والنهاية سمعت الست نور تشتكى من دفع عشرة آلاف جنيه لحمادة الاصفر ٠

وغلى الدم فى رأسى وصحت أنا الآخر :

ــ عشرة آلاف جنيه !

فأجابت أمي : سألت الست نور هذا السؤال فقالت أن محمد باشا دفعها ٠ طبعا من مال المرحوم ، لأنه الباشا هو الذى يتولى ادارة المحلج والأطيان ٠ نسايب طبعا ٠

وقمت واقفا فى غضب :

ــ لص طبعا ! ألم تقولى لها انه لص ٠ ألم تقولى لها انه نصاب أفاق دنىء مغتصب ٠

فقالت أمي : أقول لها يا بنى ؟ أقول لها ان الباشا لص ؟ عيب يا ابنى ؟ حزنت والله يا ابنى من أجل الخسارة بغير فائدة ، وقلت فى سرى ياليتك يا ابنى ما تعرضت للخبيث المحتال حمادة ٠

حمادة يأخذ من الست عشرة آلاف جنيه ؟ ما ذنبك يا بنى تخسر مائة جنيه ؟ قلت أرسل اليك كلمة حتى تعرف · لكن الشرح فى الخطاب يطول وأنا أحب أنك تعرف كل شىء ، وتتصرف مع حمادة الأصفر لتسترد منه المائة جنيه · كان يهون على يا بنى دفع أى مبلغ · والله يا بنى كنت فى الليل والنهار أدعو لك لأنك حفظت جميل السيد أحمد جلال · ولكن حرام ! أنت أولى بمالك ومالك حلال بعرق الجبين ·

وكنت منصرفا الى حديث حانق فى ضميرى واستمرت أمى تتكلم وأنا أستمع الى أقوالها كأنها منبعثة من غرفة بعيدة · وكنت أفكر فى الباعث الذى جعل محمد باشا يدفع عشرة آلاف جنيه لحمادة الأصفر ان كان قد دفعها حقا · لقد مزقت الورقة التى كان حمادة يساوم بها · مزقتها بيدى ورأيت عليها امضاء السيد أحمد جلال التى أعرفها · ولم يكن ذلك حلما وأمى تعرف أنى أخـــذت منهـــا الجنيهـــات المائة لأدفعها الى حمـــادة ·

وسألت أمى فى دهشة حانقة : ألا تذكرين الليلة التى أخذت فيها المائة جنيه منك ؟ ألم أقل لك انى دفعتها الى حمادة ؟ أكاد أشك فى عقـــلى ·

فأجابت أمى : الله يحميك يا ابنى ويحمى عقلك · طبعا أنذكر · فداك مائة جنيه وألف جنيه ولكنك معذور يا بنى ·

فقلت مندفعا : لم يخطر فى بالى أن هذا الخبيث يدور من الناحية الأخرى مثل الثعلب فى حظيرة الدجاج ·· حمادة يحلم بألف جنيه ؟ حمادة يأخذ عشرة آلاف جنيه ؟ لابد أن فى الأمر مؤامرة أخرى ·

وكنت متعبا الى حد الاعياء من السفر فى الليل والقطار الصعيدى البطىء ، ولكنى فكرت فى القيام من ساعتى للبحث عن حمادة الأصفر لأناقشه الحساب · وهممت بالقيام ناظرا فى ساعتى وكانت ما تزال السابعة صباحا ·

فقالت أمى فى دهشـــة : الى أين يا سيد ؟ اقعد قليـــلا يا ابنى ولا تضايق نفسك · يا منيرة جهزى الشاى يا بنتى ولقمة صغيرة · مسكين يا ابنى الحق على لأنى أزعجتك · مسكينة يا بنتى ، الله يرحم السيد أحمد جلال كان أمله ومنى عينه أن يرى عرس منى ولكنها آجال · النهاية يا ابنى الحمد لله الموضوع انتهى · ولما أردت القيام قامت منى توصلنى وقالت لى بلغى سيد أفندى أن الموضوع انتهى · والله يا ابنى خرجت الكلمة من لسانى وقلت لها « الله يخيبه حمادة الأصفر لأنه أخذ الثمن مرتين » · لا تغضب يا بنى والله ما ملكت نفسى · واندهشت منى

وقالت « مرتين ؟ » ولما قلت لها الحكايه كلها ظهر عليها التأثر وقالت « لابد لى من سؤال سيد عن الحقيقة » ، وحلفتنى أن أبعث اليها فى أول مرة تأتى فيها الى دمنهور · ولكنى خفت أن الموضوع يبرد وقلت لمنيرة يا بنتى سيد غاب عنا من شهور ، اكتبى له يحضر فى مسألة ضرورية ، ومن جهة نطمئن عليك ومن جهة ثانية ···

وقلت مقاطعا أمى : اذن هى مؤامرة ثانية لعصابة أخرى من الأنذال بقصد السطو على منى · هذا الباشا يريد أن يلعب بها على ما يظهر ولابد لى أن أقابله وجها لوجه كما قابلت حمادة الأصفر فى المرة الأولى ·

فقالت أمى فى فزع : ماذا تقول يا سيد ؟ تقابله وجها لوجه ؟ ياليتنى لم أبعث اليك ولم أقل لك شيئا · مالنا والباشا ؟ لا تقابل الباشا وابعد عنه وكفاك الله شره يا بنى · انتظر حتى تهدأ يا سيد ثم اذهب الى حمادة الأصفر ·

وجاءت منيرة بعد قليل فوضعت صينية الشاى على المنضدة وقربتها منى وأخذت تملأ الفناجين ، وجاهدت نفسى حتى استطعت أن أنتظر · وعادت منيرة الى حديث العمة وأولادها ولكنى كنت منصرفا الى التفكير فى المسلك الذى ينبغى لى أن أسلكه · كنت حائرا لا أدرى من أين أبدأ ، ولما فرغت من الافطار كانت الساعة الثامنة من الصباح ·

فقلت لأمى : أظن الأحسن أن تأتى منيرة معى الى « البقالة الرشيدة » لتحدث منى بالتليفون وتخبرها بوجودى هنا ·

فقالت منيرة : ما شاء الله استفتاح عظيم أن أذهب الى المحل فى الساعة الثامنة وأطلب منه كلمة تليفونية · ألا ترى أنك أيضا فى حاجة الى غسل وجهك ومسح التراب عن ملابسك كما أنى لا أستطيع الخروج هكذا ؟ ·

وتذكرت عند ذلك فقــط أنى فى حاجة الى شىء من الاستعداد للخروج فى المدينة ، وأن الناس لا يستقبلون أحدا فى بيوتهم فى مثل هذه الســاعة ·

ولما صارت الساعة التاسعة كنت أكثر هدوءا واستراحة بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسى التحتانية ونظفت ملابسى من الغبار · ولكنى عندما عزمت على النزول كانت منيرة ما تزال تستعد وتمشــط شعرها ، ولما استعجلتها صاحت من داخل الغرفة :

ـ تفضل أنت فانى غير محتاجة الى خفير ·

فنزلت وحدى متجها الى المحطة لأبعث تلغرافا الى بريد الاحرار معتذرا عن غيابى ، ثم واصلت سيرى الى بيت صاحبى عبد الحميد بعد ان استقر رأيى على الابتداء بزيارته ·

واستقبلنى عبد الحميد كأنه على موعد سابق منى ، فصافحنى فى حرارة ولكنه لم يظهر دهشة · ولمحت على وجهه نحولا أشد مما لمحته فى المرة السابقة ، وكانت حلقة زرقاء تحيط بعينيه ، وخيل الى أن ظهره بدأ يتقوس · ولكن الابتســـامة التى اضاءت وجهه أزالت عنى شعور الوجوم الذى هجم على عندما وقعت عينى عليه · ودخلنا الى الغرفة القديمة ، وبدأنا نتحدث فى السياسة · السياسة دائما ! وقلت لأغير الحديث : كيف أنت ؟

فقال : كما ترانى · وكيف حالك أنت ؟

فقلت : كما كنت سميتنى دون كيشوت ·

فابتسم صامتا وانتظر أن أستمر فى الحديث فقلت :

ـ لم تكن مخطئا عندما سميتنى بهذا الاسم وأرجو أن تكون صديقا عاطفا كما كان سانكو بانزا ·

فقال : اذا شئت أن يكون الشبه واضحا كل الوضوح فأرجو أن أعرف هل تمكنت من الفوز بقلب الأميرة الجميلة ·

فقلت : لك أن تقول ما شئت ولكن ···

فقاطعنى قائلا : أليس من العجيب أنك لا تجرؤ أن تقول لها انك تحبها ؟ هل تحبها حقا ؟

فقلت : ماذا يدعوك لهذا السؤال ؟

فقال : الناس كثيرا ما يغرمون بالخيال ويفرون من الحقيقة · كثير من الشعراء الذين ملأوا الدنيا بكاء وغناء كانوا لا يحبون النساء أنفسهن بقدر ما كانوا يحبون صورهن الخيالية · فاذا أتيحت لهم الفرصة للفوز بمن يحبون سكت غناؤهم فجأة ، وكثير منهم أصيبوا بالخيبة ·

فقلت فى حنق : وماذا تقصد بهذا ؟

فقال فى هدوء : أقصد يا سيدى شيئا بسيطا وطبيعيا · لم يفت الوقت بعد · لا تدر حول نفسك هكذا من بعيد وتترك خصمك ينتزع منك كنزك وتساعده على أن يأخذه منك · اذا كنت حقا تريد (منى) فاذهب

من ساعتك هذه الى بيتها وافتح لها صدرك • واذا أردت أن تمثل دور دون كيشوت الى نهايته فانك تستطيع أن تركع تحت قدميها وتقبل طرف حلتها الحريرية وتقول لها « ها أنذا أضع قلبى تحت قدميك » •

ورنت كلماته الساخرة فى اذنى قاسية لأنها مثلت لى الحقيقة • الم أمهد لخصمى أن ينفرد فى الميدان وفررت الى القاهرة بغير ان أوجه كلمة الى منى ؟

وأخذت اسأل نفسى عن السبب الذى يمنعنى من أن أفتح صدرى لها كما يقول صاحبى • أأخشى أن تسخر منى ؟ أهذا ممكن ؟ ولكن اذا كان هذا ما أخشى فلماذا لا أواجه الحقيقة وأنتهى ؟

وجلست صامتا أنظر الى أمامى وانصرف صاحبى الى داخل المنزل وتركنى وحدى ، ولو كنت فى تلك اللحظة اعرف ما أريد حقا لقمت مسرعا الى بيت منى لأقول لها ما كان يضطرم عند ذلك فى صدرى • من يستطيع أن يملأ قلبى سوى منى ؟ من يمكن ان أعيش من اجله غيرها ؟ رأيت مئات من الفتيات والسيدات وكنت بفضل مهنتى أختلط بطبقات الشعب على اختلافها • رأيت الحســان والأنيقات والغوانى والمغامرات والمطلقات والخفرات من كل سن ولون ، فلم أجد فيهن من تسترعى منى التفاتة • وفطومة التى كانت معى منذ ليلة ! الم تتجلى لى الحقيقة واضحة عندما رأيتها ساحرة الحسن ولكنها مخيفة ؟ الم أعرف انها لم تخلق لى ولم أخلق لها لأنها لا تزيد على أنثى • ألم اقل لنفسى ان الحياة كلها لا تحتوى على فتاة غير منى ؟ فماذا يجعلنى أتردد ؟

ودخل صديقى فى تلك اللحظة حاملا معه بعض الفاكهة ، واعتــذر بأن الخادم فى اجازة • ياللأنانية ، لم أسأله عن صحة أمه التى عرفت فى المرة الماضية انها مريضة •

وقلت له : كيف حال عمتى ؟

فأطرق قليلا وقال : عليها رحمة الله يا صديقى •

واطرق حزينــــا •

فتمتمت قائلا : انا لله وانا اليه راجعون •

وشعرت بوخزة شديدة من الأسف كما عتبت فى ضميرى على أمى لأنها لم تخبرنى •

وبقيت جالسا فى صمت وتردد كأن ذهنى متوقف • هذا الصديق الذى اضيق أحيانا بسخريته والذى يدهشنى بقوة ارادته التى تصل الى حد الجمود ! هذا الصديق العجيب الذى يبدو لى أحيانا كالحجر الصلد

مع أني أعرفه انسانا كامل المروءة كبير القلب واسع العقل · كيف تجتمع كل هذه الأضداد في شخصية واحدة ؟ وهذا الحزن الذي يفوح من نظرته ومن اطراقته ومن أنفاسه التي يحاول كتمانها ! المسكين ينطوي على نيران تضطرم في أعماقه ولكنه لا ينفس عنها · والتفت اليه وتبادلنا ابتسامة ضئيلة حزينة وأحسست نحوه عطفا شديدا لم أستطع أن أعبر عنه بالألفاظ ·

وقلت له : متى ؟ أجاب : منذ شهر ·

فاشفقت أن أنطق له بكلمة مواساة ، لأني لم أجد كلمة تعبر عن حقيقة مواساتي · ومددت يدي اليه في صمت فضغطت على يده وخرجت من البيت لا أدري الى أين اتجه · هل صديقي هذا انسان من البشرية الضعيفة ؟ هذا نقص فيه أم هو امتياز ؟

وسرت في الطريق حائرا كئيبـــا وكانت الحوانيت على الجانبين مزدحمة والشارع يموج بالناس ، بعضهم يسرع نحوي ليحييني ، وبعضهم يصيح بي بالتحية من بعيد وأنا أتكلف البشاشة والاجابة ، وانحدرت في أول طريق على يساري نحو الترعة ، وكانت هناك الحانة القذرة التي تعود حمادة أن يجلس فيها · ولكنه لم يكن هناك والخواجه مانولي ما يزال واقفا وراء منضدته العريضة ينظر الى الخارج نظرة جوفاء · وخطر لي أن أدخل الى الحانة لأسأل عن حمادة الأصفر ولكني لم أفعل · ولما بلغت جسر الترعة عرجت الى اليسار حتى وصلت الى كوبري قلاقة ثم انحدرت الى الشارع المؤدي الى المدينة تاركا قدمي تحملاني حيث تريدان · وعدت الى منزلي كاسفا حزينا كأني لم آت الى دمنهور الا لكي اقطع الطريق هكذا ذاهبا آيبا وأنا حائر حزين ·

ولما وصلت الى منزلي كنت ما أزال أحدث نفسي أحاديث متناقضة ، ولقيتني أمي عندما أحست بمقدمي فبادرتني قائلة « هل قابلت الباشا ؟ » فهززت رأسي واتجهت الى غرفتي ، ولكني سمعت صـــوت منيرة وهي تناديني من المطبخ :

ـ أنت مدعو الى الشاي عندي في الساعة الخامسة تماما · وسيكون ضيف الشرف الآنسة مني ·

ولم ادر كيف استطعت أن أمنع نفسي من صيحة الدهشة التي كادت تخرج من صدري · ثم أخذت أسأل نفسي أين تكون هذه الدعوة ؟ وفي أي موضع نستقبل مني ؟

ودخلت الى غرفتي وذهني يدور مسرعا · ماذا أفعل اذا أتت مني ؟ هل أنزل الى الباب لأستقبلها ؟ وأين تجلس في هذا المنزل المسكين ؟ انها

جرأة عجيبة أن تقدم منيرة على هذه الدعوة وغرفة الانتظار لا تزيد على ثلاثة أمتار فى أربعة ، ولا تطل الا على منور بنافذة صغيرة ٠

ونظرت الى الساعة فوجدتها ما تزال الحادية بعد الظهــر ، كأن عقاربها لا تتحرك ٠ وقمت لأبحث عن شئ أقرأ فيه ووجدت على مكتبى قصة انجليزية رخيصة ، فجعلت أقرأ فيها لعلى أقطع بها الوقت ، ولكن ذلك لم ينفعنى بشىء لأن ذهنى كان يدور مسرعا ٠ ولما ضقت بالقراءة رميت بالقصة على المكتب وقمت لأستريح ٠ ومع كل ما كان فى ذهنى من الخواطر والهواجس غلبتنى الحاجة الى النوم فلم أستيقظ الا عندما نادتنى أمى للغداء وكانت الساعة الثانية والنصف ٠ وتكلفت أن أكون عاديا فى مظهرى وحديثى على المائدة ، بل أنى تكلفت شيئا من الخفة والمرح وقلت بعض كلمات مجاملة بالاعجاب بالطعام ٠

وسألت منيرة : ما هذا الشاى الذى تتكلمين عنه ؟

فقالت : عندى يا فندم ٠ فهل تتنازل ؟

وتبسمت هذه المرة صادقا ٠

وأخذ قلبى يدق فى ضعف ، وسألت نفسى هل أتماسك اذا قابلتها ؟ أم أرتبك ويلتصق لسانى بحلقى كما فعلت من قبل مرارا ٠

وأخذت منيرة تصف لنا الأصناف التى أعدتها للشاى ، ودخلت أمى معها فى مناقشة عميقة لم افهم منها شيئا لأنها كانت على مقادير الزبد والســـكر والدقيق والبيض التى صنعت منها كمكها وأطباقها ، ومنيرة تزعم دائما أنها فى هذه الميادين لا تبارى ٠

ولما فرغنا من الطعام عدت الى غرفتى وكانت الساعة الثالثة والربع، فما تزال ساعتان الا ربعا بيننا وبين زيارة منى ٠

- ٢٣ -

كانت الدقائق تمر بطيئة وانا فى غرفتى كأن عقاربها مسمرة ، وكلما سمعت صوتا أو خبطة خيل الى أنه باب سيارة منى . فأذهب الى النافذة مسرعا خافق القلب فلا أرى شيئا . وأعود بالخيبة مرة بعد أخرى بغير أن يمنعنى الاخفاق من العودة الى التجربة . ولما ضاق صدرى من ذلك خرجت من الغرفة لعلى أقطع الوقت بالحديث أو الحركة فرأيت أمى تصلى العصر وهى فى العادة تبطىء فى الصلاة حتى يخيل الى أحيانا انها لا تريد أن تفرغ منها . فذهبت أبحث عن منيرة ولكنى لم أجدها ، فصعدت الى السطح لعل الهواء الطلق والنور واتساع الفضاء تدخل الهدوء الى نفسى . وكانت السماء صافية والحقول خضراء واسعة تترامى من وراء البيت الى مدى البصر . واسترعى نظرى وجود مجموعة من قصارى الزهر موزعة فوق السور ومنثورة فى الأركان . وفى الركن الأقصى المطل على الحقول بعض مقاعد صغيرة من فوقها أغطية حريرية ومن تحتها قطعة نظيفة من الكليم ، وطبلية مستديرة فى الوسط عليها غطاء أبيض كأنها مائدة ، فصار الركن كأنه مجلس أنيق فى حديقة معلقة . وتبسمت مرتاحا لأن منيرة استطاعت بذوقها ولباقتها أن تحل مشكلة غرفة الاستقبال التى كنت أحمل هم الجلوس فيها . وأخذت أسير فى السطح حينا وأنظر الى ما حول البيت حينا ، وكان الانتظار فى الجو المفتوح أرفق بى . وحلت الساعة الخامسة آخر الأمر وجعلت أرهف سمعى انتظارا ولكنى لم أسمع حسا الى أن صارت الساعة الخامسة والنصف ثم السادسة حتى بدأت أشك فى حقيقة الزيارة الموعودة .

ثم سمعت ضحكة منيرة وهى صاعدة على السلم تتحدث فى مرح . فقمت مسرعا ووثب قلبى ليستقبل منى ، ولكنى ما كدت أصل الى أول السلم حتى وقفت مترددا وبدأ الارتباك يستولى على ، فتباعدت سائرا الى الناحية الأخرى من السطح وانتظرت هناك . وظهرت منى صاعدة فأسرعت اليها محاولا أن أظهر هادئا ، ورأيت على وجهها بسمة صغيرة تشبه ابتسام الدهشة . فمددت اليها يدى الاثنتين قائلا : « أهلا وسهلا ومرحبا » ، ونظرت فى عينيها لحظة قصيرة كأنى أنظر الى بحر عميق صاف .

وقالت منيرة : أنت هنا ؟ وبغير أذنى ؟

ولكنى كنت منصرفا الى منى اقول لها :

ـ أى فرصة سعيدة !

وكان صوتى متهدجا ولكن الاضطراب الذى كان يغمرنى وأنا وحدى لم يبق له أثر ، فان السـفينة الضالة فى المحيط وجدت آخر الأمر مرفأها ٠

واشارت منيرة الى الركن قائلة :

ـ تفضـلوا ٠

لا مؤاخذة يا منى فى اسـتقبالك هنا ، ولكنـه أعظم كازينو فى دمنهور ٠ كازينو أبو طاقية من فضلك !

ونظرت منى الى المقاعد والى قصارى الزهر ثم الى الحقول الخضراء وقالت فى ارتياح :

ـ هى الحقول التى كنت أعرفها وما أزال أذكرها عندما كنا نخرج اليها فى مثل هذه الساعة ٠ كم سنة مضت من ذلك الوقت يا منيرة ؟

فقالت منيرة ضاحكة : لا تكشفى عن أسرار سننا يا منى ٠ قولى منذ خمس سنوات ٠

فابتسمت منى قائلة : لم يحن وقت اخفاء سننا ٠ ربما أبدأ فى ذلك بعد عام ٠

فقالت منيرة : يعنى أننى على حق فى البدء منذ الآن ٠

وضـحكنا جميعا وجلست منى على مقعد وهى تقول : هل مضت كل هذه السنوات سريعا ٠ ولم يتغير شىء سوى أننى كنت أرى الحارة أوسع مما هى الآن ٠ كانت فى نظرى مثل عالم فسيح وكان الرصيف الذى أمام منزلنا كأنه ميدان ٠

وتذكرت تلك الأيام التى كانت فيها منى طفلة تركب فوق كتفى كلما رأتنى وتدلى ساقيها من أمام ، فأجرى بها كأنى حصان وهى تهز رجليها وتضحك مكركرة وتأبى أن أقف ٠

السنوات تمر سريعة حقا وسوف تمر سريعة دائما ، ومن يدرى ؟ هل نقف يوما بعد عدة سنوات اذا جمعتنا المصادفة مرة أخرى فتقول منى ان السنين تمر سريعا ؟ وهذه اللحظة التى نحن فيها ستكون هى الأخرى صورة ننظر اليها من بعيد لنقول اننا اجتمعنا يوما هناك فوق السطح ٠

وسأحدث نفسي قائلا انني وقفت أنظر الى منى، كما أنظر الى روضة مزدهرة في فصل الربيع ، وأحدث نفسي عنها بغير ان اقول لها كلمة ، وسمعت منى تقول :

ـ كيف ترى دمنهور بعد عودتك اليها من القاهرة ٠

فقلت كالحالم : أراها أعز البلاد وأجملها ٠

وقالت منيرة ضاحكة : طبعا لأننا هنا ٠ أشكرك يا سيد بيه بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن منى ٠ وعن أمي أيضا ٠ مرحبا يا ماما !

والتفتنا جميعا لنرى أمي وهي مقبلة علينا بوجهها الأبيض السمين ٠ هي أيضا ذات عيون زرقاء وكأنني لم أر لون عينيها الا في تلك اللحظة ٠ كانت أمي تبتسم بكل جوارحها عندما أخذت منى بين ذراعيها قائلة ! :

ـ الف نهار أبيض يا حبيبتي ٠ شرفت يا منى ! ويوم سعيد بحضورك الينا ٠ زيارة عزيزة يا حبيبتي !

وجلست على المقعد الذي أشارت اليه منيرة بحركة تمثيلية واستمرت أمي تقول :

ـ والله يا بنتي ٠ بودي أن أزوركم كل يوم ولكن المشاغل تمنعني ٠

تعالى هنا الى جنبي ، ربنا يحميك ويفرح قلب ماما وقلبنا بك ٠ ان شاء الله تكون صحتها متحسنة ٠

وجلست منى الى جنبها قائلة :

ـ الحمد لله يا خالتي ، وكانت تود أن تأتي معي ٠

وهمست منيرة قائمة وهي تقول : ما دمتم تعارفتم هكذا فاسمحوا لي أن أجهز لكم الشاي بصفتي مديرة الكازينو ٠ كازينو أبو طاقية يا ماما !

وتلفتت أمي حولها قائلة :

ـ جميل والنبي يا بنتي ، ومنور بوجودكم ٠ تعالى هنا يا سيد يابني ٠ والنبي يا بنتي ما رضي ينتظر للصبح وسافر على هنا في القطار الصعيدي ، لما وصل اليه الجواب ٠

وجلست الى الناحية الأخرى من أمي وبدأ وجهي يتقد ٠

واستمرت أمي تقول :

ـ الحق يا بنتي لما سمعت الحكاية قلت لمنيرة « ابعثي لسيد ـ قولي له يحضر حالا » ٠ عشرة آلاف جنيه يأخذها حمادة الأصفر ؟ وبعد ما أخذ سيد الورقة منه ؟ ٠

وسكتت لحظة من تأثرها فتنفست مرتاحا ٠

وقالت منى فى هدوء : المهم يا خالتى أن المسألة انتهت بخير والحمد لله ٠ وأنا آسفة لهذا التعب والسفر فى القطار الصعيدى ٠

وابتسمت ناظرة نحوى ٠

فقالت أمى : وحمادة الأصفر الخبيث ؟ حرام والله يا بنتى ٠

فقلت فى دفعة : ليس المهم أن يأخذ حمادة الأصفر أو لا يأخذ . المهم أننى لا أعرف كيف تمكن من المطالبة ٠ بأى وجه ذهب ليطالب ؟ عندما سافرت من هنا فى المرة الماضية كانت المشكلة كلها قد انتهت .

فقالت منى : علمت ذلك من خالتى ٠ وتأسفت لأنى لم أعرف فى وقتها حتى اشكرك يا سيد ٠ وهذا هو السبب فى أنى طلبت من خالتى أن تعرفنى بحضورك ٠

فقلت فى شىء من الخجل : لم افعل شيئا يستحق الشكر يا منى ٠ ولهذا تعمدت أن أسافر بغير أن أذهب اليك ٠ لم أعرف أن هذه غلطة الا عندما حضرت الى هنا ٠ بالأمس عرفت غلطتى وآسف جدا لأنى تسببت فى هذه الخسارة ٠٠٠٠

وقاطعتنى أمى : والله يا بنتى دعوت له ليلتها ودعوت لك أيضا ولم يخطر فى بالى أن حمادة خبيث لهذه الدرجة ٠

فقالت منى بصوت خافت : على كل حال انتهت المشكلة والحمد لله ، واود أن اقول ان الفضل فى حلها بكل تأكيد يرجع اليك يا سيد ٠ من يدرى ماذا كان يحدث لو لم تنتزع أنت الورقة من يد هذا الرجل ؟ عندما سمعت أنه أخذ عشرة آلاف جنيه لم أصدق أذنى ٠ لن أنسى يا سيد أنك وقفت هكذا الى جنبى فى الوقت الذى كانت المعركة دائرة حول سمعة أبى ٠

فقلت متأثرا : أنا سعيد جدا يا منى بأن أقف الى جنبك دائما ٠ ولكنى لا افهم كيف توصل هذا الرجل الى العودة اليكم بعد سفرى ٠ ماذا كان فى يده حتى يأخذ هذا الثمن الفادح ٠

فقالت منى : ربما كنت أنا المسئولة عن كل هذا ؟ عندما علمنا بسفرك حسبنا ان الموقف لم يتغير ٠ ومع أنى كنت اشعر بأنك لا يمكن أن تسافر هكذا فجأة بغير أن تكون قد تدخلت فى الموضوع كما قلت ، فانى لم اعرف الحقيقة ٠ وجاء محمد باشا يعرض علينا تسوية الموضوع مع حمادة ، فلم افكر فى شىء سوى أن أخرس الألسنة النحسة وأن أوقف المعركة التى كانت تدور حول سمعة والدى ٠

فقلت فى دفعة : ولكن لماذا يدفع الباشا عشرة آلاف جنيه ؟ نظير اى شىء ؟ ٠

فقالت : لم نفكر فى شىء سوى أن تنتهى المشكلة ٠

واستمرت دفعتى : والباشا ٠ كيف يدفع مبلغا مثل هذا بغير أن يعرف لماذا ؟ أهو أبله ؟

اسمحى لى يا منى أن أقول انى لا أفهم ٠ لا مؤاخذة ٠ لو لم يكن ذلك الشخص هو الباشا لقلت انه لص ٠

ووقفت قليلا ثم نطقت بصوت محتبس :

ـ لا مؤاخذة يا منى لأنى اتكلم هكـذا مع علمى بالرابطـة التى تربطك به ٠

فضحكت قائلة : رابطـة ؟ هذا موضوع آخر ٠ ولكن ماذا كنت اعمل ؟ أكنت تنتظر منى أن أسأله هذه الأسئلة التى تذكرها ؟

ولم أفهم قولها فسرت أخطو بطيئا نحو سور السطح وجعلت أجيل بصرى فى الحقول مفكرا فى معنى قولها « هذا موضوع آخر » ولماذا ضحكت وهى تقول « رابطة » ؟

والتفت نحوها قائلا : انى آسف حقا يا منى ٠ دائما أحاول أن أمسح غلطتى فى غيرى ولا أعرف غلطتى الا متأخرا ٠

وجاءت منيرة تحمل الصينية الثقيلة لتضعها على المائدة المنخفضة ٠

وقالت : دائما لا تعرف غلطتك الا متأخرا : ولهذا تقف هكذا كأنك لا ترانى ولا تتقدم لمساعدتى ٠

فبادرت بحمل الصينية عنها وقامت منى أيضا معنا وجعل كل منا يعمل من جهته على تحويل الأكوام المكدسة فوق الصينية الى شىء يشبه مائدة منتظمة : الفناجين وأطباق الحلوى والفطائر والشطائر التى كانت متراكمة بعضها فوق بعض ٠

وأخذت منيرة ومنى تتعاونان فى الخدمة ، وقدمت منى الى فنجانى ، فتمنيت لو وقف الزمن الى الأبد وأنا أنظر الى عينيها الباسمتين ٠

وقلت لها بصوت هامس بالفرنسيه ـ بالكلمة التى حفظتها عنها :

ـ الف شكر ٠

وتذكرت الورقة التى ما زلت احتفظ بها فى قرآنى الصغير ٠

واستأذنت أمي لتنزل استعدادا للافطار لانها كانت صائمة في يوم نصف شعبان ، وذهبت منيرة معها لتعد لها افطارها وحملت نصيبها من الوليمة في طبق كبير ·

فجاءت مني بفنجانها ووقفت قريبا مني متجهة الى الحقول ، وأحسست قلبي يخفق في عنف وكدت أهمس لها قائلا : « أتعلمين أني أحبك كما لا يستطيع أحد أن يحب ؟ » ·

ولكنني سمعت نفسي أناديها بصوت متهدج : مني !

وبعد أن نطقت باسمها ارتبكت ولم أعرف ماذا أقول لها بعد هذا .

وشعرت أنها انكمشت قليلا وهي تنظر نحوى ·

وكان وجهي يتقد في ارتباكي ولكن نظراتها الصريحة الصافية كانت تتنفس بالسلام والثقة ، وكان وجهها الخالي من كل زينة مصطنعة يشبه طلعة الفجر في بواكير الصيف ، فامتزج ما في قلبي من الحب العميق الغامر بشعور آخر من الاحترام والرحمة القوية الغامرة ، وصار أبعد شيء مني أن أقول لها كلمة تسبب لها حرجا ، ولم يبق عندي أثر من الارتباك عندما قلت لها :

— عندي سؤال سخيف فأرجو عفوك ، ولك أن تمتنعي عن الاجابة ·

فقالت في بساطة : وماذا يمنعني ؟

فقلت في همسة : هل لي أن أسألك عن نفسك ؟ أأنت سعيدة ؟ اقصد هل أنت سعيدة بهذه الخطبة ؟

فقالت بغير تردد : لم أفكر في هذا ·

فقلت في دفعة : في مستقبلك ؟ في شركة حياتك ؟ أهذا غير جدير بالتفكير ؟

فقالت : ثق أني لم أفكر في هذا · كنت في حياة أبي أرى الدنيا كلها من خلال شخصه · وكان وجودي كله منطويا في وجوده · ولما فقدته فجأة ذهلت عن كل شيء حتى عن نفسي · وهذه العاصفة التي تعرفها ، متى كنت أجد فراغا للتفكير في أي شيء ؟

فقلت في عناد : عندك فكرة عامة على الأقل · أرجو ألا يكون سؤالي تطفلا ·

فقالت في حرارة : بل اني أشكرك على اهتمامك وكنت دائما واثقة في صداقتك ·

وشعرت بأن النسيم يحمل الى صدرى اكسير السعادة وقلت فى مرح :

ــ هذه الحارة تشهد بصداقتى القديمة ، أليس كذلك ؟

أتذكرين يا منى طفولتك هنا ؟ أما تذكرين سوى أن هذه الحارة كانت فسيحة ·

فتبسمت قائلة :

ــ أذكر أشياء كثيرة · بائعه الفول التى كنت أقلد نداءها ، والشحاذ الأسود الذى كنت أفزع منه ، وجحش عم اسماعيل الذى كان يأكل الخس من يدى ، والرجل الذى كان يصور لنا تماثيل العرائس والخيل من الحلاوة العنبر ·

واضفت قائلا : وسيد زهير الذى كان يحسن الصهيل ·

فضحكت ضحكة خجلى وقالت : وينزلق فى يوم المطر حتى نقع معا فى بركة الطين ·

فشاركتها الضحك قائلا : لأنك رفضت أن أجرى على مهلى ، وهززت رجليك بعنف فوق صدرى لأجرى ·

وجاءت منيرة فى تلك اللحظة فقالت :

ــ أريد أن أشارك فى الفكاهة ·

فقلت : ما تزال منى تذكر يوم وقعنا فى بركة الطين وأنا أجرى بها كالحصان ·

فقالت : ووقفت أنا على الرصيف أبكى معكما · مالكما تقفان هكذا بفنجانين فارغين ؟ اذن لماذا تعبت فى صنع هذه الفطائر ؟

فسرنا الى الركن وأخذت منيرة توزع علينا أصنافها ولا أدرى أكانت فى الحقيقة ممتازة أم كانت سعادتى تجعلنى ألذ كل شىء حولى · كان ضوء القمر بديعا ورفيف النسيم منعشا وكل ما تذوق شهيا · وكان الحديث فوق هذا كله فكها ممتعا بفضل حضور منى واشارات أختى وخفة روحها ·

وكانت الساعة التاسعة عندما استأذنت منى للعودة الى منزلها ، وأصرت فى هذه المرة على النزول بعد تساهلها فى عدة محاولات سابقة ·

ونزلت لأسير معها حتى نركب . وكانت عربتها واقفة عند رأس الحارة على مقربة من ضريح أبي طاقية ، وكان الطريق لحسن حظنا جافا على غير عادة ·

ومددت ذراعى لها لتستند عليها ، وأخذت كفها فى يدى وضغطت ساعدها الى صدرى عند قلبى ·

وقلت لها : أكون أسعد الناس يا منى اذا وعدت أن أكون دائما صديقك القديم ·

فقالت في بساطة : وهل أنت فى حاجة الى وعد جديد ؟ لا فضل لى اذا قررت هذه الحقيقة ·

فقلت بصوت متهدج : وما يترتب عليه ؟

فقالت متهانفة بضحكة صغيرة : أن تزورنا مثلا كلما كنت هنا ؛ لا تنس أنت ·

فقلت في حرارة : هذا واجبى أنا ، أو حقى أنا · وأما واجبك أنت أو حقك فهو أن تفترضى دائما أنى واقف الى جنبك ·

تعرفين عنوانى طبعا اذا جد ما يدعو الى وجودى هنا · وأما أنا فعنوانك هناك أبعث اليه رسالات في الصباح والمساء وفى كل ساعة من ساعات الأيام ·

وأشرت الى السماء الصافية فى ضوء البدر الكامل · وكنا قد وصلنا الى الشارع فتركت مني ذراعى وركبت عربتها وعدت الى بيتى كأنى أسبح فوق الهواء · لم تقل لى شيئا صريحا عن خطبة محمود خلف ، ولكنها كانت عندها أمرا غير جدير بأن نفكر فيه · ألا يكفينى هذا ؟ ألا يكفينى أنها تركت يدها فى يدى كل هذه المسافة بين البيت والشارع ؟ ألا يكفينى أنها دعتنى الى زيارتها كلما عدت الى دمنهور ؟ ها هو ذا غرض نبيل أعيش من أجله اذا أردت أن يكون لحياتى مقصد نبيل ، لأنه هو الذى يجعلنى أقدم على كل عمل نبيل · سأعيش لها ·

- ٢٤ -

عدت في الصباح التالى الى القاهرة وذهبت قصدا الى دار الجريدة ، وقبل أن أفرغ من كتابة المقالة النارية التى كنت أكتبها سمعت طرقا على الباب وكانت دهشتى عظيمة عندما رأيت أمامى حمادة الأصفر ٠

ـ « ماذا جاء بك الى هنا ؟ » ٠

هذا ما صحت به في عنف يشبه التهديد ٠

ودخل حمادة الأصفر مبتسما وعيناه تلمعان لمعانا شديدا ، ولكنه كان شخصا آخر غير الذى عرفته ٠ كان يلبس ثوبا صوفيا نظيفا فاخرا مما يسميه أهل دمنهور بال (بنش) ويبدو من فتحة صدره (قفطان) من الحرير ، وتتدلى من كتفه (كوفية) ذات شراريب طويلة ، وعلى رأسه طربوش نظيف ، وفى يده منشة من الشعر الأسود ذات مقبض من العاج ٠

ولم أشك في أن هذا المظهر الأنيق ثمرة للسرقة التى أعرفها ٠ ولم يجبنى على صيحتى الا بتلك الابتســامة الجامدة ، وذهب الى أقرب كرسى فجلس عليه هادئا كأنه يقول لى : « لست أعبأ بك » فكدت أنفجر من الغيظ ودفعت الكرسى الذى أنا عليه الى الوراء وقمت واقفا وقلق فى حنق :

ـ من أذن لك أن تدخل عندى ؟

فقال بصوت هادىء :

ـ هذا لقاء الضيف يا سيد أفندى ؟ يا أخى لست شحاذا حتى تطردنى هكذا ٠ أهذا جزائى لأنى حضرت الى القاهرة فى الدرجة الأولى لأبحث عنك ، وكل يوم جنيه أجرة تاكسى أدور فى كل مكان ثم أذهب الى غرفتك فأبقى فى انتظارك الى نصف الليل ثم أنام على الكنبة بدون غطاء ؟ الحمد لله لأنى لا أريد منك الاحسان ياسى السيد٠الدنيا يا أخى ساقية والقواديس العالية تفرغ والتحتانية تملأ٠قل للساعى يحضر لى قهوة ٠

وصفق ليطلب القهوة ٠

فقلت له متمالكا نفسي : ألست تخجل من مقابلتي ؟

فقال في جرأة وقحة :

ـ كل هذا من أجل المائة جنيه ؟ هذه هي يا سيدي ٠

وأخرج ظرفا فوضعه أمامي على المكتب ٠ فتهيجت وقلت :

ـ أرجو أن تذهب من هنا ، أنت لا تستحق أن أجادلك ٠

فقال غاضبا : والله لولا أني أحترمك٠٠٠يا سلام يا سيد أفندي !

ودخل الساعي فوضع الفنجان أمامه وخرج ، وأتاح لي فرصة قصيرة للتفكير في هذا الوغد وأحسن الطرق في صرفه عني بغير أن أفسد على نفسي هدوءها منذ الصباح ٠

وقلت له : اسمع يا حمادة ٠ لا أرى داعيا لهذا الحديث ، ولست أملك وقتي فأرجو أن ينتهي هذا الموقف بسلام ٠ أنت تعرف ماذا كان شعوري نحوك من قبل وماذا يكون شعوري الآن بعـد أن حـدث منك ما حدث ٠ أنت رجل ؟ أنت انسان ؟ ٠٠٠ لا داعي لكثرة الكـلام لأني لا أرى فيه فائدة ـ ليس بيننا ما يدعو للعتاب ولا للمناقشة ٠ وليس يخفى على أنك ما شاء الله أصبحت في نعمة عظيمة ، فتفضل في طريقك أنت من هنا وأنا من هناك ولا أظن أحدنا في حاجة الى لقاء الآخر فيما بعـد ٠

ولكن حمادة لم يزد على أن وسع ابتسامته ونظر نحوي ثابتا وفي نظرته ما يقرب من العطف والتوسل ٠

فقلت له : أحب أن أعرف كيف تجرؤ على مقابلتي مع علمك أنك نصاب محتال مجرم ؟ ليس لي الا طلب واحـد وهو ألا تضـيع وقتي ٠ لا داعي لكل هذا اللف والدوران لتغطي الموضوع ٠

فعبس لأول مرة وقال في تحد : أغطي الموضوع ؟

فقلت في دفعة : ألم أنتزع منك ورقة الزواج ؟ وأدفع لك ثمنها ؟

فهز رأسه باسما وقال : طيب !

فقلت في غيظ : كيف اذن تعود لتطلب الثمن من الفتاة المسكينة مني ؟ لو عرفت أن مكرك يبلغ الى هذا الحد لكنت بقيت في دمنهـور لأوقفك عند حدك ٠

فضحك ساخرا وقال : الحمد لله يا سي سيد ! لا يوجد في الدنيا رجل آخر يمكنه أن يوقفني عند حدي ٠

فقلت : هذا الأبله الأحمق يدفع لك عشرة آلاف جنيه من مال الفتاة المسكينة ؟ سرقة ونصب واحتيال !

فصاح : حيلك ! عشرة آلاف جنيـــه ؟ أى لص وأى نصـــاب قال هذا ؟

فقلت في حنق ؟ هل تنكر ؟ هل تجـــرؤ ؟ هذه الملابس وهذه المظاهر والدرجة الأولى فى السكة الحديدية وتاكسى وكل يوم كم جنيه . كل هذا وتقول انك لم تسرق ؟

فضحك ضحكة طويلة سمعتها كأنى أسمع ضحكة شيطان ، وكدت أقوم اليه فأقذف به من الباب. ولكنه نظر الى ثابتا وقال : الله يسامحك يا سيد أفنـــدى .

اسمع يا سى سيد حكاية ظريفة والله . بعد مقابلتنا فى الليلة اياها جاء لى مصطفى عجوة يدعونى لمقابلة محمد باشا خلف ، فذهبت .

والسلام عليكم عليكم السلام اتفضـــل ياسى حمادة وهات قهوة يا ولد ! وكيف الأحوال ؟ والظـــرف والأدب . وقال لى : اســـــمع يا حمادة أنت رجل نبيه وعظيم وأحب أن تشتغل عندى » .

وبدأت أستمع اليه فى شغف وبدأت أشم رائحة مكيدة .

وبعد لحظة صمت استمر حمادة قائلا : أقول لك الحق لعب الفار فى عبى وقلت له : « خدامك يا باشا » ولكنى قلت لنفسى : « خد بالك يا حمادة » !

وعرض على مرتب عشرين جنيها فى الشهر مرة واحدة . قلت فى نفسى « عجيبـــة ! » وحسبت أنه يريد منى مساعدته فى الانتخاب ، لكنى أردت معرفة قرار الحكاية وأظهرت الامتناع . وبدلا من اصراره على العشرين زادها الى ثلاثين مرة واحدة . قلت بس . لابد أن الحكاية فيها لعبـــة .

وملت على مصطفى عجوة وسألتـه عنك ، ولكنـه هز لى رأسه . فى النهاية قلت لابد أن الباشا لا يعرف حكاية العقد وأنك أخذته منى قلت فى عقلى : « فرصة يا سيدنا الباشا ! » وقلت له : « أرجو مهلة الى ساعة الظهر » . وخرجت أجرى الى بيتك وقابلت عم عبد الهادى الزيات على باب الحارة ، وسألته عنك . قال لى انك سافرت فى الصباح وسلمت عليه من بعيد وقال لك مع السلامة يابو زهير بالأمارة . وعنها ورجعت أجرى للباشا ودخلت عليه كأنى مجنون. وقلت له : « اسمع يا باشا ! أنت تعرف أنى أنا حمادة الأصفر لا أخاف ولا أخجل ولا أحد يخدعنى . من قال لك انى حمار أو مغفل حتى تضحك على فى كل شهر بثلاثين جنيها ؟ الورقة عندى والمحاكم موجودة وأعرف شغلى ! » وأدرت له ظهرى لأنصرف. فقام الباشا وأخذ يلاطفنى وأمر الجميع بالانصراف ورد باب الغرفة علينا

وبدأ يفاوضني · النهاية من هنا لهنا اتفقنا على ألف جنيه يقدمها الى بصفة أمانة أكتب بها ورقة أعترف بأنها أمانة لشراء أقطان . ووعد بأن يشترى الأقطان منى بالسعر الحاضر ، والمكسب لى لغاية شهر ديسمبر · وأنت تعرف الحظ اذا ابتسم يابو زهير · فى الصبح بسبعين ريال وفى المساء بثمانين ريال وبكره بتسعين ريال ، النهاية فى مدة شهرين يا عم سيد الألف وصلت الى عشرة وأرجعت له الألف ، ومزعنا المستند ورجعت الى السوق من جديد ـ حمادة أفندى وسى حمادة وحمادة بك · ولو كنت تتنازل وتزور مكتبى يا سيد بيه يكون أكبر شرف · عشرة آلاف جنيه ؟ أنا أسرقها من محمد خلف ؟ محمد خلف بن عم خلف المنجد ، كل ثروته من سرقة الأيتام والأرامل والأمراء المعتوهين ، الاختصاصى فى نظارة الاوقاف وايجارات الأملاك أنا أسرقه ؟ لو كنت أعرف السرقة يا سيد أفندى كنت أشبع وأكتسى على الأقل ولا أخدم اللئام ولا أنافق ولا أشرب الزفت ولا أرتمى على أكوام الطين ، لو كنت أعرف السرقة والنصب ما كنت أجرى بسرعة للموت وأتمنى يومه · قل لى : دون ، قل لى : حقير ، قل لى : حشرة ، أصدق · لكن لص ؟ لا · لع ! أبدا · حمادة القذر الجائع العارى هو جسم حمادة ـ العظم واللحم والدم · ينافق ليأكل ويشحذ ليأكل ·

ويتذلل ليجد السقف فى الليل ، ويرضى بالاهانة من أجل القلب الجائع ، ولكن من تحت حمادة الجسم يوجد حمادة الصحيح ـ ولو كنت طاوعت دفعتى فى هذه اللحظة لقمت اليه وأخذته بين حمادة الحقيقى ـ لا يرضى أن يسرق أبدا · ذراعى وقبلته بين عينيه المتقدتين كعينى الذئب · ولكنى نظرت اليه كما أنظر الى جدول الماء الصافى الذى يخرج من عملية تحليل مواد المجارى فى مزرعة الجبل الأصفر · ماء رائق يتلألأ فى نور الشمس ولكن النفس تعافه لأنها تعرف أصله ·

وقلت لحمادة مخلصا :

ـ أنا آسف يا حمادة لأنى ظلمتك ، مع السلامة ·

وقام حمادة لينصرف ولكنه وقف حينا فى تردد ثم ضحك قائلا :

ـ بالله عليك صارحنى بكلمة ـ لا أحب أن أزاحمك يا أستاذ سيد ، أريد أن تقول بالصراحة · ما شعورك من جهة فطومة ؟

وفاجأنى سؤاله فقلت فى حدة :

ـ أما تنسى هذا الهراء ؟ متى عرفتها ؟

فقال في حماســـه :

ـ لما طرقت الباب نزلت لى فطومة ـ الله يا سيد أفندى · والله عمرى ما رأيت عينين تشبه عينيها ، سألتها عن اسمها · وكان صوتها مثل الكروان الله يا أستاذ سيد صارحنى ·

فقلت في اختصار : قلت لك لا داعى لهذا السخف · اذا كانت عجبتك فتلفع بها وتفضل ·

فهز يدى مرة أخرى قائلا :

ـ طيب يا سيد أفندى · تلفيعة حرير والله العظيم · ما رأيك فى ان تقدمنى للشيخ مصطفى حسنين ؟

ومع أنى كنت أعرف أن حمادة اذا رأى امرأة حسناء صار كالذبابة اذا اندفعت الى طبق من العسل ، فانى دهشت لأنه تدله بفطومة فى مثل هذه السرعة · ولكنى شعرت بارتياح داخلى لست أدرى سببه ·

وقلــت له :

ـ يسرنى أن أفعل اذا مررت على بعد أن أفرغ من عملى · الى اللقاء الآن يا حمـــادة ·

وعندما خرج من عندى وضعت يدى على رأسى وغرقت فى أفكارى · أهذا هو الباشا الذى يريد أن يتكلم باسم الأمة ويحاسب الوزراء ؟ أهذا هو الذى يريد أن ينتزع منى لينجر بأموالها كما يتجر النخاس بالرقيق ؟ وقمت ثائرا أتمشى فى غرفتى وأسأل نفسى كيف أضرب ضربتى · مالى أكتب فى الفراغ وهذا الوغد يستحق أن يشنق ؟

ودخل على الساعى فى هذه اللحظة يطلب منى المقال الذى لم أفرغ منه بعد ، فاستمهلته قليلا وعدت الى مكتبى وبدأت أقرؤه مرة أخرى · كنت فى أول الأمر أحسبه مقالا شديدا يعجب الأستاذ على مختار ويهنئنى عليه ، ولكنه بدا لى فاترا سخيفا لا يحمل معنى · ولم أفكر مرتين قبل أن أجمع أوراقه وأمزقها قطعا صغيرة ثم أرمى بها فى سلة المهملات · وبدأت أكتب مقالا جديدا عنوانه « هكذا يكون الباشا » · وفى نصف ساعة كنت قد أتممته ووقعته بامضائى وأخذت أقرؤه مرة أخرى · لم أذكر اسم الباشا ولكن أوصافه كانت بغير شك تشير اليه ، ولولا علمى بأن الأستاذ على مختار لا يحب أن يهاجم الأشخاص مهاجمة شخصية لكنت حددته بالاسم ، ولكنى ميزته حتى لا يخطىء أحد فى معرفته ·

- ٢٥ -

لم أعجب عندما دعيت فى اليوم التالى الى نيابة الصحافة لانى صرت منذ حين أحد نجوم الجرائم الصحفية · وكان موضوع التحقيق كالعادة مزيجا من تهم متعددة جاء فى صدرها بالطبع ذكر العهد وماذا أقصد به ودراسة فقهية طويلة لما جرى به العرف من اطلاق لفظ العهد على الملوك وحدهم · ودافعت عن نفسى قائلا كالعادة أيضا اننا فى بلد دستورى لا يتحمل فيه الملك مسئولية الحكم،فالعهد لايمكن أن يكون الا للحكومة القائمة · فانتقـل الحوار الى تهمة الطعن فى الحكومة والتحريض على كراهية النظام وانتقلت بدفاعى أيضـا الى ذكر البراهين التى تدل على فساد الحكم حتى رأى المحقق الاكتفـاء بأول برهانين ورفض أن يثبت البراهين الأخرى التى هممت بأن أذكرها · ثم وجه الى الطعنة الأخيرة التى حسبها القاضية وذلك عندما سألنى من تقصد بالباشا الأبله ـ الباشا اللص الذى جمع ثروته من سرقة الأيتام والأرامـل والأمراء المعتوهين والذى تخصص فى نظارة الاوقاف وايجار الأملاك وسرقة اليتامى ؟

وشعرت بكثير من الحيرة فى البحث عن طريقة أتحاشى بها اقحام شخص خلف باشا ، اذ لا علاقة له بالحكم ، فأخذت أبين أننى لا أقصد الا المعنى العام الذى يشعر به الجميع وهو أن السـادة أصبحوا من الحثالة · فوجد المحقق فرصته وأخذ بتلابيبى ·

واستمر التحقيق طول اليوم الى أن دار رأسى من التعب وعرض المحقق على كل ما كتبته من قبل فى الأعداد السابقة ، وما زال يضيق على الخناق حتى قذفنى آخر الأمر بالتعريف الجامع المانع للعيب فى الذات الملكيـة ·

فقـرأ :

« العيب فى الذات الملكيـة هو ذلك الشىء الذى يمس من قريب أو بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تصريحا أو تلميحا تلك الذات » ·

فضحكت قائلا : تعريف جميل يصلح لأن يكون شركا رائعـا !

وكان جوابه على ذلك أن قال : تستطيع أن تستريح الآن حتى تستانف التحقيق فيما بعد ·

فقلت محتجا :

ـ ما معنى هذا ؟

فقال : الأمر بسيط يا سيدى · ستبقى تحت التحفظ حتى يتم التحقيق · .

فصحت فى حنق : أين نحن ياسيدى المحقق ؟ رجل يستدعى فى الصباح لكى يقال له فى هذه الساعة أن ينتظر محجوزا حتى يتم التحقيق ؟

فنظر الى باسما كأن الأمر لا يستحق منه الا ابتسامة ثم قال : لك طبعا أن تطلب ما تشاء من البيت ، واذا شئت فلك أن تتصل تليفونيا بمنزلك أو بادارة الجريدة ·

ونظرت اليه فى حقد وكانت ابتسامته ما تزال تثير غيظى ، وتمثلت لى صورة غرفتى التى يمكن أن أتصل بها تليفونيا لأستحضر منها ما أشاء · ثم تذكرت الأستاذ على مختار وجعلت أسأل نفسى : « ألا يعرف أنى هنا ؟ هكذا يتركنى لشأنى كأننى لا أستحق أن يقف الى جانبى ؟ » ·

وقلت للمحقق فى حنق : لست فى حاجة الى شىء ·

فرفع كتفيه قائلا : هذا شأنك · ولم أقل له شيئا سوى نظرة غاضبة وهو يهمس الى الشرطى الذى دخل الى الغرفة فى تلك اللحظة · فحيا الشرطى صادعا بالأمر وأخذ منه الورقة التى مد بها يده اليه وأخذنى من ذراعى خارجا بى من باب الغرفة الى حيث لا أدرى ·

وسرت معه وقلبى يغلى غليانا شديدا من الشعور بأنى أمام قوة جبارة لا تتمثل فى شخص بعينه حتى أتمكن من الدفاع عن حريتى أمامها ·

كان الشرطى يقبض على ذراعى فى شىء من الترفق ، ولكنى كنت أحس أننى لا أقدر على الانفلات منه أو مقاومته · ولأول مرة شعرت أن هناك شيئا هائلا مجردا عن الأشخاص والهيئات اسمه الدولة · هى التى تجرنى من ذراعى الى حيث تشاء ولا أستطيع أنا أو غيرى من الأفراد أن يقاوم قوتها ، ولم يكن فى وسعى أن أحنق على ذلك الشرطى ، الذى يجرنى من ذراعى لأنه كان يؤدى واجبه بغير أن يكون بينى وبينه ما يدعو الى الخصومة أو الكراهة · ومن يدرى لعل هذا الشرطى كان يعطف على فى قرارة نفسه ؟ لقد كان فيما يظهر لى رجلا طيبا وكانت نظرته نحوى معذبة وديعة تنطق قائلة : « أنا آسف ولكن ما حيلتى ؟ » ·

بل انه أظهر عطفه على عندما مال نحوى هامسا : « أتحب أن تشترى شيئا ؟ » ·

فاجبته قائلا : « أشكرك » .

وكانت عربة مغلقة تنتظر عند الباب الخلفى للمبنى ، فركبتها وأغلق الشرطى الباب . وسارت العربة فى طريقها وأنا منطو على نفسى ، حتى وقفت آخر الامر ونزل منها الشرطى ليأخذنى من ذراعى . وعرفت عند ذلك أنى داخل الى قسم عابدين . حسنا !

ودخلنا الى غرفة الضابط فحياه الشرطى ومد اليه يده بالورقة التى معه ، فقرأها الضابط وأشار بيده نحو غرفة بغير أن يقول كلمة سوى أنه نظر نحوى نظرة فاحصة من أعلى رأسى الى آخر ما يستطيع أن يرى منى وأنا واقف وراء مكتبه . ولم أجد ضرورة لاجابته بنظرة غاضبة لأنى شعرت بما يشبه الاستعلاء عن الاهتمام بالأفراد . مالى وهؤلاء جميعا ؟ انهم يأتمرون بأمر آلة ضخمة لا يملكون لى معها ولا لأنفسهم شيئا .

وأدخلت الى غرفة فيها مكتب صـــغير واحد ليس فيها شىء غيره من الأثاث . وتركنى الشرطى فيها وأغلق بابها ولا أدرى أذهب الى سبيله أم بقى واقفا خارجها . ونظرت الى ساعتى وكنت لم أفطن الى النظر اليها من قبل فوجدتها الساعة الرابعة بعد الظهر . يا سلام ! لم أفطر فى الصباح ولم أطعم شيئا طول النهار ، ومع هذا لم أجد فراغا للاهتمام بطلب الغداء . وهجم على الشعور بالجوع وشعرت بأنى ضعيف لا اكاد أقوى على الوقوف ، فجلست على ظهر المكتب وكانت النافذة التى ورائى على خلف مبنى القسم ، وأستطيع أن أرى منها المتاجر من بعيد . فغيرت موضعى حتى أقدر على النظـر الى الخارج لأشعر بشىء من الائتناس ، وسألت نفسى ألا يمكن أن أشترى شيئا آكله ؟ ونزلت مسرعا عن المكتب فحاولت فتح الباب ولكنى وجدته مغلقا بالمفتاح . فخبطت عليه بيدى فلم يلبث أن فتح ورأيت على بابه شرطيا من جنود القسم . وهز رأسه الى مستفهما فقلت له فى هدوء :

ـ ألا يمكن أن أشترى طعاما ؟

فقال بغير اهتمام :

ـ اسأل حضرة الضابط .

فقلت فى شىء من الغضب :

ـ وأين هو ؟

فأغلق الباب قائلا : سأسأله .

وكدت أثب لأمنعه من اغلاق الباب بالمفتاح ولكنه سبقنى فأغلقه ، وعدت الى المكتب فوثبت جالسا فوق ظهره وجلست أنظر الى المارة من بعيد وهم يتحركون فى اتجاهات شتى · شاب يركب دراجة فى وسط الطريق ويمر بخفة بين السيارات وهو يتلفت يمينا ويسارا كأنه بهلوان فى سيرك · ما أمهره فى الركوب وما أشد مخاطرته ! كأنى به يستهين بحياته أو يتمتع بشعور المخاطرة · ولم يخاطر الناس بحياتهم فى كل شيء ؟ ان المخاطرة تبعث الى النفوس نشوة النجاة دائما فتكون الحياة كلها حية مثيرة الى أن يحين القضاء المحتوم · الرقابة تحيل الحياة الى سجن مثل هذه الغرفة التى أنا فيهـا · ولكن اذا كان هؤلاء الفتيـــان الذين يحاورون السيارات فى الطرق من فوق دراجاتهم لا يريدون بعملهم هذا الا أن يشعروا بأنهم يقومون بمغامرة فلماذا أغضب أنا من أنى أواجه مغامرتى ؟

ومضى على وقت طويل وأنا أتأمل وجوه المارة فى الطريق وأقرأ على كل منها المعنى الذى تدل عليه مظاهرهم ، فمنهم من يسير مسترخيا كأنه يحلم ، ومنهم من يسرع كأنه يريد أن يدرك قطارا على وشك السير ، ومنهم من كان لا يريد أكثر من التلفت الى وجوه الآخرين ·

وكان مما استرعى نظرى أيضا طفلان : صبى وفتاة لا يزيد عمرهما على العاشرة ، وكانا يقطعان الطريق ذهابا وايابا ويعبرانه من جانب الى جانب كأنهما قطان ضالان · وكان كل منهما يحمل فى يده علبة من الصفيح معلقة فى ساعده بخيط ، فما يكاد يرى (عقب) سيجارة يسقط على الأرض حتى يهبط اليه كأنه صقر · وجعلت أتأمل وجهيهما وأتصور ما يكون شكلهما اذا زال الوســخ عن وجهيهما ولبسا ثيــابا غير الخرق الممزقة التى ترف فوق جسديهما النحيلين ، ولم أشك فى أنهما يكونان ظريفين رشيقين لو أكلا ولبسا كما يفعل الآدميون · ولكن أحقا يتغيران اذا غسل عنهما الوسخ ؟ هل يمكن أن يتحولا الى طفلين ظريفين ؟ وكيف يمكن أن تزال الأوساخ التى تسربت الى أعماقهما ؟

وانقبض صدرى عندما تمثلت الألوف الكثيرة التى وقع عليهـــا بصرى فى كل مكان من هؤلاء الأطفال ، وسألت نفسى كيف نستطيع أن نتمتع بالطعام والشراب ، وكيف نطمئن فى بيوتنا ومع أفراد أسراتنا وهناك ألوف من هؤلاء المساكين يسيرون هكذا كالقطط الضالة ؟ وقطع على تفكيرى فتح باب الغرفة ، ورأيت الشرطى الذى جاء بى الى القسم وسمعته يسألنى : أما تريد شيئا ؟

فشـــكرته من أعماق قلبي وقلت له « هل تتكرم بأن تشترى لى رغيفا من الخبز وأى شيء يؤكل معه ؟ » ومددت يدى اليه بنصف ريال ٠ ثم نظرت الى ســاعتى وكانت ما تزال الخامســة ٠ كل هذا الوقت ساعة واحدة منذ دخلت فى الغرفة ؟ ان الذين يقيسون الوقت بالساعة لم يدخلوا الى مثل هذه الغرفة ليسجنوا بها ٠ أليس الزمن خرافة من تأليف العقل البشرى كما قال صاحبى عبد الحميد عباد ؟

وذهب فكرى الى دمنهور ومرت بذهنى صور كثيرة ٠ يا ترى كيف حال أمى وأختى ؟ والحمد لله على أنهما لا تعلمان أنى هنا ٠ ومنى ؟ هل تبلغها تحياتى التى أبعثها اليها كل صباح وكل مساء مع اشراق الشمس وطلوع النجم ؟ لابد لى من أن أسافر اليها غدا أو بعد غد اذا فرغت من هذا التحقيق السخيف ٠ ولن أنسى غدا اذا قابلت الأستاذ على مختار أن أعتب عليه عتبا شديدا لأنه لم يعبأ بالحضور ليقف الى جانبى أو قريبا منى ، بل انه لم يعبأ أن يرسل سكرتيره ليسأل عنى ٠

وفتح الباب مرة أخرى ودخل شرطى جديد لم أره من قبل فقال لى بصوت جامد :

ـ تعال يا أفندى ٠

ولم أجد ضرورة لسؤاله عن قصده فسرت وراءه قائلا فى نفسى : « هذا شيء طبيعى لأنى لا يمكن أن أقضى الليلة كلها هنا » ٠

وســار بى حتى وقف عند باب غــرفة أخرى على بعـد نحو خمس خطوات فتحها قائلا : تفضل هنا !

وظننت طبعا أنها غرفة أعدت لنومى ، فدخلتها مرتاحا ولم أفطن الى أن الرجل سيغلق الباب ورائى بهذه السرعة ٠ وما كاد الباب يغلق حتى رأيت انى فى غرفة مظلمة ضيقة لا تزيد سعتها على مترين فى ثلاثة وسقفها لا يعلو أكثر من ثلاثة أمتار ٠ وكانت حجرة قذرة الجـدران والأرض ، عارية ليس بها شيء سوى كرسى نصف محطم وبرش قذر ونافذة صغيرة لا أستطيع أن أصل اليها الا اذا مددت طرف يدى ٠

« وماذا أفعل هنا ؟ » هكذا قلت فى سرى وقلبى يتمزق من الغيظ ٠ وحاولت أن أجلس على الكرسى لأفكر فيما ينبغى أن أصنع ، ولكنه كاد ينهار بى فقمت غاضبا ، وقلت فى نفسى : « هل أعود الى الحماقة التى ارتكبتها فى دمنهور عندما سجنت فى الجحر المظلم فأقوم الى الباب لأدقه بيدى ورجلى ورأسى كأننى مجنون ؟ » كانت الغرفة الأخرى على الأقل تؤنسنى بنافذتها المطلة على الطريق ، وأستطيع أن أجلس على المكتب

الذى فيها · وشعرت بلسعة فى أسفل ساقى فملت لأتحسس موضعها فلمست يدى شيئا حسبته برغوثا فرفعته الى كفى فى حذر خوف أن يهرب منى ، فاذا هى قملة طويلة تعجبت كيف تصل الى مثل هذا الحجم · ورميت بها بعيدا فى اشمئزاز وأخذت أخبط الباب فى عنف ، ولكنى شعرت بلسعة أخرى فكدت أفقد صوابى ، وخيل الى أن البرش الذى هناك عش عامر بالقمل ، وشعرت كأن بدنى كله يلسعنى وكأن فى كل قيراط منه دبيب قملة · وفزع الشرطى على ما يظهر من الدق العنيف ففتح الباب واستقبلنى قائلا :

ـ مالك يا أفندى ؟

وكان كل همى أن أنفذ من الباب فاندفعت خارجا وقلت بعد أن صرت فى الممر :

ـ أهذه غرفة تعذيب من صنف جديد ؟

وعند ذلك تبينت أن الشرطى كان صاحبى ، وقد جاء يحمل فى يديه أوراقا ملفوفة ·

فقلت له وأنا أكثر هدوءا : أهذه غرفة نوم يا أخى ؟ ادخل اليها دقيقة واحدة لتعرف أنها عش قمل ·

فقال فى سذاجة : الحاضر يا سيدى · وأين تنام اذن ؟

فلم أملك نفسى من الضحك مع شدة غيظى وقلت له :

ـ شكرا لك على كرمك وأرجوك ألا تفكر فى أمر نومى · سأقضى الليل واقفا فى الغرفة الأخرى ، ويمكننى أن أنام فوق المكتب اذا شئت· خل هذه الغرفة لضيف آخر يحتاج اليها ·

والظاهر أن الفكاهة أعجبته فضحك قائلا :

ـ أمرك يا سـيدى ·

وأخذنى من ذراعى الى الغرفة التى كنت فيها قائلا :

ـ رغيف أفرنجى وجبن رومى وخيار أخضر ـ الكل ستة قروش·

ومد يده بالقروش الباقية من نصف الريال فأشرت اليه أنها له · فتبسم راضيا ووضع الطعام على المكتب ثم قال :

ـ تصبح على خير ·

واغلق الباب وراءه وتركنى أحاول أن أفكر فى خطة لقضاء الليلة .

فجررت المكتب قريبا من النافذة وجلست عليه وبدأت آكل ، وكنت مع كل ضيقى أحس جوعا شديدا ، وكانت شهوتى للطعام عظيمة حتى أكلت الرغيف وأخذت أقشر الخيار لأستغنى به عن الماء والفاكهة ·

وكان من حسن حظى أن الغرفة تحتوى على مصـــباح كهربائى صغير ، فكان نوره مساعدا للضوء المنبعث من الطريق فى ازالة كثير من الوحشة التى كانت تخيم على صـــدرى · وأخرجت من جيبى قصـــة انجليزية مما تعودت أن أحمله معى دائما لأقطع به الوقت فى الساعات التى كنت أضطر لقضائها فى غرف الانتظار فى جولاتى لتلقف الأخبار ، وكانت فى تلك الليلة لقية نفيسة · وشغلتنى القراءة فيها عن التفكير فى متاعبى ، وهى قصة لأحد الكتاب الشبان يصور فتاة مثل الفتاة التى رأيتها تجمع أعقاب السجاير من الطريق · وكان من سوء حظها أنهـــا كبرت وصارت حسبناء فاستطاعت أن تصبح خليلة ثم راقصة ، ثم اجتذبت قلب أحد الشباب المنعمين وكان من سوء حظها أنها أحبته · فألفت لها الأقدار مأساة وألقت بنفسها الى النيل من العوامة التى كانت تعيش فيها · هل تستطيع هذه الطفلة المسكينة أيضا ، تلك التى رأيتها من النافذة أن تسترعى نظر الأقدار ؟

وأخذت عينى تثقل للنوم فخلعت سترتى وجعلتهـــا تحت رأسى ونمت فوق المكتب جامعا ركبتى الى قرب صدرى ·

٢٦

صحوت متعبا الى حد الاعياء في الصباح ، وكانت الساعة السادسة. فجلست على المكتب خائرا وكان رأسى مصدعا ثقيلا ومفاصلى وأضلاعى تنبض بالألم . وقمت أترنح الى الباب فدققته دقتين حتى انفتح وكان الذى صبحنى بوجهه شرطيا عابسا أصفر الوجه كأنه هو الآخر قضى ليلة مثل ليلتى .

وسألته : أأستطيع أن أغسل وجهى ؟

فأشار بيده الى بغير أن يتكلم ، واتجه بى الى دورة الماء ووقف عند الباب ينتظرنى ، وكانت النوافذ هناك محصنة بقضبان حديدية متينة هى الأخـــرى .

وشعرت بشىء من الانتعاش بعد أن غسلت وجهى بالماء البـــارد وتمنيت لو أمكننى أن أتوضأ لأصلى فريضة الصبح التى تعودتهـــا منذ صغرى ، ولكن كيف أخلع ملابسى وحذائى وأين أضعها ؟ وهل أتوضأ ثم أسير حافيا الى الغرفة على الأرض التى كنت لا أقدر على تمييز لونها من الطين الذى فوقها ؟ فاكتفيت بأن جففت وجهى فى منديلى وعدت فى حراسة الشرطى الى مقعدى فوق المكتب . وكانت المتاجر ما تزال مغلقة والطريق خاليا وكل شىء هادئا تحت أنفاس الصباح الرطبة ، فلم أجد شيئا يشغلنى عن الهواجس العنيفة التى انفردت بى . ولهذا مرت على ساعة كانت من أطول ما مر بى فى حياتى . ثم بدأت الحركة تدب شيئا فشيئا فى الطريق ، وكان من أول من ظهر لى هذان الطفلان البائسان اللذان رأينهما بالأمس ، وكانا يسرعان من رصيف الى آخـر كعصفورين جائعين يلتقطان رزقهما فى الصباح مع فارق واحد وهو أن العصافير تخرج عند مطلع الشمس من أوكارها التى تأوى اليها فى ساعة الغروب ، وأما هذان فليت شعرى أين قضيا ليلتهما ؟ هل هما أخ وأخته ؟ أم هما شقيان آخى بينهما الشقاء وألف بين قلبيهما ؟ أيكونان فى الحياة الواسعة وحدهما بغير ثالث ؟ وماذا يفعلان بهذه البضـاعة التى يجمعانهـــا بين الصباح والليل ؟ وهل هى تكفى لاطعام هذين المسكينين ؟

ورأيتهما يقفان من بعيد عند باب دكان فول مدمس ويتوشوشان . لست أدرى أكانا يتآمران على سرقة رغيف أم كانا يتناجيان برائحة الفول الذكية؟ وسأسأت لهما وناديت بأعلى صوتى قائلا :

ـ اسمع يا ولد ! يا بنت !

فتلفتا حولهما فى فزع ولكنهما لم يعرفا أين أنا حتى أخرجت لهما يدى من بين القضبان ، فأقبلت الفتاة نحوى مترددة وبقى الولد بعيدا ينظر اليها مترقبا . فلما صارت على الرصيف المقابل للنافذة قذفت اليها بقرشين وقعا تحت قدميها وقلت لها :

ـ اجرى افطرى وقولى لصاحب دكان الفول يبعث لى طبق فول بزيت ورغيف وسلطة . هنا فى القسم . هنا !

فتبسمت مرتاحة وهزت رأسها وأسرعت الى الصبى فأخذته معها ودخلت معه الى الدكان . وبعد قليل جاء صاحب الدكان ليسألنى عما أريد فقلت له :

ـ أنا هنا محبوس فى القسم وأريد أن أفطر . طبق فول بزيت وسلطة ورغيف .

فقال : والعســـاكر ؟

فقلت : سلم الأكل لأحدهم واتركه معه .

وقذفت اليه بقطعة فضية ذات خمسة قروش . فاقتنع وذهب .

وبعد قليل فتح الباب ودخل الشرطى العابس يأمرنى بالذهاب الى المحكمـــة .

فقلت له : لم أفطر بعد .

فقال فى جفاء : هل هنا مطعم ؟

فقلت : لا . هنا قسم بوليس . هل حضرة الضابط هنا ؟

فقال : حضرتك صاحبه ؟

فقلت : نعم ، أشكرك جدا .

وكان الشكر موجها الى صاحبى الشرطى الآخر الذى جاء فى تلك اللحظة يحمل طبق الفول والخبز والسلطة .

وقال فى بشاشـــة :

ـ صباح الخير يا سيدنا الأفندى . كنت فى العربة عندما جاء الرجل بالأكل فعرفت أنه لك . مالك يا حضرة الباشجاويش ؟ حـــرام يا رجل ! النهار طويل ولقمة الصبح تسند قلبه .

وكان فى قوله الأخير متجها الى الشرطى الآخر الذى حاول أن يمنعه من ادخال الطعام الى الغرفة .

وانصرف الشرطى العابس غاضبا ودخـل صاحبى الآخر فوضع الطعام على المكتب قائلا : تفضل .

فقلت له : بسم الله يا أخى .

فقال : بالهنا والشفا .

ومد الى يده بقرشين قائلا :

ـ بقية ربع الريال .

فتبسمت قائلا : هل أفطرت ؟

وأشرت اليه أن يأخذ القرشين .

فقال مرتاحا : الحمد لله . أشيا رضا .

وذهب خارجا وأتى الى بكوب من الصاج مملوء بالماء ، وكنت قد بدأت آكل وأنا واقف . وتبادلنا ابتسامة صغيرة قبل أن يخرج قائلا : على مهلك يا أفنـــدى !

وكانت الساعة الثامنة والنصف عندما وصلنا الى دار النيـابة ، [illegible] المكتب كان خاليا ، فجلست فى حجرة الكاتب ووقف الشرطى عند الباب يحرسنى .

وكانت الحركة والطعام قد أعادا الى نشـاطى ، وذهب ما كنت أحسه من التعب والوحشة . وبعد قليل دخل صبى المقصف ليرى هل بالغرفة أحد فطلبت منه كوبا من الشاى ورجوته أن يشترى لى علبة من السجاير لأتسلى بالتدخين .

ومهما يكن من الأمر فانى شربت ثلاثة أكواب متفرقة من الشاى بين كل منها والآخر نحو ساعة ، وأحرقت نصف علبة السجاير ولم يحضر أحد الى المكتب ، حتى صارت الساعة الحادية عشرة . ثم جاء الكاتب آخر الأمر وقال لى فى خفة :

ـ آسف لأن البيه مشغول فى قضية أخرى ولا يحضر الى هنا اليوم
فقلت متثاقلا : ومعنى هذا ؟

فقال : لا شيء · التحقيق مستمر · غدا أو بعد غد · لابد أن ينتهى على كل حال ·

ثم مد يده الى الشرطى بورقة وخرج مسرعا يتلفت فى الغرفة ويهز يده بظرف كبير يحمله · ونزلت الى العربة المعهودة فركبتها مع الشرطى ولم أعرف الى أين حتى وقفت العربة وقال الشرطى فى صوت نحاسى :

ـ تفضل يا أفندى ·

فقلت : الى أين ؟

فقال : الاستئناف !

يا خبر ! سجن الاستئناف ؟ دخلت الى ذلك السجن من قبل مره عندما ذهبت مندوبا عن الجريدة لأشهد اعدام أحد كبار المجرمين · كان منظرا لا أنساه أبدا عندما رأيت المسكين قبل أن تعصب عيناه ليصعد فوق المشنقة ، فقد كان ينظر فى فزع شديد الى الحبل المعلق الذى سيحتوى على عنقه ، وجعل يقول لمن حوله بصوت مرتعد : « اطلبوا لى الرحمة يا ناس ! » ·

فلم أطق أن أستمر فى موقفى ، اذ كان من المؤلم لى أن أرى الرجل ينهار هكذا · لو نظرت الى ذئب جريح يلفظ أنفاسه الأخيرة لما أعجبنى منه أن يمأمىء مثل الشاة مستغيثا متخاذلا ، فالأجدر به أن يموت ذئبا وحشا مستعدا للهجوم الى آخر لحظة من حياته · كنت لا أتألم هكذا لو بقى ذلك الرجل جبارا سفاكا متحديا فظيعا حتى النهاية · ولكنه صار مثل أرنب فى يد الجزار يرتعد ويطلب الدعاء بالرحمة ·

ومن ذلك اليوم اعتقدت أن سجن الاستئناف هو الذى حول هذا الجبار الى رجل منهار · ومن أجل هذا كرهته ·

فهل أنا ذاهب اليه كما يذهب اليه القتلة ؟

أأذهب اليه لأنى أكتب مقالات أترجم فيها عما أحسه ويحسه الناس من غضب على الفساد والطغيان والحكم الذى يذلنا ويسقطنا ويدنس أرواحنا ؟

ودخلنا سجن الاستئناف ، ومنذ دخلته أصبحت مثل شيء تتلقفه الأيدى ولا ارادة له · سلمنى الشرطى الى المأمور وسلمنى المأمور الى سجان ، وسار بى السجان الى الغرفة التى خصصت لى ورقمها ٢٩٨ · ومنذ اللحظة التى دخلت فيها الى الغرفة صرت رقما مجردا سابحا فى الفراغ ، فرقم ٢٩٨ يصعد الى غرفته ، ورقم ٢٩٨ يدعى الى النزول ،

ورقم ٢٩٨ يتناول طعامه·وكانت الغرفة التي دخلت فيها أحسن مما كنت أنتظر ، اذ كان فيها على الأقل سرير يمكن أن أتمدد عليه · وكانت بها نافذة عالية ذات قضبان متينة · ولم يضايقني الا سواد لون السقف والأرض ·

ولم يكن بي حاجة الى التفكير في الذهاب الى دورة المياه لأن (الجردل) كان هناك في ركن الغرفة أستطيع أن أقوم اليه لأقضي به حاجتي بغير عناء · مرحى ! لا شك في أن هذا السجن تأديب وتهذيب واصلاح كما يقولون ، ولا عجب اذا كان القاتل الجبار قد تحول فيه الى جبان رغديد !

وجلست على السرير في شبه ذهول لا أكاد أتحقق من أني أصبحت سجينا · ولا أدري كم بقيت جالسا هكذا حتى دخل على سجان ليضع لي غطاء نظيفا على السرير ، ومع كل ما داخلني من الارتياح لذلك لم أظهر له اهتماما ·

ثم جاء الرجل الى ببعض الطعام ولكنني لم أشعر بجوع فرفضت أن آكل شيئا ، وبقيت في حالتي الذاهلة حتى جاءني السجان مرة أخرى يدعوني الى طابور النزهة مع سائر أرقام عالمي · فقمت خارجا لأن ساعة أقضيها في الهواء الطلق خير من الجلوس في الغرفة المغلقة ·

ونزلت الى فناء السجن وهو لا يزيد على قطعة صغيرة من الأرض تحيط بها الجدران العالية من كل جانب وسرنا في طابور النزهة رقما وراء رقم ، وجعلنا ندور حول الفناء مرة بعد أخرى · ولاحظت أن المساجين من سائر الناس لا يستطيعون التخلي عن الكبرياء مع أنهم يعرفون أنهم لا يزيدون على أرقام مجردة ، فقد وجدت أن كثيرا منهم يتأنق في ملابسه ليظهر في الطابور كما ينبغي لمثله ـ وذلك بالطبع اذا كانوا ممن يسمح لهم بلبس الملابس الخاصة مثلي · وقبل أن ينتهي طابور النزهة دعاني مأمور السجن لمقابلته ، فذهبت اليه وكنت ما أزال ذاهلا ، وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدته يستقبلني في بشاشة وعطف ويجلسني على كرسي الى جانب مكتبه · ثم أشار الى حقيبة كبيرة في ركن الغرفة قائلا : « هذه حقيبتك » · وأعطاني سيجارة فأخذتها شاكرا ، وداخلني شيء كثير من الأنس والارتياح وسألته :

ـ من جاء بهذه الحقيبة ؟

فقال : لا أدري · رجل جاء وأراد أن يراك ولكن لا مؤاخذة فالأوامر مشـــددة ؟

ثم أخذ يحدثني عن نزلاء سـجنه حديثا فكهايقطعه بالفكاهات المرحة ، فأذهب عني ما كان بصدري من الضيق ·

كان كل رقم من هؤلاء النزلاء يمتـاز عنده بشيء يجعله جديرا بالتحدث ، فالرقم ١١٠ تاجـر في خـان الخليلي وهو متهم بتجـارة المخدرات ، وبلغت أرباحه في العام الماضي وحده مائة ألف جنيـه ، ولم يضبط لسوء حظه الا في آخر مرة عندما اختلف مع رجل من أهل الصعيد على شراء صفقة كبيرة · كان الرجل يريد أن يشتريها بخصـم ١٠٪ من ثمن القطاعي ، ولكن التاجر أبى فأبلغ المشترى رجال البوليس عنه وانقلب الى مساعد لرجال الأمن حتى تمكنوا من ضبطه · وكان نازلا بالسجن تحت التحفظ حتى يتم التحقيق ، ولكنه يكلف المأمور مشقة عظيمة في مراقبته حتى لا يعقد صفقات جديدة داخـل جدران السجن · وقد لاحظت في طابور النزهة أن ذلك الرقم رجل ضخم يسير شامخ الأنف ويلبس جلبابا من الحرير الأبيض ويمسك في يده منشة بيضـاء أنيقة ·

وأما الرقم ٢١٣ فانه من صنف آخـر · وقد لاحظت أنه يلبس بيجامة فاخرة من الحرير الملون ويدلى من جيبها الأعلى على يسار صدره منديلا أحمر · وقال عنه مأمور السجن ان الطعام الفاخر يأتى اليه كل يـوم من المرأة التى يعيش فى ظلها ، وهى كل يـوم تحمل اليه الطعام بنفسها وتبكى لأنها لا تتمكن من رؤيتـه · وتهمته أنه طعن منافسـا بالسكين من أجل المرأة ·

وأما الرقم ١٩٠ فانه رجل شاذ لا يكاد يقضى مدة السجن فى جريمة خلقية حتى يعود الى ارتكاب جريمة أخرى ·

وكان المأمور خبيرا بكل أحوال رعيته يتحدث عن كل رقم منها كما يتحدث صاحب المزرعة الهاوى عن السلالات الممتازة من الحيوانات التى فى حظائره ·

ولما فرغ من حديثه أخبرنى بأنه قد اختار لى غرفة ممتازة فى الدور الأعلى فيها مصباح كهربائى وفراش نظيف وعلى مقربة منها دورة مياه · وقال اننى أستطيع أن آمر بشراء ما أريد من طعام · وأمر بحمل الحقيبة وصعد معى حتى أوصلنى الى غرفتى وهمس قبل أن ينصرف :

ـ يمكنك أن تقرأ الصحف عندى فى الصباح ·

فشكرته من أعماق قلبى وصافحته فى حرارة ولما دخلت غرفتى فتحت الحقيبة وأخذت أخـرج ما فيها وأرتبه فى مواضعه · فالركن

الذى يلى سريرى للكتب ـ وما كان أكرم هذا الصديق الذى أرسلها الى ، وهو بغير شك الأستاذ على مختار ، ومن ذا يمكن أن يفكر فى غيره ؟ ولم اضع شيئا فى الركن الذى أمامى اذ كان لا يصلح لشىء لقرب الباب منه ، وأما الركن الثالث فقد كان يصلح لأن أعلق فيه شماعتين احداهما على المسمار الأسفل والأخرى على المسمار الأعلى . ويمكننى أن أضع عليهما ما فى الحقيبة من الأقمصة . وأما أدوات الحلاقة والملابس التحتانية والمناديل وما الى ذلك فلا يضرها أن تبقى فى الحقيبة لآخذ منها ما أحتاج اليه فى حينه . والمحل الصالح للحقيبة هو الركن المنعزل تحت قدمى السرير . وبالغ مأمور السجن فى اكرامى فبعث الى ببعض الأطعمة الخفيفة للعشاء مع فنجان لذيذ من الشاى ، فعزمت على أن أكرر له شكرى اذا نزلت فى الغد الى طابور النزهة . وهكذا وطنت نفسى سريعا على الاقامة فى سجن الاستئناف وبذلك كل جهدى فى صرف فكرة اتمام التحقيق والقلق من الانتظار وسلمت أمرى الى الله تعالى .

٢٧

مضت أربعة أيام بغير أن أسمع شيئا عن التحقيق الذى وضعت تحت التحفظ من أجله · وكان مما زادنى ضيقا أنى كنت اسمع فى كل يوم بالافراج عن بعض الأرقام الأخرى ، ومن بينها التاجر فى المخدرات والشاب الذى يعيش فى ظل المرأة والمجـــرم العائد صــاحب الجرائم الخلقية · كل هؤلاء يفرج عنهم بكفالة مالية وأما أنا فأبقى فى السجن حتى يتم التحقيق · ومتى ؟

وذهبت فى اليوم الرابع لأحضر جلسة المعارضة،وتطلعت الى الساعة التى أقف فيها أمام القاضى · ولم أجد فى المحكمـــة من ينتظرنى غير فراش مكتبى الذى اندفع نحوى مسلما ضاغطا على يدى وقال :

ـ تشجع يا أســـتاذ !

وقدم الى سيجارة ·

ولم يطل بى الانتظار فان القاضى أخذ يستمع الى أقوالى فى هدوء واعتدال حتى تيقنت أن الحكم سيكون بالافراج ·

وكانت دهشتى عظيمة عندما أعلن القاضى أن الحكم بعد أسبوع ·

ولما خرجت من الغرفة لم أكد أصدق عينى عندما رأيت أمامى وجه أمى الباكى ولمحت الى يمينها ويسارها عبد الحميد عباد ومنيرة وحمادة الأصفر · وسبح رأسى فى الفضاء حتى كدت أسقط ، لولا أن تماسكت وسلمت نفسى للأم المسكينة التى لم أفهم مما قالت شيئا · وجاءت منيرة وعبد الحميد يحاولان أن يهدئاها · ووجدت أن الموقف أشد من طاقتى فحاولت أن أقول بعض كلمات أخفف بهـــا لوعتهـــا ولكنى لم أجـد شيئا أقوله ·

وكان الشرطى المكلف بحراستى أكثر انسانية من أن يجذبنى من ذراعى فاكتفى بأن قال : « لا داعى لكل هذا والعاقبة خير ان شاء الله » · فعاد الى شيء من قوة الارادة ، ونزعت نفسى من يدى أمى فى شيء من العنف وتكلفت قلة الاهتمام وشددت ابتسامة على وجهى قائلا :

ـ لماذا تزعجون أنفسكم بالحضور الى هنا ؟ هذه شروط المهنـة يا عبد الحميد · وأنت يا منيرة ألا تريدين أن تكونى صحفية ؟ هناك صحفيات كثيرات أقل منك براعة فى تمثيل أدوار البكاء · تعالى يا آنستى معى لترى أنى أفطر عسل نحل وأتغدى كبابا ·

وأنت يا حمادة !

فتقدم حمادة الى ومد يده مسلما وكان وجهه يدل على التأثـر ، فقلت له :

ـ أظنك أنت المسئول عن هذا ؟ من أخبر هؤلاء غيرك ؟

فقال : يعنى يا أستاذ سيد أذهب لأسأل عنك وأعلم أنك فى السجن ولا أبعث اليهم ؟ يعنى كنا كلنا نأكل ونشرب وننام فى بيوتنا وأنت تأكل مع المساجين ؟ كان لابد أن أقول لهم ولابد أن أقول لهم ولابد أن نهتم بك يا أستاذ ، والمسألة بسيطه ـ تلغراف « منتظركم اليوم بالمحطـة لأمر هام يخص الأستاذ سيد » · والست الكبيرة دعت لى وهى مرتاحة مع منيرة هانم فى بيت الحاج مصطفى ، وأنا وفطومة وكلنا فى الخدمة ، والله ما يحمل لك الأكل غيرى · يا سلام يا أستاذ ! بعض خيرك والله ! وكل يوم أطلب مقابلتك والمأمور يرفض ، ان شاء الله ربنا يفرجها ·

ووضع الشرطى يده على كتفى منبها ، فنزعت نفسى لأسير معه وأخذت يد حمادة فضغطت عليها · وأبت أمى الا أن تضمنى الى صدرها قبل أن أذهب ، وكانت عينا منيرة غارقتين فى الدمع وهى تسـلم على صامتة · وأما عبد الحميد فهمس الى قائلا :

ـ أنا مقيم هنا فلا تفكر فى شىء ، وعنـدى كلام كثير أقوله لك قريبـا ·

وانصرفت مع الشرطى نحو العربة المنتظرة ، وقاومت الدافع القوى الذى كان يدفعنى للنظر الى الوراء · ولما أغلق الشرطى الباب من ورائنا قذفت برأسى على كفى معتمدا بذراعى على ركبتى وتمنيت لو أسعفنى البكاء حتى أخفف من شدة الضغط الذى كاد يمزق كيانى ·

وقضيت الليلة الأولى بعد عودتى الى السجن فى أشد من الجحيم ، فلم أذق طعم النوم فضلا عما كنت أعانيه من الآلام والهاجس ، كما أنى لم أذق طعاما فى الغداء أو العشـاء بل وزعت ما جاءنى على بعض المساجين الآخرين ، ورجوت المأمور أن يرفض قبول أى طعام من الخارج من أجلى ·

لم تنقطع آلامى وهواجسى فى اليوم التالى ، وزادنى غيظا أن الطعام استمر يأتى الى برغم الحاحى فى رفضه ، فكنت أوزعه على زملائى من

الأرقام الأخرى ، واعدت الكرة مرة ثالثة على المامور قائلا له : « انني أحتج احتجاجا شديدا لارغامي على قبول طعام لا اريد قبوله » .

والظاهر أن حمادة كان يحتال على ايصال الطعام الى باهداء بعض الهدايا الى حراس السجن ، فان المامور اضطر الى احضار رئيس الحراس امامي وهدده بالعقاب اذا هو تساهل في ادخال اى طعام يأتي باسمي . وبعد ثلاثة أيام من هذا الاحتراق المستمر شعرت في الليل بقشعريرة شديدة والتهاب في الزور وقمت في صباح اليوم الرابع لا أكاد أقدر على بلع ريقي . وترددت في أن أعرض أمرى على المأمور فتحملت آلامي ولم أذق شيئا من طعام السجن الذى جاء الى . ولو كنت في تمام صحتي لما وجدت له شهوة اذ كان لونه ومنظره يكفيان لصد النفس عنه . ولما اقبل الليل خيمت على قلبى كآبة شديدة زادتني ألما على ألم وزادت حرارة جسمي حتى كنت أحسها في أنفاسي المكروبة ورأسي المصدع واعصائي النابضة بالوجع . وخشيت أن يكون قد أصابني مرض خطير يقضى على قبل الصباح فتحاملت على نفسي حتى وصلت الى الباب فدققته لأدعو السجان ، وبعد حين فتح الباب وسألني الرجل في لهجة اللائم عما اريد ، فلما علم أن الأمر لا يزيد على أني مريض أجابني قائلا :

ـ وماذا أصنع لك ؟

ثم أغلق الباب وانصرف عنى بغير أن يزيد كلمة . ولم أجد فائدة في اعادة الكرة عليه فتهالكت على سريرى وألهاني الوجع عن التفكير في فظاظة ذلك السجان ، وأغلقت عيني لأغريها بالنوم ولكن سلسلة من أخيلة محمومة لا معنى لها أغرقت وعيي وجعلت تتطارد وتتواثب في شبه حلم مضطرب . وعادت الى القشعريرة أشد مما كانت في الليلة الماضية فقمت أبحث عن شيء اتغطى به فلم أجد شيئا وجعلت أنتفض وارتعد ساعة طويلة حتى زال البرد وهجمت على حرارة شديدة كادت تزهق روحي .

وطلع الصباح آخر الأمر وطلبت من السجان أن يبلغ المامور أني مريض ، فما هي الا ساعة قصيرة حتى جاء الطبيب ليفحصني . ولو كنت قطة مدللة لكانت عناية الطبيب بي أكثر من عناية ذلك الرجل الذى جاء الى فنظر الى وجهي ثم قال :

ـ ماذا تشكو ؟

فأشرت الى زورى قائلا :

ـ زورى أولا . وقد بدأت أسعل في آخر الليل سعالا شديدا . وجسمي هامد ورأسي مصدع ، ولم أذق النوم ، وانتابتني في الليل قشعريرة شديدة .

وأظن حرارتى .. .. ..

ولكنه لم يصبر حتى أتم قولى .

فقاطعنى ساخرا : يظهر أنك تعـــــرف كل شيء فلم يبق الا أن تشخص المرض .

فقلت مغتاظا :

ـ وماذا أعمل وانت تسألنى ؟

فقال فى جفاء : هذا شيء عادى يحدث كل يوم .

وهم أن ينصرف .

فقلت فى حنق :

ـ أليس لهـذه اللوز الملتهبة دواء ؟ أظن واجبـك لا يقتصر على كتابة شــهادة وفاتى .

فقال غاضبا : لم أنتظر تشريفك حتى تعلمنى واجبى .

وأدار ظهره وانصرف ، وسمعت وقع الأقدام تتباعد وأنا فى شبه غيبوبة .

ولم أعرف ماذا حدث بعد ذلك حتى صحوت لأجد نفسى فى غرفة أخرى والى جنبى سيدة فى ملابس الممرضات ، ولما هممت بالقيام قالت فى لهجة أجنبية :

ـ أرجوك أن تهدأ الآن .

٢٨

مرت ساعة طويلة قبل أن أعرف أنى فى مستشفى الحميات ، وأنى نقلت اليه فى الساعة السابعة من الصباح · وعاد الى شيء من القوة فى ساعة الظهر فاستطعت أن آكل الطعام اليسير الذى قدم الى ، ولم يأت الليل حتى كنت أقدر على الحديث · وجاءت السيدة التى رأيتها من قبل وهى كبيرة الممرضات فقاست حرارتى وكانت تزيد درجة واحدة عن الحرارة الطبيعية · وأخذت تحدثنى وكانت نفسى مستوحشة فوجدت فى ثرثرتها أنسا كثيرا · ثم أخذت تربط ذراعى من فوق المرفق ومن تحته فتأخذ عينة من الدم ، فلما أتمت عملها أهدت الى قصة لأتسلى بقراءتها · وهى امرأة فى نحو الخمسين من عمرها وما يزال فيها أثر من نضرة الشباب والجمال وزادتها طبيعتها العاطفة حسنا ورقة ·

وبعد أن قضيت بضعة أيام فى المستشفى بدأت العلاقة تتوثق بينى وبين من هناك من المرضين والموظفين ، بل توثقت الصلة بينى وبين حراسى وهم من جنود الرديف ، وكان أقربهم الى مودتى الفتى (مجاهد) الذى كان ينتظر انتهاء مدته فى الجندية ليعود الى قريته ويتزوج من ابنة عمه (هنا) ، فكان كلما جاءت نوبته وقف عند باب حجرتى فى حديقة المستشفى واضعا بندقيته بين قدميه وأخذ يحدثنى عن نفسه وأهله وعروسه (هنا) ·

وكان لهذه المودة التى نشأت بينى وبين من فى المستشفى أثر كبير فى تخفيف وطأة السجن على وفى تسهيل زيارات أهلى وأصحابى ·

وكانت أول زيارة مفاجأة سارة بعد عشرة أيام من انتقالى الى المستشفى ، وذلك فى الساعة التاسعة من المساء فى ليلة مظلمة · كان الحارس (مجاهد) ، أو اللواء مجاهد كما كنت أسميه ، يحدثنى كعادته بلهجته الصعيدية الظريفة عن بعض مغامراته فى حرب فلسطين · وعرى ذراعه فكشف لى عن جرح كبير فيها وأخذ يحكى لى قصته ويمزج وصفه الساذج بفكاهات ساخرة عن القنابل (الرفاسة) التى كانت دائما تضرب الى الوراء كأنها بغال خبيثة · ورأيته يلتفت فجأة ويرفع بندقيته.

ويصيح فى عنف : « من هناك ؟ » ، وخيل الى أنه على وشك أن يضرب فأجابه أحد القادمين قائلا : « عوض الله » . فعاد الى وقفته الأولى . وتقدم عوض الله أفندى رئيس التومرجية ومن ورائه شخص يتعثر فى معطف أبيض من ثياب الممرضين ، ولم أعرف من هو حتى خرج من ظل الجدار وبدأت أشعة مصباح الغرفة تقع على وجهـــه فصحت قائلا : « حمادة ! ماذا جاء بك الى هنا ؟ » .

وتنحى اللواء مجاهد حتى وقف على مسافة بضعة أمتار منا ، ولأول مرة فى حياتى أخذت حمادة بين ذراعى . وكان يحمـــل فى يده ربطة وضعها على المنضـــدة قبل أن يعانقنى وقلت له : « كيف عـــرفت أنى هنـــا » ؟ .

فقال ضاحكا : أمال يا عم . تهرب من السجن بغير أن تترك لنا العنوان الجديد ؟

وقام فحل الربطة وأخرج منها صندوق السجاير وعلب الحلوى وأخذ يقدم منها الى والى عوض الله أفندى واللواء مجاهد . ثم أخذ يحدثنى عن أمى وأختى وعبد الحميد والشيخ مصطفى وفطومة . كانت فطومة تريد أن تحضر معه ولكنها تكاسلت فى آخر لحظة .

فقلت باسما : اذن لم تسافر الى دمنهور .

فقال : مالى أنا يا سيدى ، هنا وطنى .

فقلت : وانتهيت ؟ أقصد عقدت العقد ؟

فقال : اشترينا الملبس والشربات وذهبت الى المنزل على حسب وعد الحاج مصطفى ، ولكن الست فطومة حلفت ما يمكن العقد حتى يخرج سى سيد من السجن . قلت الحق معها . يا سلام يا أستاذ !

وكان عوض الله أفندى قد عاد الينا بعد أن غاب فى جولة بالمستشفى وطلب من حمادة أن ينصرف .

وقام حمادة بغير أن يتم حديثه ، وكان وداعه حارا ، وسار يتعثر فى ذيل معطفه الذى استعاره من عوض الله ليستخفى به . وغاب وراء ركن البناء بعد قليل ، وبقيت وحدى جالسا على الكرسى الطويل سابحا فى تأمل هذا الرجل العجيب ــ حمادة الأصفر . ولم أستطع أن أعرف حقيقته منذ كنا أطفالا ، ولا عندما كان يتمرغ فى الأوحال ، ولم أستطع أن أعرف حقيقته بعد وهو يتخطى الأسوار ويعرض نفسه للمتاعب من أجل زيارتى .

وقطعت الأخت مرسيديا كبيرة المرضات سلسلة أفكارى عندما جاءت لتأخذ عينة الدم من ذراعى وتعطينى الحقن كما كانت تفعل كل ليلة ٠

وقلت لها ضاحكا : أهى مؤامرة لنزف دمى ؟

وكانت لها طريقة ظريفة فى معاملتى تشبه طريقة الأم اذا أرادت أن تتغلب على مقاومة طفلها العنيد فى رفق ٠ فاستسلمت لها حتى فرغت والتفتت الى قائلة :

ـ هذه مكافأة صغيرة على طاعتك ٠ أظنها قصة تعجبك وهى من أحدث ما ظهر ٠

فقلت وأنا أنظر الى غلاف الكتاب :

ـ أتعجبنى من أجل هذه الصورة ؟

وكانت صورة امرأة غجرية حسناء تكاد تكون صورة فطومة ٠

فقالت مرسيديا : هذه (ردمويا) ٠ هى امرأة متوحشة لم تفسد المدينة طبيعتها الأصيلة ولهذا تنطق بما يقول قلبها ٠

فأخذت أقلب الصفحات وأنظر الى الصور الأنيقة التى فيها وهى تمثل الغجر الذين يقيمون فى خيامهم فى قلب المدينة كما كان يعيش الانسان الأول ٠

وكانت قصة مسلية مؤثرة فى وقت واحد ٠ فتاة غجرية حسناء يتهافت على خطبتها شباب القبيلة ، وكان أحرصهم على الفوز بها (نمرادا) ابن شيخ القبيلة ٠ وهو فتى ممشوق القامة ، جميل الصورة ، ولكن (ردمويا) رفضت حبه وقالت له تتحداه : « دمائى لا تألفك » ٠

ولم أستطع أن أقاوم ميلى للقراءة برغم تحذير الأخت مرسيديا ألا أطيل السهر ، وأخذت أقرأ فى تمهل بغير أن أجد فى مدخل القصة شيئا يسترعى اهتماما خاصا ٠ ثم بدأت صور الأشخاص تتمثل فى ذهنى كأنها تخرج من وراء ضبابة ، وبدأت آنس اليها وأعرفها ٠ ولم أشعر بمضى الوقت حتى شعرت بيد تخطف القصة منى وسمعت صوت مرسيديا تقول فى غضب :

ـ الحق على أنا ! ألم أقل لك ألا تقرأ هذه الليلة ؟ أهكذا تسهر الى الساعة الواحدة من الصباح ؟

ولم تتركنى حتى رقدت فى فراشى وصوت على الغطاء واطفات النور واغلقت باب الغرفة وأخذت الكتاب فى يدها • ولم أستطع أن انام فبقيت أستعرض مناظر القصة التى كانت تمر أمام عينى مثل فلم ناطق •

أم ردمويا تقول لها : عجبا لك اذ ترفضين نمرادا ! هل تخفين عنى سرك يا ردمويا ؟ أتحبين فتى آخر ؟ حاذرى أن يكون قلبك متعلقـا بمن لا يهتم بك •

فقالت ردمويا ضاحكة : ألست أختار لنفسى يا أمى ؟

فقالت الأم غاضبة : أيام الشباب قصيرة يا ردمويا ؟ والزهرة تذبل سريعـا •

فقالت ردمويا : لست حمقاء أو غبية يا أمى ، ولا أريد أن أضيع حياتى • كيف أهب قلبى كما يوهب العبد ؟

فقالت الأم فى حنان : لا تنخدعى بالأوهام يا ردمويا • عندما يقول قلبك « لا » قد يكون قصده « نعم » • هكذا نحن يا حبيبتى اذا تسرعنا •

فقالت ردمويا : لم أتسرع فى شىء يا أمى • قضيت شهرا أغنى وأرقص لعل قلبى يرضى ، وقضيت شهرا آخر أحرق البخور كل ليلة لنجم الشعرى لعله يهدينى ، ولكن قلبى كان دائما يقول « ليس نمرادا رجلى » •

فصاحت الأم غاضبة : لا تقول هذا فتاة أخرى فى القبيلة • كلهن يبتسمن له ويرمينه بالحصى من أجلك •

فقالت ردمويا فى تأثر : ليس هو رجلى • هو أنيق مثل عود السرو وصوته ناعم كصوت اليمام ، وهو ابن شيخ القبيلة الذى يملك الذهب • ولكنه لا يحسن الا تسـلق الشجر الأملس ، لا يقـدر نمرادا أن يذلل الجواد الحرون ولا يشق الأمواج الثائرة • ليس نمرادا رجلى •

فصاحت الأم فى يأس : رجلك اذن خيال فى السحاب أو شبح فى ضوء القمر •

وتركتهـا ذاهبة الى الخيمة فى حنق : ووقفت ردمويا وحــدها تحت السماء تنظر الى نجم الشعرى وتحدث نفسها قائـلة : ليس هو نمرادا •

هكذا كانت ردمويا تتحدث لأنها تعرف قيمة حياتها ولا تريد أن تضيعها • قضت شهرا تحرق البخور لنجم الشعرى ليهديها حتى لا تخطو

خطوة حمقاء لأنها ليست مثلنا تتخبط مع الأهواء الزئفة فى أخطر موقف فى حياتها · فأين هى من منى التى تقول لى :

« لم أفكر فى أمر هذه الخطبة ؟ » ·

ومتى تفكر اذن ؟ أم هى تريد أن تهب قلبها كما يوهب العبد ؟

وتمنيت لو استطعت أن أكتب فى يوم من الأيام قصة مثل (ردمويا) لأعلم الناس مسئولية المرأة فى اختيارها ؟ ولكن ماذا صنعت (ردمويا)؟ أين هى القصة ؟ أوه ! كان فى وسع الأخت مرسيديا أن تتركها هنـا بدلا من جعلى أنتظر حتى تأتى الى فى الساعة الثامنة من الصباح ·

هكذا بقيت أحدث نفسى وأنا مغمض العينين ولا أدرى متى دخل النوم اليهما ·

- ٢٩ -

أصبح عالمى بعد قليل محصورا فى ذلك المستشفى وأهله ـ الأخت مرسيديا واللواء مجاهد والدكتور عوض الله أفندى ، وكانت زيارات أهلى وأصدقائى تقطع رتابـة تلك الحياة الهادئـة التى بلغت مبلغ الركود ، وتدخل الى وحشتى شعاعا من الأنس ، فكنت أنتظرها فى تلهف وأتخذ من كل منها ذخيرة أتصبر بها حتى تحين الزيارة التالية • ومن عجيب الطبع البشرى أننا نقبل ما تحتمه علينا الظروف ونلائم بين أنفسنا وبين الأحـوال التى نتقلب فيها ، ولو لم تكن فينا هذه المقـدرة على الانطباع بالظروف المتغيرة لما استطاع كثير منا أن يطيقو حياتهم اذا تغيرت أحوالهم من اليسر الى العسر أو من الغنى الى الفقر أو من الجاه الى الخمول ، ولولا هذا الطبع لما استطاع انسان أن يعيش يوما واحدا اذا فقد الحرية وهى الهبة الأولى التي تميز الحياة الانسانية وتجعل لها معنى • الطير والوحش اذا حبست وحيل بينها وبين حرية الفلوات والفضاء لا تطيق صبرا على الأسر ، وقد تنتحر أو ترفض الطعام والشراب حتى تموت ، ولكن الناس يتمسكون بالحياة وان كانت فى سجن مظلم تحت أطباق الأرض • وقد عجبت كثيرا وأنا فى سجن الاستئناف من فتى كان محكوما عليه بالاعدام ، ولم يبق من عمره الا أن تنظر محكمة النقض فى أمره ، ولكنه كان يأكل ويشرب ويضحك ويهرج ولا يكاد من يراه يحسبه مهموما بشىء ، ولو أنه خير بين الموت وبين البقاء فى سجنه طوال حياته لما تردد فى اختيار السجن مع كل ما فيـه من ضيق وعذاب وألم لا يقـاس به ألم الاعدام فى لحظة قصيرة •

ومهما يكن من الأمر فقد استقر بى المقام فى حجرتى المنعزلة فى المستشفى أترقب زيارات أهلى وأصـدقائى كما يترقب الطفـل صباح العيد • وقد صار الناس جميعا فى نظرى أعزاء ، والذين كانوا أعزاء من قبل أصبحت حولهم هالة من الحنين تشبه القدسية • وأما أهل عالمى المحدود فقد أصبحت لكل منهم عندي شخصية خاصة به، ومكانة لا يملؤها سواه •

وقد جاءني الشيخ مصطفى حسنين ذات يوم فلم أتمالك عيني من الدمع عندما عانقني وهو يبكي . هكذا نحن معاشر البشر نقيس الأشخاص والأشياء والأمور بمقاييس متقلبة تختلف مع أهوائنا ومع مشاعر الساعة التي نكون فيها .

وكان حمادة من أكثر أصحابي ترددا على زيارتي ، ومن أشدهم عناية بأمري ، فلا يكاد يخلو يوم من زيارة يؤنسني بها وحده أو مع غيره ، وكان قلبي يتوجع كلما تذكرت أن مني لم تسأل عني . أما سألت يوما عن أختي منيرة ؟ أما عرفت أنها سافرت مع أمي الى القاهرة لتكونا قريبتين مني ؟ وهل يمكن أن يخفى خبر سجني عنها مع أن الأخبار تنتقل في دمنهور مثل تردد الصدى في الوادي الضيق .

ولكني كنت أعود دائما الى نفسي فأراجعها معتذرا عنها ، فما أدراني أنها عرفت ما أنا فيه ؟ وأما الأستاذ علي مختار فانه لم يأت لزيارتي مرة ، ولم يحضر في يوم جلسة من جلسات المعارضة ، بل انه لم يبعث الي بكلمة مع أحد أتباعه . كان ساعي المكتب هو الرجل الوحيد الذي جاء ليواسيني ويقول لي « تشجع » . وهممت مرارا أن أسأل صديقي عبد الحميد عنه ولكني تكبرت أن أسأل عن رجل يتخلى عني هكذا مع أنه شريكي في كل كلمة أنشرها .

وجاءني عبد الحميد عياد يوما وكان معه أحد أصدقائه من المحامين الشبان ، وذلك في الليلة التي تسبق جلسة المعارضة الثالثة . وبدا لي صاحبي على غير ما كان منذ رأيته آخر مرة ، فانه عاد كما عرفته من قبل مستقيم العود حاد الملامح هادىء الحركات رصين النبرات . وكان في مظهره شيء كثير من العناية التي تقرب من التأنق . ودار أكثر حديثنا حول جلسة المعارضة ، ولكن المحامي الشاب لم يكن يعرف شيئا عن القضية ، وخيل الي أنه لا يعبأ كثيرا بأن يعرف عنها شيئا . فشعرت من حديثه بكثير من الضيق حتى لقد تمنيت لو حدث شيء يحول بينه وبين حضور الجلسة ، ولما انصرف بعد ساعة قصيرة مع صاحبي عبد الحميد ، هجم علي سيل من الهواجس حتى صارت الساعة الثانية بعد نصف الليل ، واضطربت الأفكار السوداء حولي من كل جانب ، وأخذت أسأل نفسي عما يكون اذا حكم القاضي باستمرار حبسي مرة بعد مرة . فهل تبقى أمي وأختي بالقاهرة تقيمان في غرفتي المحطمة ؟ وهل عندهما ما يكفي لنفقتهما التي ضاعفتها عليهما بحبسي ؟ أم أتركهما هكذا لصاحبي عبد الحميد ينفق عليهما وأنا كالمفقود في سجني ؟ وقد جعلتني هذه الهواجس أشعر بأنني قد اقترفت جريمة شنيعة لأني لم أفكر في أن ما يصيبني لا يقف عند شخصي . فلو كنت وحدي في الحياة لكان مقامي

بالسجن لا يزيد على مغامرة تخصني ولا تمس غيرى · ولكني جنيت على امي واختي وارغمتهما على أن تغامرا معي بغير ان يكون لهما شعور الرضى الذى يصاحب المغامرة · وقد الح هذا التفكير على حتى صرت أقول لنفسى : « من أجل أى شيء أقدم على هذه التضحية ؟ من أجل حرية بلادى ؟ وكل هؤلاء الذين يستقرون في بيوتهم لا يحسون شيئا من أجل حرية بلادهم ؟ الا يزعم الأستاذ على مختار مثلا أنه مجاهد في سبيل الحرية ؟ وأين هو الآن ؟ أليس يقيم سعيدا فى بيته ؟ وماذا يكتب يا ترى في بريد الأحرار ؟ لا شك أنه محا عنوان « أنا الشعب » وجعل فى مكانه عنوان قصة عاطفية تغرى بالقراءة مثل « غرام غانية » أو « الحب المحرم » ·

وعندما بلغ بى التفكير الى هذا المدى تنبهت الى أن الجزع قد استولى على وجعلني أنكر كل عقائدى وابدل كل آرائى · فهل كنت هازلا عندما آمنت بالثورة والجهاد من أجلها ؟ أهكذا أنكل عند أول صدمة وأسمح لضعفى أن يغلبنى حتى أكفر بأعز ما آمنت به وأمحو بيدى تلك الصورة التى نصبتها أمام عينى لتكون أمنية كبرى تجعل لحياتى معنى ؟ وأخذت استعيد لنفسى ذكرى وقفتى عند قبر أبى اذ خيل الى أنى أسمعه يقول لى « ان الحياة تناديك يا ولدى » وتذكرت أنى عاهدته على أن أؤدى واجب حياتى · وماذا تكون قيمة هذا الواجب اذا كان أداؤه لا يحملنى الآلام ولا يكلفنى المتاعب ؟

وثقل جفناى آخر الأمر بالنوم ولكنه كان نوما متقطعا مضطربا · وقمت فى الصباح الباكر لأستعد للذهاب الى المحكمة ، وجاءت الأخت مرسيديـا بنفسها لتحمل الى افطارى وتودعنى معتذرة بأنها ســتكون مشغولة عنى ، ولعلها لا ترانى قبل خروجى · وقالت لى وهى تهز يدى « أرجوك أن تسأل عنا بالزيارة بعد أن يفرج عنك ، فسيفرج عنك اليوم بغير شك ! » وقلت لها باسما :

— الى اللقاء يا ملاكى ·

فضحكت ضحكة عالية وقالت :

— لقد تعلمت الملاطفة هنــا ·

وانشرح صدرى لكلمتها واستبشرت بالفرج القريب ، وكان وداع عوض الله أفندى لا يقل عن وداعها بشرا وظرفا · وكان اسفى عظيما لأنى لم أودع اللواء مجاهد اذ كان ذلك اليوم غائبا عن المستشفى ·

ولما خرجت فى العربة ذاهبا الى المحكمة ظهرت المدينة أمام عينى باهرة كأنها منظر أنيق لم يقع عينى عليه من قبل · وكنت أحس فى بدنى قوة جديدة من أثر العلاج الذى كان أكبر الفضل فيه للأخت مرسيديا ،

فاستقبلت نسيم الصباح فى صدرى رطبا عطرا يملؤنى نشاطا واستبشارا · وكنت ما أزال محتفظا فى جيبى بالمائة جنيه التى ردها الى حمادة الأصفر وبعشرين جنيها أخرى كانت معى ، فما كدت أرى صاحبى عبد الحميد واقفا عند باب المحكمة حتى أخرجت المحفظة ودفعتها اليه بعد التحية قائلا :

ـ خذ هذه النقود فأوصلها الى أمى · وأرجوك أن تحملها على العودة الى دمنهور اذا حكم القاضى باستمرار حبسى ·

فقال عبد الحميد باسما : فاذا رفضت ؟ على كل حال أرجو أن يكون الحكم بالافراج عنك ·

ولم أجد وقتا للمجادلة لأن الحارس جذبنى فى رفق من ذراعى ليسير بى · وقلت مختصرا :

ـ أترك كل شىء لتقديرك ، وعلى فكرة أرجو أن تبعث الى ببعض أعداد بريد الأحرار ·

وكانت دهشتى عظيمة عندما رأيت عبد الحميد ينظر الى مبهوتا وهو يسير الى جانبى ·

فقلت : ألم تسمعنى ؟

فقال فى صوت خافت : لم أرد ازعاجك بالحديث عن بريد الأحرار ·

فصحت : ماذا حدث ؟

فقال : هى مغلقة من يوم القبض عليك ·

فقلت فى اندفاع : والأستاذ على مختار ؟

فقال : هو مثلك سجين ، غير أنه يستعد لعملية جراحية ·

فرفعت يدى الى رأسى بحركة قسرية وهجمت على موجة شديدة من حزن مختلط بالأسف على ما سبق من سوء ظنى بالرجل ·

واستمر عبد الحميد قائلا : وأحب أن أقول لك ان مرتبك وصل الى الوالدة فى أول الشهر ، فلا تزعج نفسك بالتفكير فى شأنها ·

وكنا قد وصلنا عند ذلك الى قاعة المحكمة وكانت المقاعد مزدحمة بمن فيها، ولمحت أمى وهى جالسة تمسح دموعها بمنديلها فى الصف الثانى · وأما منيرة فكانت تنظر نحوى وهى جالسة الى جانب أمى وتحاول أن تبتسم ووجهها يبدو حزينا · وتعمدت أن أظهر طبيعيا فتبسمت لهما وحركت يدى نحوهما ، ثم أدرت بصرى عنهما حتى لا تنفجر دموعى ·

ثم أخذ القاضي في نظر قضيتي وهو هادىء وكنت مشغولاً عنه بما في داخل نفسي حين بدأت مرافعة المحامي ، والظاهر أنه لم يجد وقتا في الليلة الماضية ليقرأ دوسيه التحقيق ، اذ كان دفاعه سقيما مترددا لا روح فيه ٠ وختم مرافعته باعتذار سخيف يزعم فيه أني لم أقصد شيئا من وراء ما كتبت ، وأنني أضمر لرجال الحكومة كل تقدير وتبجيل ٠ فكدت أصيح به أن يسكت وشعرت بالدم يتدفق الى وجهي ورأسي ، وما كاد يفرغ من مرافعته حتى اندفعت أكذب ما قاله ٠ وأخذت أبين في وضوح أنني لم أكن هازلا عندما كتبت مقالاتي ، وأنني أشعر شعورا عميقا بواجبي في مجاهدة الفساد والانحلال بكل ما أملك من قوة — وهي قوة قلمي ٠ ثم انطلقت أتحدث عما سميته « التفاهات المسكينة » التي أغرق فيها رجال الحكم أنفسهم وأوشكوا أن يغرقوا فيها البلاد معهم ٠ وختمت دفاعي بصيحة عالية ناديت فيها كل من يقدر الكرامة الوطنية والحرية ومصلحة البلاد أن يعمل على ازالة الحكم الفاسد حتى لا يجد في نفوس الأمة دعامة يستند عليها ٠

وكانت كلمتي الأخيرة مصحوبة باشارة قوية من يدي وخبطت على القضبان الحديدية التي أمامي قائلا :

« ان الحكام لا يستمدون سلطانهم الا من الأمة ، ويفقدون كل حق في السلطان اذا تخلت عنهم الأمة » ٠ وكانت القاعة ساكنة في أثناء دفاعي كأنها خالية ٠ ولما فرغت من قولي تلفت حولي وكانت الوجوه شاخصة نحوي ، وكان عبد الحميد ينظر الى حزينا واجما ٠ وأما أمي وأختي فانهما كانتا تبكيان بكاء مرا ٠

ونطق القاضي قائلا «الحكم بعد أسبوع» ٠ هكذا دائما ! وكان وجهه هادئا كأنه يقول « عليكم السلام » ٠ وخرجت من قاعة الجلسة ، ونزعت نفسي من حلقة أهلي وسرت مع حارسي حتى ركبنا العربة وفي قلبي عاصفة ٠ وسارت العربة بي وأنا مطرق لا أنظر حولي حتى وقفت آخر الأمر عند سجن الاستئناف ٠

لم تكن رهبتي من السجن في هذه المرة مثل الرهبة التى وقعت فى نفسي عندما جئت الى سجن الاستئناف أول مرة ٠

وبدأت تستولى على حالة من التجرد والتأمل صرفتني عن كل شيء ، ووطنت نفسي على أسوأ ما أتوقع ، واتجهت بقلبي الى الله تعالى أن يثبت جناني حتى لا يتزلزل ٠ واستكثرت من الكتب حتى صارت لى مكتبة منوعة أستطيع أن أتنقل فيها كما أشاء ، وكنت أقضى وقتي بين التأمل والقراءة والصلاة ، وما أشقى الذين تخلو قلوبهم من الايمان اذا ألحت عليهم الكروب ٠

ولما جاءني خبر حكم القاضي بعد أسبوع برفض المعارضة واستمرار حبسى لم ابتئس منه بل عزمت على أن أصرف نفسي عن التفكير في المعارضة حتى لا أزعزع فكرى بالانتظار والتلهف والتساؤل ٠ وجمعت كل ارادتي لأستفيد من وجودى بالسجن فكنت أنتهز كل فرصة للتحدث مع زملائي ، ووجدت فى ذلك ذخرا عظيما من التأمل ٠

كنت أشعر في أول الأمر كأن بيني وبينهم سدودا منيعة يتحصنون مني وراءها ، أو كأن لهم قواقع ينكمشون فيها كلما أحسوا محاولتي فى الكشف عن ضمائرهم ٠ ولكنني استطعت بعد حين أن أصل الى قلوبهم وما فيها من صفحات مطوية في الظلمات ٠ والذين لا يعرفون من الحياة الا الجانب الوديع الهادىء الآمن لا يعرفون من حقائق الحياة الا قليلا ٠ فالصفحات المطوية فى أطباق قلوب هؤلاء تروى قصص المآسي التى جفت دموعها ، وتحجر قلبها ٠وكثيرا ما كنت أسأل نفسي هل ولد هؤلاء هكذا ؟ لا ٠ لا ! لقد ولدوا أطفالا كما يولد الأطفال بغير شك ٠ وكان من أقرب نزلاء السجن الى مودتي ذلك السجين الذى ذكرته من قبل وهو الشاب المتهم بالقتل وكان اسمه نوفل ٠ كان لا ينقطع عن الضحك والغناء والمزاح مع علمه بأنه لا ينتظر في الحياة الا ريثما تنظر محكمة النقض في أمره ٠ وكان يتحدث عن حكم الاعدام كما لو كان فكاهة ٠ وقد جمعت بيني وبينه ساعات النزهة فى فناء السجن ، وكنت أحس نحوه عطفا عجيبا كما كنت أحس منه عطفا عجيبا ٠ ولم استطع ان أدرك

السر الذى جعل منه رجلا سفاكا للدماء مع كل محاولاتى التدسس الى أغوار قلبه · وقد عرفت من أحاديثى معه أنه نشأ يتيما منذ قتل أبوه فى معركة من معارك القبائل بالصعيد ، وأبى أهله أن يدلوا الحكومة على القاتل ليبقى حيا حتى يكبر ابن القتيل فينتقم لأبيه ·

وظلت أمه تلقنه عقيدة الانتقام منذ صغره حتى أصبح الثأر عنده ايمانا مقدسا · فلما صار شابا جعل كل همه أن يتربص بالرجل الذى قتل أباه حتى تمكن من قتله ذات ليلة ·

وجاءنى نوفل ذات يوم فى ساعة النزهة وانفرد بى قائلا :

ـ أرجوك أن توصى أحد أصحابك بشراء شمعتين لى ·

فضحكت قائلا : أتخاف من الظلام ؟

فقال فى جد : نذر للحسين يا عم سيد !

فظننت أنه سمع بقبول النقض فى قضيته وقلت له :

ـ مبروك ، هل جد شىء ؟

فضحك قائلا : جاءنى الخبر من البلد · جاءنى ولد ·

فشعرت بخزى شديد وقلت هامسا : مسكين ·

وأما هو فاستمر قائلا : حتى لا يشمت بى أولاد عوكل ·

فقلت : ومن هو عوكل ؟

فقال فى مباهاة : قاتل أبى ·

فقلت : وماذا يهمك ؟

فهز رأسه قائلا : كانت امرأته تشمت بى لأنى لم أخلف ولدا ·

فقلت : ألست تخشى مصير هذا الطفل المسكين ؟

فقال : من أولاد عوكل ؟

فقلت : طبعا · أليست معركة مستمرة ؟ كل طفل يأخذ بثأر أبيه ؟

فقال : ولكن الثأر انتهى عندى · لم يفعل أولاد عوكل واخوته كما فعل اخوتى وأعمامى · ترك أولاد عوكل أمرهم للحكومة وانتهى الأمر · وحسبوا أن نوفل انتهى وانقطع ولده ·

ولكن الحسين جدى زارنى فى المنام يطالبنى بنذره · اصنع الجميل يا عم سيد واشتر لى شمعتين · الحسين جدى والولد سميته حسين ·

بودى والله يا عم سيد ، بودى لو أطير ساعة واحدة لنجع الساقية وأعود ٠ اوص لى على شمعتين بحق الحسين يا عم سيد ٠

واضطربت نبرات صوته وهو ينطق بكلماته الأخيرة ٠

ورفع يده الى عينيه متأثرا ثم أسرع عنى كأنه يهرب منى ٠

وأتى عبد الحميد بالشمعتين بعد ثلاثة أيام من ذلك اليوم ليهديهما الى نوفل ، وكانتا بيضاوين طويلتين منقوشتين من ذلك النوع الذى يكثر استعماله فى الاحتفــال بأسبوع الميلاد ، وقد عقد لكل منهما رباطا من الحرير فى أعلاها ٠ ولكن نوفل المسكين لم يرهما لأن موعد اعدامه كان فى اليوم التالى ، فلم ينزل الى طابور النزهة فى ذلك المساء ٠

ولم أبك فى حياتى مثل بكائى المر فى الليلة التالية ٠ فان ذلك الشاب الذى كان لا ينقطع عن الضحك والغناء والتهريج مع علمه بأن حكم الاعدام معلق فوق رأسه كالسيف ، قد تبدل فجأة الى حالة فاجعة من الجزع والثورة ، منذ علم بأنه رزق ولدا ٠ وقضى الليلة كلها يرسل من غرفته صيحات تشبه زئير الأسد الجريح ٠ وكان فى صوته نغمة جزع وحشى تهز أعماق قلبى وتبعث الدموع من عينى ٠ هو واحد من ألوف وألوف ساقتنى المصادفة الى طريقه أو ساقته المصادفة الى طريقى ، فلمحت منه لمحة من المآسى الانسانية التى تنطوى عليها أطباق الحياة المظلمة ٠ ولم أشعر كما شعرت فى تلك الليلة بأننى لا أعرف من الحياة الا طرفا ضئيلا ، وبأننى أكذب على نفسى وعلى غيرى عندما أقول « أنا الشعب » ٠ هنا ألوف الألوف من الناس لا أعرف عنهم شيئا ولا يستطيعون أن ينطقوا لنعرف ما عندهم ٠ وهنــاك ألوف أخرى من أمثــال الطفلين البائسين اللذين وقع بصرى عليهما وأنا محجوز فى قسم البوليس ٠ هؤلاء ينشأون فى العراء ، كأنهم أعشاب البر التى لم يبذر أحد بذورها ، ولا يعرف مثلى عنهم شيئا ٠

هم لا يقدمون للحياة شيئا بل يسلبونها أشياء ، ومع ذلك فالراعى لا يعبأ بقطيعه الا عندما يشعر بالجوع ، فيذبح خرافه العجاف واحدا بعد واحد ٠ انه الراعى الأحمق الذى يستحق مصيره اذا فنى قطيعه وهلك بعد ذلك جوعا ٠ ولكن ما بال القطيع ؟ ما بال القطيع ينتظر طويلا على الراعى الأحمق ؟

قضيت تلك الليلة أحدث نفسى حانقا حزينا حتى طلع الصباح الذى حدد لتنفيذ الحكم على نوفل المسكين ٠ ورفعت العلم الأسود فوق قلبى كما رفع على السجن علمه الأسود ، وبقيت فى غرفتى كأن ذلك المحكوم عليه بالاعدام أخى من أبى وأمى ٠ واستمرت الدموع تنحدر من

عينى برغم كل محاولاتى فى التماسك مع أن المسكين كان قد تخفف من كل أشجانه بالموت ·

كانت أصداء الصرخات الوحشية التى أرسلها الفتى المسكين فى الليل ما تزال ترن فى سمعى وتصدع قلبى ، وتمنيت لو وقفت عن البكاء ولكنى كنت أختنق بالدموع · وكانت الليلة التالية من تلك الليالى الحارة الراكدة التى يتعثر فيها الخريف فى شهر سبتمبر ، وزادها شدة لسع البعوض الصغير الذى كان ينتشر مثل سحابة فى الغرفة · واستلقيت كأنى ضال مجهد فى غابة كثيفة لا ينفذ البصر فيها ، ويتصاعد من خلالها زئير الوحوش · واجتذب نور المصباح بصرى كما كان يجتذب أسراب البعوض الصغير ، وكانت تنبعث منه الى عينى خيوط ملونة من الضوء تنساب متراقصة وتختلط فيها الحمرة بالزرقة والخضرة ، وتتشكل فى رسوم هندسية بديعة ، وكلما أغمضت عينى ثم فتحتها خيل الى أن صورا ملونة تتطاير حول المصباح وتسبح فى بطء ، وتتواثب كالفراشات ثم تخبو ألوانها شيئا فشيئا حتى تزول · فاستغرقت فى النظر اليها وتصورتها كائنات خفية من أرواح جاءت تسبح فى جو الغرفة كالجنيات الصغيرة المرحة التى صورها شكسبير فى القصة التى كنت أقرؤها فى الليلة السابقة · ولم لا ؟ ان الأوهام تخفف عن البؤساء كثيرا مما يعانونه من الأثقال ، ولو الى حين · وما معنى الحقيقة التى نتحدث عنها ؟ ألا تكون الحقائق حقائق الا اذا لمسناها باليد أو ذقناها بالفم ؟ وما زلت مستغرقا فى تأمل هذه الصور حتى سرى عنى بعض الشىء وبدأت أسأل نفسى « الى متى أبقى هنا سجينا ؟ » ·

ثم هبت نسمة خفيفة قبل الصباح فلطفت من زمنة الحر وأحسست بأجفانى تسترخى ·

- ٣١ -

كان الصباح التالى ألطف هواء ، وكانت الساعات التى نمتها كافية لاعادة النشاط الى جسمى ، فاستقبلت اليوم هادئا منشرحا ، وما أعجب طبيعة الانسان · اننا ننظر الى العالم ونحسب أننا نراه خارجنا وما هو الا فى داخلنا نحن · كانت الغرفة الضيقة هى هى والنافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية والأرض الحجرية الغبراء والسقف الأسود المطأطىء ، كل ذلك كان باقيا لم يتغير ولكن شتان بين صورة ذلك كله فى عينى فى الليلة الماضية وصورته عندما طلع الصباح ·

ولما جاء حمادة لزيارتى فى الساعة العاشرة استقبلته مشتاقا مستأنسا اذ لم أره منذ أيام · ولكنه كان على غير عادته فاترا حزينا وبادرنى قائلا :

- أراك فى خير يا سيد أفندى ·

فقلت فى دهشة : خير ان شاء الله ·

فأجاب منكسرا : مسافر ! راجع لبلدى يا عم · كفاية مصر وما فى مصر ·

فقلت : ماذا حدث ؟

فأجاب : لا يا عم ، مالى أنا ومالها ؟ أنا من هنا وهى من هناك ، حد الله يا سيد أفندى ، كانت ليله زفت · تصدق يا سيد أفندى أن فطومة تقول لى كل هذا ؟ يا فلاح ، يا دون ، يا حمار ، لا مؤاخذة يا أستاذ سيد·

فقلت محاولا تخفيف الأمر : أهذا كل شىء ؟

فقال فى حزن : لا ، لا يا سيد أفندى · تبحث لها عن حمار غيرى· أذهب اليها بسيارة محملة بالهدايا وأتحمل وأصبر ويكون هذا جزائى ؟

فقلت : ألا تخبرنى ماذا حدث ؟

فقال : اسمع يا سيدى · ذهبت الى البيت وكانت ست فطومة تستعد للخروج · أتدرى مع من ؟ أتعرف الست هدى ؟ النهاية ، وحلف

الشـــيخ مصطفى بالطـــلاق ، وبكت الست فطومة ، ورق قلبى لها واستسمحت الحاج مصطفى حتى قبل أن تذهب بشرط أن أكون معها · ونظرت الست هدى الى وجعلت تفحصنى من رأسى الى قدمى ، ثم قالت « بكل سرور » · ورحنا الى بيت الست هدى فى الزمالك ، فيـلا أنيقة وحديقة وصالة فخمة وجلسنا ننتظر الضيوف · كانت حفلة يا أستاذ فيها رجال ونسوان وبعد ساعة امتلأت الصالة وصارت هيصة · تعرف من كان الضيف العظيم يا أستاذ ؟ سى محمود خلف · يا خبر ! وعرفت القصة من عنوانها وبدأت أفهم · وقلت لفطومة « يلا بنا ! · » وكأنى كفرت · قالت مسـتحيل ، وهات « يا فـلاح ويـا دون ويـا حمار حتى أخجلتنى » ، ومع ذلك قلت لنفسى « هدىء نفسك يا حمادة » · وبعد ربع ساعة جاءت الست هدى تضحك وتطلب فطومة للمقصف · أى مقصف يا ست هدى ؟ ورنت الضحكة وقالت لى « تعالى معنا يا سى حمادة » ، والبنت تكسف البـدر والعيون كلها متجهة الينـــا ، وغلى دمى وقلت الأمر لله ، هى المرة الأولى والأخيرة وهدىء نفسك يا حمادة · وذهبت ست فطومة وجلست أنظر اليها من بعيد وهى تضحك مع الضيوف ، ولو كانت صاعقة نزلت على رأسى من السماء كان أهون على يا سيد أفندى · وبعد قليل ذهب محمود اليها وكلمها وضحك معها · وأحسيت برأسى تلف فوقفت على رجلى وقلت ليلته زفت · ولكن العيون كانت مفتحة لى وأقول لك الحق تسمرت فى مكانى · النهاية يا أسـتاذ فاتت الليـلة بالطول أو بالعرض ورجعنا الى البيت وطول الطريق « أخجلتنى يا فلاح يا دون يا حمار يا · يا » لا مؤاخذة يا سيد أفندى · وما صدقت أننا وصلنا الى البيت وقلت يحرم على دخوله · أنا من هنا وهى من هنا · تبحث لها عن حمار غيرى · من الليلة مسافر الى دمنهور وربنا يلطف بك وبنا يا أستاذ ·

وكنت أنصت اليـه فى اهتمام وقلق ، وشـعرت بشىء كثير من الضيق والأسف · لم يكن عدول حمادة عن زواج فطومة هو الذى يزعجنى ، بل كان مصير فطومة · بهرتها أضواء المدينة كما تنجذب الفراشة الى المصباح الذى يحرقها · أهى سوق رقيق جديدة ؟ بخور يحرق للشيطان من جثث فطومة وأمثالها ·

وتنبهت الى صوت حمادة وأنا غارق فى تفكيرى وكان يسألنى قائلا : ما رأيك يا أستاذ ؟

فقلت غائبا : فى أى شىء ؟

فقال : فى زواج صاحبك عبد الحميد ·

فقلت : هل يريد الزواج ؟

فأجاب : أما كنت أقول لك انى أحب ان أعرف رأيك ؟ اذا كنت تريد أن تزوجه الست منيرة كان بها ٠

فقلت : وهل هذا من شأنى ؟

فقال : ومن شأن من غيرك ؟

فقلت : ماذا تقصد ؟

فقال في تردد : أريد أن أسأل ٠ المسألة بسيطة ٠ أظن أن عبد الحميد افندى يريد أن يخطبها ٠ فاذا كنت توافق انتهينا ٠ وأما اذا كان لك رأى آخر ٠٠٠ احب أن أعرف لأنى أريد أن أبحث ٠٠٠

وتردد لحظة فاتحا فمه في ابتسامة بلهاء ، واستمر قائلا فى تعثر : هل ترضى بى أنا ؟ سأبنى لها فيلا ، والمهر كما تحب ، والأشيا رضا والحمد لله ٠

فلم أتمالك أن قهقهت من المفاجأة وقلت :

ـ الله يجازيك يا حمادة ٠

وخبطت على كتفه بيدى قائلا :

ـ ليس هذا من شأنى ٠ منيرة هى صاحبة الرأى الأول والأخير فى نفسها ٠

واستمرت الضحكة البلهاء على وجه حمادة مدة طويلة ، كما بقيت ضحكتى فى قلبى طوال اليوم ، حتى جاءت منيرة لزيارتى فى ساعة العصر فكانت موضع فكاهتى معها ٠

ولست فى حاجة الى أن أعيد هنا أنى قطعت الأمل من الخروج من السجن ، اذ كان المدعى العام يسير فى التحقيق ، على أكثر من مهله ٠ ومرت الأسابيع تتوالى على وتيرة واحدة ٠ فكنت أقضى الأيام والليالى فى القراءة أو الكتابة أو فى الحديث مع زملائى فى السجن ٠

ولما بدأت السنة المدرسية سافر عبد الحميد الى دمنهور ٠ فصارت زيارة أمى وأختى مرة واحدة فى كل أسبوع ، كلما جاء عبد الحميد من دمنهور ٠

ولم يقطع هذه السلسلة المتصلة من الحياة الرتيبة الا حوادث قليلة فى مدة الشهور الباقيـة التى أقمتها فى السجن ، وأولها اتمام النيابة التحقيق فى قضيتى ، ورفعها الى قاضى الاحالة الذى أحالها بدوره الى محكمة الجنايات ٠ وصدر الحكم آخر الأمر بحبسى ستة أشهر لأن القضاء استطاع آخر الأمر أن يجد في مقالاتى جريمة العيب فى الذات الملكية ـ

ذلك الشىء الذى يمس من قريب أو من بعيد ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، تصريحا أو تلميحا تلك الذات ·

وكان أثر الحكم عندى أقرب الى أن يكون ارتياحا ، لأنى كنت أقمت بالسجن خمسة أشهر ولم يبق على من المدة التى حكم بها على الا شهر واحد · كنت مثل بحار فى سفينة تتخبط فى الضباب وهو يمسك قلبه فى كل خطوة حتى لا يستسلم لليأس · ثم رأى فرجة فى الظلام ولمح الشاطىء أمام عينيه · فمنذ علمت بالحكم تبدل استسلامى الى إستبشار وزال ضغطى على نفسى ، وكبتى لخلجات أملى ، وبدأت أطلق العنان لأحلامى وسبحات خواطرى ، وكان كل يوم يمر يبعث الى هزة جديدة من التطلع الى الساعة السعيدة التى عرفت أنها آتية فى موعدها ·

ومن واجب الوفاء على لهذه الأيام الأخيرة من اقامتى بالسجن ـ وقد نقلت الى سجن مصر ـ أن أذكر هنا أننى مدين لساعاتها الهادئة بكتابة أكثر فصول هذه القصة · وكان هواء الخريف أرفق بى ، وبدأت الأيام تقصر ، وكان ذلك يتيح لى فراغا كبيرا للقراءة والكتابة لأنى أكثر اقبالا على العمل فى الليل ·

وقد حدث أمر آخر كان له أثر كبير فى نفسى قبل يوم الحرية الموعود بأسبوع واحد ، اذ جاءنى عبد الحميد مع أمى وأختى ، وجرى الحديث بيننا حول ميلادى الجديد بعد خروجى من السجن · وكانت أمى تردد رغبتها فى أن أذهب الى دمنهور وأنفض يدى من الكتابة التى تقذف بى الى السجن ·

وأما منيرة فكانت تعارض هذا الرأى وترجو أن أقيم فى بيت محترم حتى تستطيع زيارتى بين حين وآخر وتتمتع بمشاهد القاهرة التى لم تزرها مرة واحدة فى مدة اقامتى بالسجن · وقد علمت من خلال هذا الحديث لأول مرة أن بريد الأحرار عاد الى الظهور منذ شهر بعد خروج الأستاذ على مختار من السجن ، فكان من الطبيعى أن انحاز الى رأى منيرة فى البقاء بالقاهرة ·

وقالت منيرة فى حماسة :

ـ على كل حال لا يليق بنا أن نسافر الى دمنهور قبل أن نقضى بضعة أيام مع منى ·

وتمالكت نفسى حتى لا أصيح أو أثب من مكانى وقلت فى هدوء :

ـ أين ؟

فقالت منيرة : هنا فى القاهرة · نسيت أن أعطيك خطابها ـ أين هو يا أمى ؟ هل أخذته منى يا عبد الحميد ؟

فقلت محاولا أن يكون صوتى طبيعيا :

ـ ومتى بعثت بذلك الخطاب ؟

فقال عبد الحميد : طلبت منيرة منى فى الأسبوع الماضى أن أمر على بيت منى لأسأل عنها وعن صحة السيدة الكبيرة ، فأرسلت منى معى هذا الخطاب ·

وأخرجه من جيبه وقدمه الى منيرة ·

فقالت ضاحكة : لماذا أخذته منى ؟ كنت أحب أن أقرأه مرة أخرى ·

وفتحته وأخذت تنظر فيه وكان قلبى يدق عنيفا ·

وقال عبد الحميد باسما : لم آخذه الا لأنك قذفت به على مقعد السيارة ·

فقالت منيرة : سأقذف به مرة خرى لأنى لا أفهم منه كلمة ·

ومدت يدها نحوى بالورقة الزرقاء ، وكانت مكتوبة بخط صغير أنيق ، تذكرته عندما وقعت عينى عليه · هكذا كتبت لى فيما مضى ورقة صغيرة بمثل هذا الخط تقول لى : « ألف شكر » · وأخذت أقرأ فى صعوبة لأنى كنت أنا الآخر ضعيفا فى اللغة الفرنسية :

قالت منى تخاطب منيرة بما يقرب من هذا المعنى :

« كنت فى هذه الأشهر الماضية أقاسى متاعب كثيرة ما بين مرض أمى وبعض « مشكلات عملية » أخرى ، لم يسبق لى عهد بها · وكنت أنتظر منك زيارتى ولكنك انقطعت عنى ، حتى خفت أن تكونى مريضة ، فأرسلت أسأل عنك وعلمت أنك سافرت مع الوالدة الى القاهرة · وكان من الطبيعى أن أفهم من ذلك أنك سافرت للتمتع بمشاهدة العاصمة الجميلة ، فعدت الى مشاغلى الثقيلة وكنت أتمنى لو كنت الى جانبى ، كما كنت أتمنى أحيانا لو كان سيد هنا ليتحمل بعض هذه المتاعب نيابة عنى » ·

ومن الواضح أنى عندما قرأت هذه العبارة أعدت قراءتها مرارا وشعرت بسعادة عظيمة · وقرأت بعد هذا :

« لا يمكنك أن تتصور برد دمنهور فى هذا العام ولا تلك الأمطار التى لا تنقطع فى الليل ولا فى النهار ، وهذا ما زاد صحة أمى اعتلالا · لهذا لم أحاول أن أعرف شيئا من أخبارك حتى زارنا الأستاذ عبد الحميد ليسأل عنا ويهدى الينا تحياتك الكريمة · ولأول مرة عرفت منه السبب

المؤلم الذى جعلك تسافرين الى القاهرة · فأنت مثلى اذن بل أشد منى ضيقا · أنا آسفة من أجل سيد وان كان حبسه لا يدعو الى الخجل ، ولا عار عليه أن يحبس فى تهمة صحفية · ولكنها على كل حال كانت مفاجأة شديدة الوقع على وعلى والدتى حتى انها بكت وكادت تبكينى · ومما يدعو الى الارتياح أن سيد سيخرج كما علمت من أسبوع واحد ·

كان الأطباء قد أشاروا على أمى بتغيير الهواء فعرضت عليها أن نسافر الى القاهرة لنقيم بها بضعة أيام، فرحبت بالفكرة وأظن أنها ستكون فرصة طيبة لنرى المتهم البرىء ونهنئه بالخلاص ، ما دمنا لم نقدر على مواساته فى أيامه القاسية · سأكتب اليك بيوم حضورى والى اللقاء يا منيرة · وأنا واثقة من أنك ستقومين مقامى فى تقبيل يد الوالدة وأبلاغ اعتذارى الى سيد ··· » ·

وكان قلبى يثب عنيفا عند كل كلمة تذكرنى منى فيها ، ولم أرفع رأسى عن الخطاب حتى قرأته مرة أخرى ووقفت عند كثير من فقراته لأقرأها مرارا ·

وحاولت أن أكون طبيعيا أيضا عندما رفعت رأسى آخر الأمر لأعيد الخطاب الى منيرة ، ولكنى لم أستطع أن أخفى حماستى عندما سألتنى منيرة عن رأيى الأخير فى السفر الى دمنهور عقب خروجى ، فقد أجبتها سريعا :

ــ لا شك أننا ننتظر هنا ·

وقبل أن يودعنى عبد الحميد عائدا الى دمنهور همس فى أذنى : أحب أن أحتفل بخروجك من السجن بطريقة لا تنسى ·

فقلت فى هدوء : هل تكون هنا فى الأسبوع المقبل ؟

فأجاب باسما : هذا يتوقف على ارادتك ·

فقلت باسما : ماذا تعنى ؟

فقال هامسا : أعنى أنى أحب أن أسألك هل توافق أن أحتفل بخروجك فى الأسبوع المقبل بطريقة مبتكرة ؟ ما رأيك فى أن أقيم لك احتفالا أقدم فيه شبكة منيرة ؟

فانطلقت منى ضحكة لم أملكها وقلت :

ــ أتسألنى أنا ؟

فقال ضاحكا : انا ايضا دون كيشوت بغير ان ادرى · لم أجرؤ ان أسال غيرك ؟

فضغطت على يده قائلا : لا تكن أبله ·

ولاحظت أنه تحاشى الاقتراب من منيرة وهو منصرف ، كما لاحظت أن منيرة نظرت الى فى شىء من الارتباك وهى تودعنى ·

وامتلأ قلبى بعد انصرافهم بسعادة لا توصف وكنت اردد الدعاء لأختى وعبد الحميد بالسعادة · وبقيت طوال الأسبوع الأخير أطوى فى صدرى الأمنية الكبرى التى أنتظرها ــ سأخرج من السجن والقى منى ·

- ٣٢ -

كما يولد الانسان ميلادا جديدا ، خرجت من بين جدران السجن وبدت لى الدنيا فى ألوان زاهية لم يسبق لى عهد بمثلها من قبل · صار الهواء يملأ صدرى عاطرا والضوء يملأ عينى بهيجا ، ونضرة الأشجار ترطب قلبى اذا أظلتنى ظلالها · وما كان أسعدنى أن أسير فى الطريق فى ساعات الصباح الباكر ورذاذ المطر يتطاير فى وجهى ، أو عندما كنت أجول فى حدائق الجزيرة فى ساعات العصر والأزهار تتناجى بألوانها الباهرة · من قال ان فى القاهرة شتاء ؟ انه ربيع باسم ذلك الذى استقبلنى بعد خروجى من السجن وجعلنى أزداد غراما بهذه الأرض العزيزة · وبعد أن مرت فرحة الأيام الأولى بعد خروجى ، حقق عبد الحميد ما عقد عليه النية من التقدم الى منيرة ، ولم أسمح لأحد أن يسألنى عن شىء فى أمرها مكررا فى كل مرة قولى : « ليس هذا من شأنى » ·

المرأة هى التى تختار وقد خلقها الله لتختار وعليها وحدها يقع كل العبء فى الاختيار · هى التى ينبغى لها أن توجه حياتها ما دام الله قد وهب لها عقلا ووهب لها غريزة · النساء ينطقن بوحى الغريزة بأصدق مما تنطق العقول ، وليس من الضرورى أن تقول الفتاة : « نعم أرضى » ، فان ردمويا وحدها تستطيع أن تغنى وترقص وتحرق البخور لنجم الشعرى ثم تسأل قلبها ليهديها ، فينطق لسانها فى صراحة · لم تقل منيرة شيئا عندما سألها عبد الحميد : « أترضين بى يا منيرة ؟ » · وكانت عند ذلك فى غرفة الجلوس بمنزل عمة عبد الحميد فى اليوم الرابع لخروجى من السجن · وكانت أمى تصلى فى البهو المجاور وكنت أنا غائبا فى أول زيارة للأستاذ على مختار ·

وقد أخبرنى عبد الحميد أنها لم تقل له شيئا بل خجلت وخرجت من الغرفة صامتة · وكان مشفقا أن يكون قد آذاها أو سبب لها حرجا ، ولكنى كنت واثقا من رضاها · كان ذلك يبدو واضحا فى كثير من الأحيان فى الكلمة العابرة والنظرة السانحة ، ولم يخب ظنى عندما سألتها · عندما وجهت اليها سؤالى : « أترضين بعبد الحميد ؟ » ·

أجابت قائلة : « هذا من شأنك أنت يا سيد » • ثم انصرفت من أمامى •

وكانت سعادة عبد الحميد ظاهرة فى نظرته الشاكرة عندما قلت له « أهنىء نفسى » • وتم الاحتفال بعقد الزواج بعد يومين وكان بسيطا وسعيدا •

وكانت مقابلتى للأستاذ على مختار صدمة شديدة لم آكن أتوقعها • كنت متوقعا أن يهب واقفا ليفتح لى ذراعيه ، وهممت أنا بأن أستقبله فاتحا ذراعى أيضا كما يفعل الشركاء فى الجهاد عقب المعركة • ولكنى وجدته رجلا آخر غير الشاب الواثق بنفسه الهادىء المسيطر • كانت نفسه تقطر مرارة وهو يجيبنى عن أسئلتى وقال فى حنق مكتوم :

ـ لن أقيم فى هذا البلد بعد هذا •

فقلت ملطفا : هذا شعور مؤقت ، وسيزول بعد قليل لنعيد الجهاد مرة أخرى •

فنظر الى نظرة حانقة ثم قال :

ـ من أجل من ؟

فقلت محتجا : من أجل من ؟ من أجل أنفسنا • من أجلك ومن أجلى ومن أجل كل من يعيش ويتألم • من أجل أبنائنا الذين ما يزالون يتألمون ، لا تدع هذا العارض يضعف نفسك •••

فقال فى دفعة : عارض ؟ أتسميه عارضا أيها الرجل وقد كاد يذهب بحياتنا ؟ أما مرضت أنت كما مرضت أنا وقاسيت أنت كما قاسيت أنا ؟ ألم تجرب ما فى قلوب هؤلاء من وحشية ؟

فقلت فى دفعة أخرى : فليكن يا سيدى • لم نكن هازلين عندما تعرضنا للمعركة • كنا نعلم أنها معركة عنيفة مع قوى طاغية ، بل لقد عزمنا فى بدء الأمر على أن نثير المعركة من أجل هذه القوى الطاغية •

فأشار بيده اشارة يأس قائلا : هى ألفاظ يا سيدى نحاول أن نخدع بها أنفسنا • أتعرف مقدار ما أصابنى من الخسارة ؟ أما عرفت أننى قضيت أسبوعين بين الموت والحياة •

فاندفعت قائلا : وماذا لو لقينا الموت يا سيدى ؟

فضحك ساخرا لأول مرة وقال : هذا شىء آخر • هذا لم يدخل فى حسابى يا سيدى • لست أريد ان أضللك أو أن أقول كلاما ضخما

لأخدعك ، لأنني أعرف أنك تفهمني عندما أقول لك رأيي صريحا · عندما نقول اننا نريد الجهاد فاننا نقصد أننا نجاهد بآرائنا لا بأجسامنا · أظننا لم نقصد أن نموت الآن يا سيدي ·

فقلت : اننا لم نمت بعد ·

فقال مشيرا بيده مرة أخرى اشارة اليأس :

ـ هذا رأيك يا صديقي · وأما أنا فقد عزمت عزما أكيدا على أن أترك هذا البلد في أول فرصة · لا مقام لي هنا ·

فقلت : الى أين ؟

فقال في ضيق : لم أفكر بعد · الى أي ركن من أركان الأرض لأعيش انسانا ·

فأحسست أنني حيال رجل اما أن يكون محطما في ساعته تلك ، واما أن يكون طفلا ، وقلت في نغمة ساخرة :

ـ لم تفكر بعد ، ولكنك تعزم عزما أكيدا ؟

فقال في شيء من الغضب : ماذا نصنع هنا ؟

فقلت : بل ماذا تصنع في غير هنا ؟ هنا بلادنا ولا مفر لنا من أن تكون هي بلادنا · أي بلد يقبلك كأحد أبنائه ؟

أتقبلك انجلترا أو فرنسا أو أمريكا أو غيرها لتكون ابنا من أبنائها؟ لن تكون هناك الا نزيلا غريبا تقضي أيامك في فراغ · أم تريد أن تذهب الى بلد شرقي يمكن أن يكون أقرب اليك ؟ أين ؟ تعيش في تركيا ؟ في سوريا ؟ في العراق ؟ في السودان ؟ تعيش هناك على هامش الحياة وأهل تلك البلاد يجاهدون كما نجاهد نحن ؟ هل ترضى أن تكون غريبا بين قوم يجاهدون من أجل أنفسهم وأنت ساكن ؟ أم تريد أن تشارك هؤلاء في جهادهم وتتخلى عن الجهاد هنا ؟

فسكت ناظرا الى نظرة حزينة ، وعلمت أنه يعاني صراعا عنيفا في أعماق نفسه ، فأشفقت أن أزيده ضيقا وسكت آسفا · وقلت في نفسي ان الوقت كفيل بازالة الذكريات الأليمة ·

ولكنه لم يلبث أن صدمني صدمة أخرى أعنف من الأولى عندما قال لي :

ـ على كل حال يا أستاذ سيد ، هذا موضوع آخر ·· أما عملنا في هذه الجريدة فسيستمر طبعا · وقد أطلب منك قريبا أن تقوم على ادارة

الجريدة بدلا منى . سيستمر مرتبك كما كان على أن تكتب للجريدة قصة كلما أردت .

وشعرت بالدم يصعد رلى راسى. أكتب قصة ؟ أليس الأمر أخطر من أن أكتب قصة ؟ وهل أستطيع أن أكتب كل يوم قصة فى الموضوع الواحد الذى يستولى على كل عقلى وقلبى ؟ ما هو المصير الذى نتجه اليه ؟ وهل يفرغ ذهنى الى أن أعيش مع الصور فى قصة وأنا أرى الحياة من حولى تفور وتنفجر ولا يدرى أحد ماذا يحدث فيها غدا ؟

وقلت مختصرا : أرجو لك التوفيق يا سيدى .

واستأذنت منصرفا حتى لا أزيده ضيقا اذا نطقت بالكلمات التى وثبت الى طرف لسانى .

وخرجت من عنده والأسف يختلط فى قلبى بالحنق والحيرة والعجب، وخطر لى خاطر قوى أن أنقطع عن بريد الأحرار مهما كلفنى ذلك من المتاعب ، بل لقد هم بنفسى وأنا غاضب أن أعيد اليه مرتب الشهور الستة التى بعثت بها الجريدة الى أمى فى مدة السجن ، ليكون جوابى شافيا لغضبة قلبى . ولكنى لم ألبث أن سريت عن نفسى أثر هذه المقابلة واقبلت على الفضاء الطلق أعب منه حتى أروى بعد طول تعطشى اليه . وكان عبد الحميد فى أجازة نصف السنة ، ولكنه كان مشغولا عنى برحلاته مع منيرة ، فكنت أخرج وحدى كل صباح قاصدا أحد الأطراف البعيدة لأقضى فيه يوما بعيدا عن ضجة المدينة لأفكر فيما أستقبل به حياتى الجديدة . نعم كانت حياة جديدة بعد ميلاد جديد . وذهبت يوما الى الأهرام مبكرا لأتمتع بجولة الى جانب الأثر الأشيب الذى يجتذب طلاب الروعة من أركان الأرض . وكان الناس هناك ينتشرون فى الهضبة بعضهم يسير فى جماعات مرحة والبعض الآخر يسير مثنى ، ولم يكن من يسير وحده غيرى . فسرت فى صحبة أفكارى حتى وصلت الى قريب من الاستراحة الملكية فتنبهت الى صوت الحارس الذى يزجرنى لأبعد . وقلت فى سرى : فرعون القزم هنا ؟

ووثبت الى صدرى كل مشاعر الحنق الذى كنت أكبتها حتى لا تعذبنى فى أيام سجنى . هذا الرجل الذى تعذبت من أجله يقيم هناك ليتنزه ، ولست أدرى مع من يقيم فى تلك الاستراحة . بنى فرعون خوفو هذا الأثر الخالد لأنه كان يطلب مثوى لروحه وهذا فرعون القزم يطلب استراحة لجسده . وتأملت من بعيد هندسة بناء الاستراحة ونقوش مداخلها فبدت لى كأنها تسخر من نفسها وقلت فى نفسى :

ـ هكذا يزيف طالب المتعة فن القدامى . كان ذلك الفن فى عصره رمزا للجلال الذى يملأ القلوب عندما كان الناس يؤمنون بشىء جليل فى

قلوبهم : ولكنه اليوم لا يزيد على حلية مزيفة • وبدت الاستراحه فى عينى مثل مرقص خليع فى هيكل عبادة • أما كان أولى بفرعون القزم لو بعد قليلا عن الأثر الجليل حتى لا تبدو السخرية واضحة ؟ وأية سخرية ؟ وماذا يصنع كل هؤلاء المنتشرون فى الهضبة سوى أن يسخروا عند أقدام الهرم ولا يشعرون له اجلالا ، ما دام فرعون القزم يضرب لهم المثل فى السخرية ؟ ومن هذه الفتاة ؟ هل أصدق عينى ؟ أهذه فطومة ؟

كانت فطومة تسير على مسافة منى وهى تميل على ذراع محمود خلف عند زاوية الهرم الشمالية،وكنت عند ذلك مرتدا من ناحية الاستراحة • ووقفت مترددا بين أن أذهب اليها لأصفعها وبين أن ألتمس لنفسى مكانا أتوارى فيه • وغلب على الرأى الأخير فاتجهت مسرعا الى حرف الهضبة الهابط الى الغور المنخفض الذى تلوح فيه بركة ماء من بعيد ، فانحدرت متعثرا فوق السفح • ثم بدا لى سخفى فعدت أدراجى واتجهت الى المنحدر الذى يؤدى الى محطة الترام • وكان رأسى مشغولا بصورة فطومة الغادة فى ملابسها الأنيقة وحليها الكثير ، وقوامها الرشيق وهى تميل على ذراع محمود • وتلفت قبل أن أهبط فى المنحدر فرأيتهما من بعيد بين الجموع الواقفة تتطلع فى فضول نحو الاستراحة لتخطف نظرة من فرعون القزم• ثم خفضت رأسى كأنى أتحفز لصراع وأسرعت فى حنق متجها الى محطة الترام •

وقضيت مدة سيرى الى القاهرة مضطرب الفكر بين أحاديث مختلفة تتدافع ليحل بعضها محل بعض فى عنف • ذلك الحكيم الذى صمم بناء الهرم الجليل كان شاعرا عظيما أو فيلسوفا كبيرا فوق أنه كان فنانا • أى ايمان ذلك الذى كان يحرك قلبه ويجعله يجرؤ على هذا العمل الهائل ؟ وفرعون الصغير يعود فى موكبه ولا يسمح للترام أن يسير حتى يمر الموكب • وفطومة ومحمود يبقيان هناك الى جانب الهرم ، واخجلاه ! الساخرون الذين لا يرهبون من شىء مقدس ، والأغبياء الذين يقصر ذكاؤهم عن ادراك المعانى الجليلة يمرحون فى تفاهتهم ، ولا يحسون أننا جميعا فى الطريق الى الهاوية• وبدلت الترام عند الجيزة بغير أن أفكر وسرت فى ترام آخر بغير أن أفكر • كان ذهنى يدور فى أفكاره المضطربة عودا على بدء بغير توقف • وتنبهت آخر الأمر عندما قربت من ميدان قصر النيل وكان هناك صف طويل من عربات الترام يسد الطريق • فنزلت لأرى منظرا لم يخطر ببالى ، وكان الناس يتسارعون فى كل اتجاه فى هلع ويقولون : « القاهرة تحترق » ، فأسرعت الى شارع سليمان باشا وكانت النيران تندلع من شارع البستان والجموع الهائجة تسيل بالطرق فى كل اتجاه •

وجريت الى ميدان سليمان وكان شعلة من اللهب . ماذا حدث ؟ وجريت الى شارع قصر النيل فعماد الدين فشارع فؤاد وكنت ألهث من التعب ولا اقدر أن أقف . كنت أريد أن أعرف الى أين ينتهي الحريق . هل القاهرة كلها تحترق ؟ هل هي ثورة ؟ كان شارع فؤاد أيضا يشبه حاجزا من اللهب في معركة دموية ، والجموع المتدافعة تنساب كمياه السيل في كل شعب من الطريق . جموع تقتحم المتاجر وأخرى تتدفق صائحة هائجة . أهكذا تندلع الثورة فجأة ؟ ومررت أمام متجر مانويل الفخم ، وكانت ألسنة اللهيب تطل من نوافذ الطبقات المتتالية كأنها تشير الى الطريق تطلب الغوث . وأين الاسعاف ؟ ولم يكن هناك أيضا رجال مطافيء كأن المدينة قد خلت من الحكومة . وانساب نهر من الجموع الى ميدان الأوبرا ونهر آخر الى شارع ابراهيم ، وفي مقدمة كل فرع بعض أفراد يسيرون كأنهم طليعة . أهي ثورة مدبرة ؟ لم لا وفرعون القزم يلهو في الصباح في مخبئه ؟ وكان قلبي يثب كأنه يتداعى مع الأبنية المنهارة . أهذه هي الثورة ؟ هي جانب لا ينفصل عن الحكم الضعيف المزيف ، الذي لا بد أن ينتهي الى الثورة . ومع كل ما كان في نفسي من الهم والغم شعرت بأن شيئا جديدا قد حدث .

وتذكرت أن أختي وعبد الحميد كانا يعتزمان أن يخرجا الى المدينة في الصباح ، فجريت نحو المنزل . لم تكن هناك سيارة لتحملني ، وكنت متعبا ولكنني اندفعت بقوة مضاعفة .

وبلغت المنزل آخر الأمر ، وهدأت قليلا عندما رأيت أمي وأختي تنتظران في لهفة بالطبقة السفلى من الدار . وأخذتني أمي بين ذراعيها ثم ارتميت على كرسي خائر القوى .

سافر عبد الحميد ومنيرة الى دمنهور بعد اقامة أسبوعين أطلقا عليهما اسم أسبوعي الجبن لا العسل ، لأنهما لم يخرجا فيهما للنزهة في أرباض القاهرة فى النهار أو الى ملاهيها فى الأماسى ، لأن حريق القاهرة لم يدع لهما انشراحا الى الجولات التى أعدا خططها. كانت منازه طريق الأهرام وشواطىء النيل ودور التمثيل والسينما وأبهاء الفنادق الكبرى ومقاصف الريف - كل هذه كانت بين محترقة أو مغلقة . وكانت منيرة تخشى الخروج فوق هذا خوفا أو كما قالت هى جبنا من أن تعترضها ثورة جديدة على حين غرة ، كما اعترضتنى يوم خرجت للنزهة عند الاهرام فى الصباح فاذا هى تثور وتحرق قلب المدينة فى ساعة . وقد أصرا على أن يأخذا أمى معهما بعد أن عجزا عن حملى على الرجوع الى دمنهور . ولست أخفى أننى ارتحت الى هذا الرأى ، فما كان من اليسير على أن أتمسك بأمى لتعيش معى وأنا عاطل عن العمل منذ انقطعت عن بريد الأحرار .

ولما بقيت فى القاهرة وحدى وجدتها غير القاهرة الأولى التى أقبلت عليها مملوءا بالأمل والحماسة . كان فى جيبى ستون جنيها بعد أن قاسمت أمى فى الجنيهات المائة والعشرين التى أعادها الى عبد الحميد ، وكان لابد لى من الاقتصاد فى النفقة لأستكفى بذلك المال الضئيل أطول مدة ممكنة ريثما تسوق الى الأقدار عملا ليس فى حسبانى .

فاستأجرت غرفة فى فندق صغير فى حى سيدنا الحسين ، وكان من السهل على أن أجد هناك ما يناسبنى من الطعام الرخيص . فكانت الأيام تمر بى موحشة فى مدينة تموج كالبحر فى أعقاب عاصفة . كل يوم شائعة عن مخاوف غامضة ، والأرض تتزلزل تحت أقدام الحكومة الجديدة التى أعقبت حكومة الحريق ، وحلقات القهاوى المتواضعة تتناقش فى حنق ، وأندية الجمعيات الشعبية تحفل كل ليلة بهواة السياسة . واستعنت على قضاء الوقت الموحش بارتياد تلك المجالس على اختلاف ألوانها ومشاربها ، ولم أجد صعوبة فى الاندماج فيها ، فلم يمض الا أسابيع قليلة حتى كنت من اركانها واقطابها . وكان الجميع يقولون اننا على حافة هاوية ولا مفر لنا من التردى فيها ، يأس مظلم فى كل

مكان ، وحيرة مغلقة فى قلبى وسؤال واحد يعاودنى كل صباح وكل مساء « أين أذهب ؟ » . وكانت منيرة تبعث الى فى كل أسبوع مرة أو مرتين بخطابات لا تزيل وحشى بل تزيدنى وحشة وانقباضا ، وفى كل خطاب تعيد على عبارة تختم بها حديثها فتقول أحيانا « منى تسلم عليك وتريد أن تراك » . وتقول فى أحيان أخرى « منى تهديك سلامها وتسأل عن صحتك » . فكنت أفرغ من قراءة الخطاب فى شىء يشبه الحنق واضعه فى جيبى مكررا فى نفسى انها تسلم على وتسأل عن صحتى كما يفعل الناس اذا تلاقوا فى الطريق . ثم أزيد على ذلك أقوالا أخرى أشد قسوة لأنى كنت فى تلك الأيام قوى الشعور بأننى عاطل لا أعرف لنفسى وجهة أتجه اليها . ومع كل ما قاسيته من الوحشة والضيق والتعطل لم تسمح نفسى بأن أعود الى بريد الأحرار ولم أحاول أن أبحث عن عمل آخر . شىء واحد كان يبعث فى قلبى بعض الراحة وهو اتصالى بجمعية « شبان الفداء » ، التى كانت تعقد جلساتها فى بيت أحد أعضائها الطالب فى كلية الشريعة ، اذ كانت الخطب العنيفة التى تنطلق بغير تحرج ولا تحفظ كأنها قذائف من الرصاص تخفف من حنقى المكبوت . وكان نصيبى منها لا يفوتنى كلما اجتمعنا ، فأفرغ ما فى قلبى من الحنق على الطاغية والطغيان والفاجر والفجور، غير متورع عن التصريح بأنه الفرعون القزم . ولست أدرى كيف خفيت هذه الأحاديث عن آذان جواسيس الحكم . فانها لو بلغتها لما احتاجت النيابة الى تفسير أو تأويل فى اثبات تهمة العيب التى قضت خمسة أشهر فى اثباتها على فى المرة السابقة . ولكنى كنت فى كل مرة أذهب فيها الى تلك الجلسات الحامية أعود الى غرفتى فى أواخر الليل بأعصاب مشدودة تكاد تتمزق . وكان يضايقنى من المجتمعين فى الأندية والقهاوى أنهم لا يستطيعون غضبا الا اذا تحدثوا عن غلاء الطعام والكساء أو كساد التجارة أو ما يماثل هذا من هموم الحياة ولا يكادون يتحركون لفقدان الكرامة القومية أو الحريات أو العدالة. ولهذا كنت أقترب يوما بعد يوم من الشعور بالفشل ، وأن الثورة التى آمنت بها وتمنيتها ، ووقفت كل أملى عليها لا وجود لها فى القلوب. وبدأت أرى أن الثورة التى أرى علاماتها وأحس خفق أجنحتها فى الظلام ليست سوى ثورة أبدان أو ثورة خذلان كتلك التى أحرقت القاهرة . وبدأت أشفق وأتوجس حتى امتلأ قلبى غما وهما ويأسا . وفى يوم من الأيام كنت أؤدى فريضة الجمعة فى مسجد الحسين ، ولا أستطيع أن أصف حالى وأنا قائم أصلى . كنت لا أملك دمعى وأنا أقرأ ، وكأن كل عرق فى بدنى ينتفض من حزن غامض . وكان يستولى على شعور يشبه شعورى عقب وفاة أبى وأنا فتى صغير ، عندما خيل الى أننى أعيش فى فضاء لا وطاء من تحتى ولا غطاء من فوقى . وحاولت جهدى أن أتماسك ولكن الدموع كانت تغلبنى . ولما فرغت من الصلاة رأيت (خضرجى)

ساعي مكتبي في بريد الأحرار جالسا الى جنبي وسمعته يقول لي « أين أنت يا أستاذ سيد ؟ » . ومضت لحظة طويلة قبل أن أستطيع اجابته قائلا « كيف أحوالك يا أخي ؟ » .

فقال وهو يصافحني :

ـ « حرما ! تشجع يا أستاذ ! » .

فتذكرت كلمته التي قالها لي يوما وأنا في المحكمة وشعرت نحوه بشكر عميق وقلت مجيبا :

ـ جمعا ان شاء الله ، أشكرك يا صديقي .

وضغط على يدي قبل أن يرسلها وقال :

ـ الأستاذ يسأل عنك كل يوم .

فقلت متكلفا الهدوء : وكيف حاله ؟

فقال : مسكين يا أستاذ سيد . صار لا يطيق شيئا . انتهت مجالسه الحافلة التي كانت تؤنس الجريدة ، وفي كل يوم مصادمة مع محرر أو آخر . وأظنه استخرج جوازا للسفر الى أوربا . ولم يخل قلبي من الشعور بالأسف والعطف ، وتذكرت كيف كان يكرمني وكيف كان يشاركني في مشاعري . وقمت مع (خضرجي) خارجين من المسجد فتمسكت به ليتغدى معي . وذهبنا الى مطعم الدهان كما تعودت أن أذهب في كل جمعة كأنني أدخر منه ذخيرة لمدة الأسبوع . وقضينا معا بضع ساعات سعيدة بين الغداء وبين شرب الشاي في مقهى الفيشاوي، ولا أخفي أنني مع كل ما شعرت به من السعادة في مرافقة خضرجي والتمتع بحديثه ، أحسست في كثير من اللحظات بما يشبه الخجل من أن يراني بعض معارفي جالسا مع ساع في بدلته الصفراء . وقد كبحت هذا الاحساس في حنق وكررت لنفسي أن هذا الساعي لو وقف أمام الله الى جنب محمود خلف لكان هو الأكرم مكانا .

وحدثني خضرجي حديثا بسيطا لم أشعر معه بمضي الوقت ، ووجدته ملما بكثير من أسرار السياسة فزاد قدره في عيني فوق ما كان له من قدر في نفسي ، وتبينت أننا لا نلمح حقائق الناس الا اذا فتحت شدائد الحياة أعيننا . كل منا يعيش في عالم يغلقه من حوله ويقيم حوله الحواجز من كل ناحية فلا يبصر الآخرين الا من بعيد ، ولا يميز بعضهم على بعض الا بمظاهرهم .

واستمر خضرجي ينتقل من موضوع الى آخر حتى استرعى اهتمامي بقوله عن الأستاذ مختار :

ـ أظنه صار يخشى النورط ، كما يخشى النزول الى البحر من نجا من الغرق ٠

فسألته : ماذا تقصد ؟

فمال على المائدة التي بيننا قائلا :

ـ فضيحة الأسـلحة ! لا يرضى أن يكتب عنها ، مع أنها تفيـد توزيع الجريدة الى أكثر مما كان قبل اغلاقها ٠

فقلت : وكيف ذلك ؟

فأجاب : عندما قدمت القهوة منذ يومين لضيفه وجدتهما يتناقشان في شيء من الحماسة وأمامهما ظرف كبير ٠ فوضعت الفنجانين ولمحت على وجه الاستاذ تلك السحابة التي أعرفها عندما يكون في حيرة ٠ كان وجهه محتقنا ونظرته تطلب النجدة ٠ ولا تؤاخذني اذا اعترفت لك أن الفضول دفعني الى التجسس ، فعندما خرج الأستاذ يشيع ضيفه فتحت الظرف وقرأت عنوان الملف « فضيحة الأسلحة الفاسدة » ٠

ولما عاد الأستاذ طلب فنجانا آخر وأخذ يقرأ الأوراق متمهلا ووجهه يزداد احتقانا ٠ وعاد الضيف بالأمس ، وكانت بينهما مشادة عنيفة ، وأرسلني الأستاذ بعدها لأستخرج له جواز سفر الى أوربا ٠ ألا ترى أنه يخاف من التورط ؟

أين تقيم يا أستاذ سيد ؟

فقلت في تردد : في فندق الأميرة الصغيرة ٠

فقال وهو يهم بالانصراف : سيسره جدا أن يعرف عنوانك ٠ كل يوم يسأل عنك ٠ الى اللقاء يا أستاذ ٠

ومضى بعد أن حياني تحية حارة وشكرني ، وبقيت وحدي أجتر ما سمعته على مهل مع كأس أخرى من الشاي ٠ وخطر لي أن الأستاذ علي مختار ليس وحده الذي يشفق على نفسه من التورط ٠ وأي عاقل لا يخشى أن يذهب الى السجن بعد أن يذوقه مرة ؟ ذلك السجن الذي يحول القاتل الجبار الى جبان يرتعد هلعا ٠ ولكني عدت الى نفسي أقول ان اللوم علينا اذا تركنا أنفسنا لهذا الخوف ينحرف بنا عن غايتنا ، فلو خشي المجاهد في ميدان القتال أن يصاب بجرح مرة ثانية لما عاد الى الميدان أبدا ٠ والذي ينجو من الغرق مرة لن ينزل الى الماء اذا لم يقاوم خوفه من الغرق ٠

وهكذا مضيت في أفكاري حتى صارت الساعة الخامسة بعد الظهر ، فقمت أسير على قدمي نحو دار بريد الأحرار ، لألقى الأستاذ علي مختار ٠

- ٣٣ -

لم نلبث بعد أن لقيت الأستاذ على مختار أن بدأنا المعركة ثانية ، وأخذنا نواجه الموقف فى صراحة · ففى اليوم التالى لعودتى الى « بريد الأحرار » نشر المقال الذى كتبته بعنوان عريض على أنهار الصفحة الأولى كلها :

« الخيانة القومية الكبرى ـ فضيحة الأسلحة الفاسدة ـ نقتل أبناءنا بأيدينا ! »

ولم يخف الأستاذ على مختار شعوره الحقيقى عندما دخلت عليه فى الصباح وكان يقرأ المقال ، اذ قال لى بغير مواربة :

ـ هى معركة الحياة أو الموت يا أستاذ سيد ·

فقلت :

ـ بل معركة الحياة يا سيدى · وهل تستحق الحياة أن نحرص عليها اذا استمرت هكذا ؟

فضحك قائلا : كلمة جميلة عندما نسمعها بآذاننا فقط ·

فقلت جادا : بل نجدها جميلة لأننا نؤمن بها · من الطبيعى أن نحب العافية ونتحاشى الآلام والمتاعب ، ولكن من الطبيعى أيضا أن نخوض معركة ·

فقال باسما : قل أيضا انها طبيعة مهنتنا · هذه هى الحجة التى تجعلنى ألقى سلاحى · وعلى أية حال لم يصادر عدد اليوم ، وهذا دليل على أن القذيفة أصابت هدفها ·

وأدهشنى من الأستاذ على مختار أنه بدأ يتحول الى شىء يشبه حاله الأولى بعد بضعة أيام ، ونشط من الفتور الذى طرأ عليه وعاد مكتبه فى كل ليلة منتدى سياسيا يضطرم بالثورة ·

ولكنه كان مع ذلك لا يخلو من التوجس ، ففى كل صباح يبادرنى عندما أذهب اليه قائلا :

ـ لم يصادر عدد اليوم أيضـا ٠

وشغلتنى المعركة العنيفة عن كل شيء حتى عن أمي وأختى وعن منى ٠ وعادت الثورة تخفق فى قلبى وتضطرم فى كل مكان ، وكنا نتوقع أن تندلع فى كل صباح ٠ وماذا كان يجعلنـا نشفق من الثورة ؟ كان اليأس يدفعنا الى طلب التغيير ولو الى حريق أخرى ٠ وكما يحدث للمقاتل اذا حمى القتال فجعله لا يفـكر فى شيء غير القتـال ، جعلتنـا المعركة الصحفية لا نفكر فى شيء سوى الفضيحة المقبلة٠فضيحة القطن وفضيحة البورصة وفضيحة تجارة المخدرات وفضيحة الاغتيالات الجهنمية وعشرات أخرى ـ كل واحدة تثير زوبعة قبل أن تهدأ التى سـبقتها ٠ وفى غمار هذه المعمعة كانت منيرة تبعث الى خطاباتها بغير انقطاع وكل منها ينتهى بالعبارة المألوفة « منى تسلم عليك وتسأل عنك » فأطوى الخطاب فى شيء من الحنق وأضـعه فى درج مكتبى وأرسل جوابـا قصيرا أرد فيه التحية الجوفاء بمثلها « أرجو أن تبلغى منى سلامى وسؤالى عنها » ٠

هكذا مضت الأشهر واحدا بعد واحد حتى أتى الى خطاب من منيرة فقرأته مسرعا وكدت أضعه مع الخطابات الأخرى لولا أنى وجدت تغييرا فى الخاتمة : « منى تسأل عنك وهى متألمة منك » فوضعت الخطاب أمامى ونظرت الى الفضاء حيث كانت صورة منى ٠ ماذا تنتظرين منى ؟ وأينا الذى يغضب ويتألم ؟ هكذا قلت فى نفسى ونظرت الى الساعة فوجدتها الحادية عشرة ٠ وقمت لأسـتأذن فى أجازة قصيرة وأسرعت الى المحطة لأسافر ، وأخذت معى كتابا لأقطع على قراءته الطريق حتى لا أحس طول السفر ٠ وذهبت من تو وصولى الى دمنهور قاصدا الى بيت منى ، وكانت الساعة الرابعة عندما طرقت الباب ٠ وعرفتنى الخادمة ففتحت لى غرفة الاستقبال ٠

وكان الجو حارا فخلعت طربوشى ووضعت الكتاب الذى كان معى على منضدة ، ومكثت بضع دقائق أنظر حولى الى ما فى الغرفة وأنا أفكر فيما أقول اذا لقيت منى٠كانت الغرفة كما تركتها آخر مرة،الصورة الحزينة المجللة بالسواد ، والستائر المقلوبة ، والأوانى المنكسة ، وزادها كآبة شيء من الاهمال فى الترتيب والتنظيف ٠ وكان قلبى ممتلئا بالاشفاق والحزن عندما جاءت منى مثل زنبقة مشرقة ، وملابسها السود تجعل على وجهها مسحة من الصفرة ٠ وكان وجهها الباسم وعيناها الصافيتان تقولان مع لسانها « مرحبـا ٠ الحمد لله على السلامة ! » ومددت يدى الاثنتين لآخـذ يديها وأضغط بهما على صـدرى وأنا لا أدرى ماذا فعلت ٠ وكان خفقان قلبى يحول بينى وبين النطق ، وقالت منى وهى تجذب يديها :

ـ أهكذا لا تأتى الينا الا بانذار ؟

فقلت فى حرارة : كنت فى الانتظار دائما ٠

وتركت يديها وجلست وقلبى يدق عنيفا ٠

وقالت فى نغمة اعتذار :

ـ لو عرفت ما كنا فيه هذه الأشهر لما تأخرت هكذا عن الحضور ٠ فى كل أسبوع ننتظر الى الأسبوع المقبل بغير فائدة ٠

فقلت : وأنا أيضا فى كل يوم أنتظر الصباح المقبل بغير فائدة ٠ فى كل يوم أنتظر برقية تنبىء بحضوركم فلا يصل الى الا خطاب منيرة تقول لى انك تسلمين على وتسألين عن صحتى كما يفعل الذين يتقابلون فى الطريق ٠ أهذه هى الاشارة المنتظرة ؟

فضحكت قائلة : اذن فأنت الغاضب لا أنا ! وماذا كنت تريد أن أقول غير أن أسلم عليك وأسأل عن صحتك ؟ أتنتظر أن أرجوك الحضور حالا كما يفعل أصحاب الأعمال ؟

فقلت بصوت متهدج : اذن فأنا أعترف بخطئى ٠ كيف أنت وكيف صحة عمتى ؟

وكنت على وشك أن أسأل عشرات من الأسئلة لولا أنها قامت قائلة :

ـ هى أكثر زعلا منى ٠

وقمت معها فدخلنا الى حجرة السيدة وكانت جالسة على كرسى كبير الى جوار سريرها ، ومدت الى يدها قائلة :

ـ الحمد لله على السلامة ! أنت هنا أخيرا ؟

فقبلت يدها وقلت :

ـ بل كنت هنا دائما ٠

فضحكت ناظرة الى منى وقالت :

ـ ومن يقدر عليه فى القول يا منى ؟ تفضل هنا يا سيد ٠

وأشارت الى كرسى أمامها ٠ وجلست منى على حرف سرير أمها ٠

فقلت مبادرا : لست أقول كلمة جوفاء يا سيدتى ٠ فلو أطعت نفسى لكنت فى كل يوم هنا ٠

وقالت السيدة وهى تمد رجليها متألمة :

ـ آه يا ولدى ، ما أشد هذه الآلام التى أعانيها · كنا نود تبديل الهواء لعل هذه الآلام تفارقنى ، ولكن كيف أسافر هكذا ، والمشـاكل التى لا تنتهى ، والقـاهرة التى تحترق ؟ النهاية يا سيد الحمد لله على السلامة ! لقد حزنت والله عندما علمت بما حدث لك ، ولا أدرى ما هذه السياسة التى تعذبون أنفسكم فيها · رحم الله والدك العزيز يا منى كم قلت له أن يبعد عن السياسة ، ولكن الحمد لله على كل حال يا سيد · قولى له يا منى كيف كنا نقول « أين سيد ؟ » ·

فقالت منى ضاحكة :

ـ قبل أن يشرب القهوة يا ماما ؟

وكانت الخادمة فى تلك اللحظـة داخـله تحمل صينية القهوة ، فأخذت فنجانا كنت محتاجا اليه واستمرت السيدة فى حديثها ، وكان كل حديثها أو أكثره عن محمد خلف باشا وولده محمود : الباشا يحسب عشرة آلاف جنيه على التركة ويزعم أنه صرفها لحمادة الأصفر ، مع أن الجميع يعرفون الحقيقـة ، وايراد العزبة البحرية يهبط الى النصف ، خمسمائة فدان لا يزيد ايرادها على عشرة آلاف جنيه مع أنها من أجود الأطيان · والحديقة مائة فدان لا تأتى بأكثر من عشرين ألفا : الأسعار هابطة لورثـة السـيد أحمد جلال خاصـة ، والأقطان لا يبيعها بسبعة وعشرين جنيها لأن البرلمان سيرفع الأسعار ، ثم ينحل البرلمان والسيد محمود خلف يبقى فى مصر ليمشى على هواه · ومع ذلك فالباشا يطلب تحديد يوم الاحتفال بالعقد كأن السيد أحمد جلال مات من عدة سنين · واذا طلبنا التأجيل الى بعد مرور سنة على الوفاة أصر الباشا على تصفية الحساب وأخذ الأطيان ، كل الأطيان ، ثمانمائة فدان من أجود الأطيان ومن البساتين فى نظير ديونه · ومنى تزيد الأمور تعقيدا باصرارها على الرفض··

ونظرت الى منى عندما وصلت الى هذا الحديث وقالت :

ـ انظر يا سيد كيف صارت عقول بناتنا ·

وقامت منى خارجة من الغرفة فاستطعت أن أقول :

ـ أظن أن هذه الأمور تحتاج الى روية ، ولا فائدة من سردها هكذا ·

فقالت السيدة : وماذا نستطيع يا سيد ؟ نحن فى يد الباشا ·

فقلت : هذا ما أقصـده بقولى ان هذه الأمور تحتاج الى الروية ، حتى لا نضر بمصلحتكم ولا بمستقبل منى ·

فقالت : حقا ان محمود ولد فاسد ، ولكن هكذا الشبان اليوم • واظنك توافق أن نتصرف بحكمة •

فقلت : المهم أولا أن نفرق بين تسوية المصالح وبين موضوع العقد •

فقالت : اسمع يا سيد يا ابنى • أنت مثل ولدى والسيد أحمد كان يقول انك شاب عاقل ومثل ولده • ويجب علينا أن نتصرف بحكمة • يعنى يا ابنى نضيع أنفسنا ؟ ما معنى هذا العناد وكلما كلمتها قالت : « يكفينا أقل ما عندنا » ألست توافقنى يا سيد على رأيى ؟

وسكتت السيدة تنتظر جوابى وكنت لا أعرف الى تلك اللحظة ما السبب الذى حملنى على الاسراع الى دمنهور هكذا • وشعرت بأنى فى أحرج موقف وقفته فى حياتى • وكدت أصيح قائلا للسيدة : « هل منى جارية ؟ هل تريدين بيعها ؟ » •

وقلت بعد صمت طويل :

ـ المسألة دقيقة يا سيدتى وتحتاج الى كل حكمتنا • وأول ما يهمنا هو منى نفسها •

فقالت : طبعا يا ابنى • هذا ما أقوله لها • هى أول ما يهمنا طبعا ولا نريد الا أن نختار أحسن شيء لها •

فقلت فى دفعة : هل تختارين لها محمود خلف ؟

فقالت : جهل الشباب يمر يا ولدى •

فقلت : هناك شبان آخرون يا سيدتى • ويحسن أن نفرق بين تسوية المصالح وبين أمر الزواج •

فقالت فى شيء من الغضب : أين هؤلاء الكثيرون ياسيد ؟ أنرضى لها أحد هؤلاء الذين يتقدمون لها ؟ صعاليك تعلموا وتوظفوا بعشرين جنيها ، ويتجرأون على التقدم لها ؟ ماذا تصنع بهم منى ؟ أتختار أحدهم لتصرف عليه لتجعله انسانا ثم تقول للناس « هذا رجلى ؟ » •

فاطرقت صامتا وأظلمت الدنيا فى عينى ، وقمت قائلا :

ـ اسمحى لى الآن يا سيدتى • سأعود للحديث مرة أخرى •

وكنت أقول فى نفسى : لن أدخل هذا البيت بعد هذا •

وقالت السيدة : أين ذهبت منى ؟ هذا ما استفدناه من المدارس والكتب والعصر الحديث • يا حسرة عنينا ما كنا نجرؤ على أن نقول كلمة •

ورفعت صوتها تنادى منى •
ثم التفتت الى بنظرة التجاء قائلة :
ـ أرجوك يا سيد أن تساعدنى •
وجاءت منى، تنظر الى صامتة واستمرت السيدة تقول : ألست توافقنى يا سيد ؟
وخرجت الكلمات من فمى كأنى أنتزع خيطا من شوك ، وقلت :
ـ أظن الأمر كله يتوقف على رأى منى •
فقالت السيدة فى نغمة عتاب حانق :
ـ ولكنها فى حاجة الى النصيحة •
وأطرقت لحظة مفكرا أعيد فى ذهنى كلمة السيدة عندما قالت فى حنق :
« ماذا تصنع به منى ؟ أتصرف عليه ليكون انسانا وتقول للناس هذا رجلى ؟ » •
وقلت فى نفسى فى حسرة ساخرة :
« ماذا تصنع بى منى ؟ » •
والتفت الى السيدة وأنا أكثر ثقة فقلت :
ـ أرجو المعذرة يا سيدتى اذا لم أجد نصيحة ، فالمهم هو رأى منى •
لم أقل رأيا عندما تقدم عبد الحميد لأختى منيرة •
فقالت السيدة : ولكن هذا موضوع آخر •
فقلت فى اصرار : لو رفضت منيرة لكنت أوافقها •
فقالت فى دفعة : ولكن منيرة تستطيع أن تجد كثيرين مثل عبد الحميد يا سيد •
فقلت فى تحد : ومنى ؟
فقالت : كم فى المدينة مثل محمود خلف ؟ بل كم فى البلاد كلها ؟
فقلت فى شىء من الأنفة : اسمحى لى أن أخالف • المقاييس تختلف •
فقالت ووجهها يزداد حمرة : لا وجه للمقارنة يا ابنى •
وتدخلت منى فى الحديث قائلة : لماذا تتعبين نفسك يا ماما ؟ ألم نتفق على ترك هذا الموضوع نهائيا ؟

فقالت السيدة : ما معنى نهائيا ؟ يعنى أن نصفى حسابنا • ونضيع ثروتنا ؟

وبدات بينهما مناقشة طويلة لم أتدخل فيها لأنها تتصل بأرقام لا أعرفها ، وكانت السيدة تنطق بها فى حنق حتى خشيت على صحتها • وكنت فى أثناء هذه المناقشة صامتا أفكر حانقا فيما قالته السيدة ، ولكنى لم أستطع أن أظهر ما ثار فى نفسى • كانت كلماتها تصطدم بقلبى كأنها قذائف من الرصاص كلما سمعتها تساوم فى منى • وخرجت مستأذنا أكاد أترنح وقلت وأنا أتكلف الهدوء :

ـ أرجو لك العافية يا سيدتى •

فقالت منى ضاحكة : النتيجة أننا نسينا ما كنا نريده من سيد • كنا ننتظر حضوره كل أسبوع لنسأله عن رأيه ثم نضيع الوقت فى أحاديث أخرى • ما رأيك فيما يعرضه الباشا علينا • يريد أن يأخذ الأطيان ليستوفى بها دينه • هذا كل شىء •

ووقفت صامتا لا أدرى كيف أفكر فى تلك المفاجأة • وماذا أعرف فى هذه الشئون حتى أبدى رأيى ؟

فقالت منى مستمرة : ليس المهم أن تقول لنا رأيك فى الصفقة ذاتها ، فهذا أمر يتولاه المحامى والخبير وهما أعلم بهذه الأمور منا • الأمر كله يتعلق بك أنت • هل تستطيع أن تشرف على شئون المحلج اذا اتفقنا على التسوية التى يعرضها الباشا ؟ لست أجنبيا عنه ولا عن الذين فيه وثقتنا فيك مطلقة • ونظرت الى باسمة •

فقلت بغير تفكير :

ـ دعى لى وقتا لأفكر •

فقالت : لا حاجة الى العجلة فى الجواب • أمامنا وقت طويل قبل أن يفرغ الجميع من اجراءات الاتفاق • وستكون معنا غدا بغير شك لأننا ذاهبون جميعا الى العزبة ـ منيرة وعبد الحميد وماما وستعود ماما من هناك سائرة على قدميها • أليس كذلك ؟

ونظرت الى أمها التى كانت عند ذلك عابسة مطرقة تضع رأسها على يدها •

وخرجت لانصرف صامتا ولا أدرى ان كنت قد تبينت عند ذلك ماذا قالت منى لأنى كنت فى جدال عنيف مع نفسى •

وقالت منى ونحن سائران وهى تمسك بذراعى ٠

ـ هذه هى اللحظة الموعودة يا سيد ، اللحظة التى تقف فيها الى جانبى ٠

ونظرت الى عينيها وهى ترفع وجهها الى وكانتا مثل البحر الصافى العميق فى يوم من أيام الربيع الهادئة ٠ ودخلنا الى غرفة الضيوف لأستعيد طربوشى وكتابى فقالت منى :

ـ لم تقل بعد انك ستأتى معنا ٠

وكان وجهها فى عينى كما كنت أراه دائما مثل زهرة الفول فى الصباح اذا جللها الندى ، وعودها الرشيق مثل تمثال رائع ، ولو أطعت نفسى لركعت عند قدميها قائلا لها : « معبودتى ! » ٠

وأخذت يديها فوضعتها بين كفى ورفعتهما الى صدرى فى لهفة وقلت فى نفس مبهور :

ـ طبعا يا منى ٠ وهل أرفض السعادة ؟ هل أستطيع أن أقول لك « لا » ؟ ولكنى أجد فيما تعرضين على شيئا من المرارة وان كنت لا أدرى كيف أرفض ٠

فقالت : أى مرارة ؟

فاجبت فى هدوء : لست أعرف كيف تنظرين الى وأنت تطلبين منى أن أشرف على المحلج ٠ لن أستطيع عند ذلك أن أقول لك الكلمة التى عشت هذه السنين راجيا أن اقولها لك يوما ٠ لن أجرؤ أن أقولها لك اذا اشتغلت عندك ، ولا فرق بين أن أكون فى المحلج مديرا أو وزانا ٠

وتوقفت لحظة ، ثم تهدج صوتى وأنا أستمر قائلا :

ـ لم يكن لى فى الحياة الا حلم واحد وهو حبك يا منى ٠

ورفعت يديها الى شفتى فقبلتهما فى حرارة ٠

واندفعت قائلا :

ـ حبك هو الذى يدفعنى دائما ويوحى الى ويجعل لى فى الحياة غرضا ٠ ولست أحب أن أعرضه للسخرية حتى يقول أحد اننى أحب سيدتى ، أو يقول أحد انك تريدين أن تجعلينى انسانا وتقول للناس « هذا رجلى » ٠ وأنا آسف اذ أقول لك هذا فانى أبدو لنفسى جديرا بالسخرية وأنا أقوله ٠

فأطرقت برأسها ويداها ما زالت على صدرى ومالت حتى مس رأسها كتفى وقالت بصوت منخفض :

ـ لم تقول هذا ؟

وبغير أن أشعر بما فعلت ضممتها الى صدرى وقبلت جبينها ·

- ٣٤ -

تمر علينا أحيانا لحظات طويلة أو قصيرة نكون فيها مثل الريشة فى مهب الرياح المتعارضة لا نعرف لأنفسنا اتجاها ، وهذا ما حدث لى بعد خروجى من بيت منى . لم أدر ماذا أريد ولا ماذا أحس ، وتنـازعتنى دوافع متضادة كل منها يجعلنى أشك فى حقيقة آرائى وصدق مشاعرى . منى تسألنى أن أقف الى جنبها وتقول لى هذه هى اللحظة الموعودة ، وهناك فى القاهرة معركة كبرى فى سبيل الغاية التى آمنت بأن الحياة تنادينى من أجلها . وها هى ذى منى تستمع الى وأنا أقول لها فى أول مرة من حياتى « أنا أعيش من أجل حبك ، وأخشى أن أكون موضـــعا للسخرية » فتميل برأسها على كتفى قائلة « لم تقول هذا ؟ » .

وبقيت صورتها ونغمة صوتها تترددان فى كل كيانى وأنا أتحدث الى أمى وأختى وأستمع الى تحيانهما الممزوجة بالعتاب على طول غيبتى عنهما .

ولما جاء عبد الحميد فى ساعة الظهر كانت دهشته عظيمة لزيارتى المفاجئة وسألنى : متى جئت ؟

فقلت : فى قطار الصباح .

فصاحت منيرة : وأين كنت ؟

فأجبت فى نشوة : عند منى . ألم تبعثى الى أنها متألمة منى ؟

وأخذت عبد الحميد لنجلس فى غرفة الجلوس وأفضيت اليه بكل ما قلت وما قيل لى ، فخبط على كتفى قائلا :

ـ لأول مرة تستحق احترامى .

ودخلنا فى مناقشة طويلة بعد ذلك عندما ذكرت له تنازع أفكارى بين اجابة رغبة منى وبين تلبية نداء المعركة التى تنادينى .

فما كاد عبد الحميد يسمع كلمتى حتى انفجر ضاحكا وقال :

— لا تكن أحمق بهذا القدر · تستطيع أن تكتب ما تشاء وأنت هنا ، ولكنك لا تستطيع أن تقف الى جنبها الا هنا ·

والمناقشة تخرج فى كثير من الأحيان الى مكابرة يندفع اليها كل من طرفيها مع الكبرياء ، كأنها معركة يخشى كل منهما الهزيمة فيها · وهذا ما وقع بيننا لمدة ساعتين حتى جاء وقت الغداء وكل منا متمسك بآرائه · ومن العجيب أننى كنت أجادل صـــاحبى وأنا أحس فى الوقت عينه بسرور خفى كلما وجدت فى حجته قوة ، كأننى كنت أريد من المناقشة أن أقنع نفسى بأن عملى سيكون فى نظر الناس طبيعيا لا موضع فيه للسخرية ·

وكان اليوم التالى من أسعد أيام حياتى ، فذهبنا جميعا الى العزبة وهى لا تبعد عن دمنهور بأكثر من عشرين كيلو مترا ، وكانت قطعة جميلة من الهندســـة والخصب والذوق الجميل ، فى تنسيق طرقهـــا ونضرة زرعها وبهاء المسكن الأنيق الذى بناه السيد أحمد جلال قبل موته بعام واحد · وذهبت مع الأمانى الى أبعد مذاهبها عندما تخيلت نفسى مقيما فى ذلك القصر مع منى ومن حولنـــا ذلك الريف الجميل فى معزل عن الناس جميعا · ومرحنا فى ذلك اليوم السعيد · كأننا جميعا عدنا الى الطفولة حتى ان السيدة الكبيرة وأمى نفسها نسيتا أن للسن أو لآلام المرضى ضرائب لابد من الاحتياط لها ، ولكن العاقبة كانت على غير انتظار خاتمة طيبة لليوم السعيد ، فقد عادت أمى من تلك الرحلة بذخيرة من المرح والنشاط ، كما عادت السيدة الكبيرة تسير على قدميها كمـــا تنبأت منى · والشىء الوحيد الذى عكر بعض صـــفاء تلك الرحلة أن الســـيدة استمرت تجادل منى على طول طريقنا فى العودة وتصر على الاحتفـــاظ بالعزبة مهما كانت الظروف · ولكن منى تخلصت من المناقشة الحادة بضحكتها الوديعة قائلة : نستطيع أن نشترى أحسن منها · ولما عدت الى القاهرة كانت الدنيا تبدو فى عينى بألوان أخرى غير التى تعودت أن أراها وبدأت أنظر الى الأمور نظرة جديدة غير التى كنت أنظر بها ·

كانت الحكومة تتعاقب فى أسابيع قليلة ، وكل منها لا تدرى أين تضع أقدامها · وسألت نفسى مرارا أين تنتهى هذه المهازل التى يمثلها صغار فى أسماء منفوخة · أساليب واحدة وان تعددت الأدوار التى يمثلها كل منهم والنتيجة المحتومة واحدة · كنت كل يوم أسأل نفسى « الى أين نسير ؟ » ولم يكن لهذا السؤال الا رد واحـــد : ثورة أخرى مثل التى وقعت فى ٢٦ يناير الماضى · ولم لا ؟ غير أنى كنت أعود دائما فأقول « وماذا نجنى من مثل تلك الثورة ؟ وماذا يجنى الجسم العليل الذى تسممت دماؤه من انفجار جلده بالقروح ذات الصديد ؟ » ·

والآن تقترب نهاية القصة على فجاة كما تنتهى القصص الرديئة ، وان كنت أعتذر عن هذه النهاية المفاجئة بأننى لم أتعمدها لأن المقادير هى التى جعلتها تنتهى فجاة ٠ المقادير تصرف شئون الحياة كما تريد هى لا كما يريد الأحياء ، بل انى أستطيع أن أعتذر عن المقادير نفسها فأقول انها لم تدبر لهذه القصة نهاية بل دبرت بداية لقصة جديدة ٠ هكذا الحياة تسير فى سلسلة من القصص التى تنتهى كل منهـا الى بداية أخرى ٠ ولا يستطيع أحد أن يعلل حوادث المقادير مهما أوتى من الحكمة ، فكيف أستطيع أنا أن أعللها وما أوتيت من الحكمة شيئا ؟ كل ما أفخر به أنى آمنت بأن الحياة نادتنى وأن للأقدار حكمة وأننا نتجه فى الحياة كما توجهنا أسرار صغيرة عظيمة أو مواقف تافهة خطيرة ، لا ندرك قيمتها فى لحظتها ولا نعرف أنها هى التى وجهت حياتنا الا بعد أن نمضى على الطريق ويصبح من المحال علينا أن نعود أدراجنا ٠

قد يقول البعض اننا نملك مصائرنا وان الحوادث التى تقع لنا ما هى الا نتائج محتومة لمقدمات ثابتة ٠ وقد يكون هذا صحيحا ولكن نهاية هذه القصة تخالف هذه السنة على ما بدا لى ، وما أزال أراها من الأمور الغامضة التى تبعث الدهشة والعجب ٠ ولقد بلغت بى الحيرة اننى عددتها كرامة من كرامات الأوليـاء أو معجزة من معجزات الارادة الالهية ٠ والا فكيف كنت أتصور كل ذلك الانقلاب فى الأسابيع القليلة التى قضيتها فى القاهرة بعد عودتى من دمنهور ؟

فقد اتفق وقوع حادثين فى وقت واحد بل فى ساعة واحدة ، وكانت فيهما نهاية القصة ٠

فى صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر يولية وقعت الحادثتان معا وأنا أسجلهما هنا لأن بهما تنتهى هذه القصة أو بقول آخر تبدأ قصة جديدة ٠

فأما الحادث الأول فهو أننى كنت جالسا الى جانب المذياع أستمع الى قرآن الصباح والى أخبار اليوم الجديد ، فاذا صوت ينطلق معلنـا قيام ثورة من الجيش ! الجيش ! الله أكبر ! الجيش الذى كنا نخشى أن يكون هو عماد الطاغية الرهيب ؟

الجيش يعود مرة أخرى ليثبت أنه من أبناء الوطن وأن الطاغية يسخر منه كما يسخر من الأمة ، ويعبث به كما يعبث بالأمة ! انهـا لكرامة من الولى الذى جاورته فى هذه الأشهر الماضية وكنت أذهب اليه كل صباح لأؤدى صلاة الفجر بعين دامعة ٠ وقمت مسرعا لأصلى فى مسجد الحسين ، لأنى فى دهشة من المفاجاة بأنها كرامته ، آمنت بأنها كرامة ٠

والا فكر أمة من ؟ الأمة كانت لا تستطيع الا ثورة مثل التى وقعت فى يوم ٢٦ يناير ولكن هذه ثورة أخرى ـ ثورة بيضاء تعرف غايتها ·

وأما الحادث الثانى فانى ما كدت أعود الى شقتى المتواضعة فى باب الخلق حتى وجدت برقية تنتظرنى ! « تم الاتفاق وفى انتظارك اليوم حسب الاتفاق · منى » ·

وسرت كما أنا بوضوئى وخشوعى ودهشتى قاصدا الى المحطة مخترقا طرق القاهرة المزدحمة بأمثالى من الذين خرجوا الى الطريق ليسأل بعضهم بعضا فى دهشة « كيف حدث هذا ؟ » ·

وسافرت الى دمنهور فى قطار الصباح وكنت على طول الطريق أفكر خاشعا وأسأل نفسى : « كيف يحدث هذا ؟ » واستقبلتنى منى باسمة وفتحت لها ذراعى وكانت هى الأخرى تقول اذ تندفع الى صدرى : « كيف يحدث هذا ؟ » ·

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٣٨٩/٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7560 - 6